وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

الجاحدون

(رواية إسبانيّة تفوز 2020 م)

تأليف: بيدرو سيمون

ترجمة: نعمان اسخيطه

الهيئة العامة السورية للكتاب

الجاحدون

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

الهيئة العامة السورية للكتاب

المشروع الوطني للترجمة
الرواية العالمية

الجاحدون

(رواية إِسبانيّة تمّوز ٢٠٢٠م)

تأليف: بيدرو سيمون

ترجمة: نعمان اسخيطه

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣م

العنوان الأصلي للكتاب:

LOS INGRATOS

الكاتب: PEDRO SIMÓN

الناشر : Espasa,2021

المترجم: نعمان بسام اسخيطه

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

الجاحدون: رواية إسبانية/ تأليف بيدرو سيمون؛ ترجمة نعمان اسخيطه. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م .- ٢٥٦ص؛ ٢٥سم. (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية؛)

١ - ٨٦٣ س ي م ج ٢ - العنوان ٣- سيمون
٤ - اسخيطه ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

ملخص

«كانوا يقولون لنا إن سريري فيه أربع زوايا صغيرة، وإن أربعة ملائكة صغار يحرسونه لنا، لكن كان لسريري خمسة على الأقل. وواحد منهم كان لسيدة ريفية كانت تؤلمك حين تعطيك قبلة».

وصلت المعلمة الجديدة مع أطفالها أصغرهم دافيد في قرية من إسبانيا تلك التي بدأت تخلو من السكان، في عام ١٩٧٥.

تتكون حياة الطفل في الذهاب إلى البيدر وسلخ ركبتيه، والنظر على فوهة بئر دون حواف والسفر بخياله مغلقاً عينيه فيما وراء البحار. إلى أن تصل مدبرة منزل، إذ ستتغير حياتهم إلى الأبد.

تعلم دافيد من المربية إميريتا كل ما يجب أن يعرفه عن الندوب على الجسد وجروح الروح.

وهي بفضل الفتى ستستعيد شيئاً كانت تعتقد أنها فقدته منذ فترة طويلة.

(لوس إنغراتوس) الجاحدون هي رواية مثيرة عن جيل عاش في إسبانيا تلك حين كانوا يسافرون دون أحزمة أمان في سيارة سيمكا ولم يتخلصوا من بواقي الطعام لأنه لم يَمضِ وقت طويل على فترة الجوع الذي عانوها. تحية بين الحنان والذنب لمن رافقوني حتى هنا دون أن يطلبوا أي شيء في المقابل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الجاحدون

نال هذا العمل جائزة ربيع ٢٠٢١،
التي تقيمها كلٌّ من إسباسا وأمبيتو كولتولار

ومنحتها لجنة التحكيم الآتية أسماءُ أعضائها:

- كارمي ريفيرا.
- وفرناندو رودريغيز لافوينته.
- وأنطونيو سولير.
- وآنا روزا سيمبرون.
- وخيرفاسيو بوساداس.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

« الإهداء »

لأولئك الذين لا تكاد تجدُ لديهم عيوباً ،

ولأولئك الذين لديهم كثير من العيوب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

اقتباس

تقريباً كل ما كتبته قد كتبته لشخص لا يستطيع قراءتي، وهذا الكتاب ما هو إلا رسالة إلى الظل.

هيكتور عباد فيسولينس، النسيان الذي سنكون عليه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٩٦١)

كانت رياح جليدية تلسع القرية مثل طفل لا يستطيع الدفاع عن نفسه. أصبحت الأراضي المزروعة بالزعفران التي تحيط بالقرية مرتديةً عباءة ضاربة إلى البياض، وهي أول علامة من علامات الشتاء الذي يأتي دائمًا على مراحل: أولاً، الهواء المتجمد، بعد أسابيع، الضباب والجليد وأخيراً الثلج.

تفوح من الشوارع رائحة دخان الحطب، ومن البيوت رائحة الملابس المستخرجة للتوّ من الصندوق ورائحة جلد الخنزير المحروق من المسلخ. كانت القرية تعيش منكفئة على ذاتها برداً وكأن الدروب لم تكن تحمل لها أي شيء جيد.

في إسبانيا تلك الغارقة حرارتها تحت الصفر، كانت الطفولة هي الفرج الوحيد الممكن. كان الأطفال عند خروجهم من المدرسة في طريقهم إلى المنزل، يقطفون رقاقات الجليد من نافورة هوندا للعب لعبة الفرسان أو رعاة البقر أو الجنود.

كان الأولاد يشكلون قاطرة بخارية تعزف على كل شيء، وتصرخ بكل شيء، وكل شيء كان ينقلب رأساً على عقب.

لمَّا ذابت اللعبة في أيديهم أو انتهى بها الأمر بألف قطعة على الأرض، اخترعوا لعبة أخرى.

الشرط الوحيد هو أنه لا تكلف مالاً، لأنه كان لديهم فائضٌ من الرقاقات الجليدية المتبقية، وتورما بالأصابع، وعصي من أشجار اللوز التي كانت بمنزلة رماح، وكتلٌ كانت كالقنابل اليدوية، لكن المال لم يكن متوفراً.

كانت تلك الأصوات الوحيدة التي تَلافَتِ الموت والنسيان. في ذلك الشتاء الأكثر شدة، وكان ممكناً أن يمر أسبوع دون سماع أي شيء سوى تلك الضوضاء

قبل المدرسة وبعدها، حتى تغلق جميع الأبواب عند غروب الشمس. كما لو أن القفل القديم كان كافياً للحماية من كل شرور العالم.

ثم ساد الصمت هناك في الخارج.

عند وصوله إلى المنزل، دخل الصبي نافخاً الهواء الساخن من رئتيه بين يديه، وأول شيء فعله هو تجفيفها على أطراف غطاء الطاولة النقالة، وبقي مندهشاً لبرهة. لم يكن مجرد انعكاس للنار والرائحة، بل كانت حرارة قديمة لها علاقة بالأشياء الآمنة. كانت الأم تحوك الكروشيه[1]. كان جرس ساعة الحائط يدق الساعات. كل شيء في مكانه ومغطى. والأحذية المطاطية الصغيرة تزداد سخونة، شيئاً فشيئاً، على مجمر الفحم.

كان الليل قد حل بالفعل في السادسة مساءً، ليلة جامحة وحزينة ودون طي الصفحة. تتشابه جميع أنواع الظلام على حد سواء، لكن لا شيء يضاهي تلك الموجودة في قرية نائية بعد غروب شمس كانون الأول.

كانت أنوار البيوت تُضاء على مضض، واحد هنا وآخر هناك، كما هو الحال عند انعدام أيّ وسيلة أخرى، بكثافة وسطوع مختلفين. حتى إن محيط القرية تحدد بذلك البحر من الجمر.

ومشاهدته من بعيد، بدأ وكأنه مجموعة نجوم أُنشئت حديثاً.

كان الكازينو في تلك الساعة عبارة عن يراعة لطيفة في وسط أضواء أخرى أكثر فظاظة، مكاناً حيث تنسى المحاصيل السيئة، ولأسوأ أنواع النبيذ. كانوا يستعجلون الدروشة والكأس، ولعبة ورق التوته وثيران البيسون، والدومينو والمسلسل الإذاعي وبطاقات اليانصيب والصحيفة.

---

(١) **الكروشيه:** هو الحياكة أو لف الخيط بالإبر الصغيرة ذات الشكل المعقوف ونسميها عادة بالسنارةً. والنسيج المحبوك بالتعقيف يسمى المُعَقَّف. والخيوط المستخدمة متعددة، وتتنوع الخامات المستخدمة من القطن إلى الصوف والحرير وغيرها. هذا بالطبع بخلاف الخامات الصناعية. [المترجم].

ثم حدث ما حدث.

حدث ذلك في الطرف الآخر من البلدة، داخل منزل خلف الأبواب المغلقة بقفلين.

حدث في اللحظة نفسها أن السيد لويس الذي كاد يبلغ الأربعين، بالضبط عندما كان السيد إلاديو (الذي لم يصبح سيداً بعد) قد أنهى لعبة الشدة بالستات، بينما كان السيد أوبالدو (الذي كان بالفعل دون أوبالدو) يقرأ في جريدة (يا) خبر زيارة جون كينيدي وزوجته إلى بوغوتا - كولومبيا، حين قال أحدهم فت اللعبة الأخيرة.

عندما حدث ما حدث.

أولئك الذين كانوا يعيشون في القرية يتذكرون ما حدث. ليس لأنهم رأوا أي شيء، بل لأن معظمهم لم يروا شيئاً. ولكن بسبب ذاك الصوت الحيواني الذي اختلط عليهم في البداية مع صوت الفريسة الجريحة في الأرض المسورة.

لمّا مزق الصدى سكون الليل، ترك الرجال أوراق اللعب والصحف ورائحة مشروب العنب على الطاولة. سار النادل إلى جهاز ستريو غروندينغ لخفض الصوت، ثم هسهس عدة مرات آمراً بالصمت. على الرغم من أن أحداً لا يجرؤ على قول أي شيء.

سُمع الصوت مرة، وتكرر مرة أخرى.

بقي الصيادون هادئين جدّاً كما لو كانوا يصوبون على غزالة. أو كما لو كانت الفريسة لواحد منهم.

- إنه يأتي من عندك، مانويل.

- بأي مناسبة سيأتي من عندي؟

- وهو ليس حيواناً.

- بحق الجحيم ماذا يمكن أن يكون.

غبَّ عدد من الرجال كؤوسهم، قاصدين مكان وضع المعاطف، ملُتقطين قطعهم، ومقتربين للدفع. خارجاً تبدو الوجوه متوهجة، وتمشي هذه الظلال في عجلة من أمرها.

كان بيت الطفل الذي يرتدي الجزمة المطاطية أفقر الأضواء في البلدة. وهو مثل هؤلاء الرجال الذين غادروا الكازينو بالفعل متجهين نحو المكان فقد سمعه أيضاً. ولا سيَّما أن الصوت لم يكن يأت من مكان بعيد جداً، ولكن من بيت من اللبن الذي كان على بعد خمسين قدماً. بدا الصوت مثل صوت حيوان عالق في سلك شائك، عواء مثل عواء من بعيد. كان صوتاً مرعباً جداً من شدة شبهه بصوت الإنسان.

سمعها الصبي ورآها أيضاً، كان ذلك أمراً سيئاً. شيء لن ينساه حتى الممات.

دخل مع الأم. كلاهما في سباق. كان دائماً وراءها لأنه كان خائفاً، من بقائه وحيداً في المنزل مع تلك الأصوات البعيدة إن لم يرافق والدته. وخوف أيضاً أن يرجعوا من حيث أتوا.

كان باب الزريبة مفتوحاً. دفعته والدته وأغلقته. من خلال النافذة المفتوحة لغرفة النوم كان يصدر ضوءً خفيفاً حلواً. كانت ظلال الجارة تظهر على الأرضية الترابية كما في لعبة صينية مجنونة.

هي صيحات خشنة ومجنونة وتشنجية. البلدة كلها تستمع إليها. لكن المرأة التي كانت تطلقها هي الوحيدة التي لا تستطيع سماعها.

عند فتح باب غرفة النوم شاهدوا كل شيء.

المرأة في ثوب نومها وتجلس على السرير. يستلقي جسم الطفل ووجهه لأسفل مع شحوب بلون الدقيق. وهو لا يكاد يكون ملفوفاً في بطانية على سرير الأم. إنها تلتقطه وتهزه كما لو كان لدى الطفل شيءٌ ما بالداخل، ويحتاج بشكل عاجل إلى إخراجه.

إنه الهواء.

إنه الهواء الذي لا يخرج.

كورو يبلغ من العمر تسعة أشهر، وفي تلك الأيام من شهر كانون الأول كان مريضاً بالشعب الرئوية. أعطته أمه وصفة الممارس، فقد فركتْه قبل برهة بقليل من مرهم فيكس فابوراب على صدره، ثم وضعته معها في السرير المزدوج ليتعرق. وعرق. وهو يتعرق، والجو بارد ووالدة الطفل تتعرق.

ويذهبان في نوم عميق.

أولاً هي، ثم هو.

وعندما غفت للحظة، صرخ الطفل وحاول الحركة، وكان يهذي غير أن والدته لم تسمعه.

لمّا استيقظت أخيراً، لاحظت أن حملها فاتر الحرارة. ثم تتحول من الحلم إلى اليقظة، وتلمسه، وتشك، وعندئذ يتملكها الرعب. إنها تدرك أين هي، وما حدث: إن ما هو موجود أمامها هو جسم هامد لطفلها الوحيد، ناعم مثل دمية محشوَّة. مسحوق أثناء نومه.

الصرخات الوحشية بعد ذلك غير مفهومة أبداً.

أو إنهم يتفاهمون بها كثيراً.

تكلم الآن: «آه، يا كوريته».

وهي تتعرق بغثيان.

تكلم: «آه، يا كوريته».

وهنا فقط.

تغطي المرأة فمها بإحدى يديها وعينيها باليد الأخرى.

لو كان لديها ستّ أيادٍ بدلاً من اثنتين، فإنها ستغطي نفسها كاملة. لكنها لا تستطيع تغطية نفسها كاملة، ولا يمكنها أن تختفي، ولا يمكنها دفن نفسها حية.

بعض الرجال من الكازينو على وشك الوصول. الجارة التي دخلت بقيت مذهولة ثانيتين، ثلاثاً، أربعاً، حتى خمساً، ثم تتفاعل: تخلع سترتها السوداء المحبوكة، وتضعها على أكتاف تلك المرأة الضخمة ذات الشعر القصير، والتي كانت قبل أسبوع قد أهدتها بعض الكرنب.

الولد وقف جامداً ومذهولاً عند عتبة الباب. ويدرك ما حدث له حين لاحظ وجود سائل ساخن داخل الجزمة المطاطية التي لم يخلعها بعد.

منذ ما يقرب من عام، غرق زوج المرأة في البئر، وهذا المساء فقدت للتو الابن الذي كانا يسعيان إليه منذ أن تزوجا.

تحت أي ظرف من الظروف، يجب ألَّا يرى أحدٌ أماً تستيقظ من مثل هذه الغفوة.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(هو)

لا بدَّ أن الغفوة دامت مدةً قصيرةً جدّاً، لأنني حين استيقظت في سيارة سيمكا ١٢٠٠، كانت لا تزال تصدح إحدى أغاني فيكتور خارا.

إذا لم يكن برنامج كرة القدم موضوعاً على مذياع السيارة، كان والدي يشغل دائماً كاسيت ٦٠ دقيقة للمغني فيكتور خارا. أو أحد كاسيتات أتاهوالبا يوبانكي. أو دانيال فيغليتي الذي كنت ألفظه دانيال وليتي كما لو كانا اثنين، في البداية دون الوقوع في الخطأ وفيما بعد عن قصد، لأنه كان يسعدني رؤية والدي يضحك في مرآة الرؤية الخلفية.

كانت تلك الوسائط هي الفرقة الموسيقية للسعادة.

«هدف في مرمى فريق هيلمانتيكو».

أو أغنية: أتذكرك يا أماندا.

أو أغنية: إديسالامبرار «لا بأس لا بأس».

أو في النهاية، أنظر إلى نفسي في المرآة: «الآن سأضع لك دانيال وليتي».

- هل بقي الكثير؟

- أُوي. قرابة الساعة يا بني.

- «لدي رغبة بالتقيؤ».

- «حسناً تحمل. افتح النافذة قليلاً، وأحصل على بعض الهواء».

- «أنا على وشك أن أتقيأ».

حينئذ بحثت أمي بسرعة في علبة القفازات، وسحبت كيساً، وفتحته على مصراعيه، ووضعته تحت رأسي مثل كيس تغذية البغل، بدأت بالضجيج، وشقيقاتي

اشمأزت وجوههن. تظاهرت بالتقيؤ، بالطبع. لأنني لا أعرف ما إذا كنت قد أحببت رؤية والدي يضحك في مرآة الرؤية الخلفية أم رؤية أختيَّ الأكبر سناً تتقّان مثل الضفادع.

- هل بقي الكثير؟

- «خمس دقائق أقل عما سألتني في المرة السابقة».

كنا الخمسة بلا حزام أمان. كانت تظهر روائح مثل سيكارة الدوكادوس. والجلد الصنعي إسكاي. والبنزين. وبخاخ عطر نينوكو الذي واصلت والدتي بخنا به وكأننا حشرات. كما كانت تظهر رائحة الكلب. لم يكن الفليكي موجوداً فقط، وهو من أصل إيرلندي أهديَ لوالدي في شركة كريزلر فيابيرده ألتو. في كل مرة عُيِّنت فيها والدتي في بلدة جديدة كمعلمة انتقلنا، ولم ننسَ كذلك الأمر الكناريين كليهما.

كانت هناك عائلة مكونة من ثمانية أفراد في عام ١٩٧٥، تتجه مرة أخرى إلى المجهول.

في القرى لم تكن هناك سيارات أو إشارات مرور، أو جينزات السبعينيات، كما هو الحال في المدينة، ولكن كانت هناك آبار غير مسدودة وعقارب وبيوت زراعية لا يمكن أن تطل منها مثل شرفة الأبنية المدنية.

- هل بقي الكثير؟

- القليل فقط.

شوهدت القرية من الهضبة الأولى، وكانت أصغر من سابقتها، حيث كنا فيها عاماً دراسياً واحداً فقط. لم يَكَدْ يكونُ لها ثلاثون ضوءاً وامضاً، مثل تلك الشموع التي تطفئها بنفخة واحدة.

كان الظلام قد حل بالفعل عندما توقفت سيارة سيمكا ١٢٠٠ عند تقاطع سكة القطار حيث مر آخر قطار شحن، وكان صاخباً وغير مستعجل. وشعرت بما شعرت به في أوقات أخرى:

ذلك كان دخول بلدة في الظلام أشبه بمصافحة شخص دون رؤية وجهه. طريقة سيئة لبدء الأمور.

لقد وصلنا. كان كل شيء في صمت. غنت الصراصير في أيلول. إضافةً إلى رائحة سيكارة دوكادوس، وعطر الأطفال نينوكو أو رائحة كلب مشعر، كانت تفوح أيضاً رائحة التخمر الحامضي.

لقد تحملت أنا. لكنَّ الضفدعتين كانتا مريضتين: لقد تقيأتا ثلاث مرات.

* * *

كنا قادمين من قرية، وذاهبين إلى قرية أخرى، في لعبة الإوزة تلك التي جلبتها والدتي منذ حصولها على منصبها كمعلمة. في لوحة لعبة الشطرنج كان مربع الانطلاق فيها بلدة قشتالية هي لوس كواترو أبويلوس أغريكولتوريس (الأجداد المزارعون الأربعة)، ومربع الوصول كان مدريد.

لقد كنا البيادق الصغيرة على اللوحة، تلك التي رافقت البيادق الكبيرة. وحظنا اعتمد على زهر أمي، لأن أبي كان قد وصل بالفعل إلى نهاية اللعبة.

أتينا من شارع غير معبد، وخال من إشارات المرور، وكنا نصبو إلى الشارع المعبّد.

لون أحمر.

لون العنبر.

لون أخضر.

كنا تلك إسبانيا التي ما زالت تنظر دون عبور. تلك التي انتهى بها الأمر بمغادرة الريف إلى المدينة، شيئاً فشيئاً، في سيمكا ١٢٠٠ أو ذات الحصانين، وصعودا إلى رينو ٤ أو ٨٥٠.

كنا أبناء أولئك الذين رحلوا - أنا وأخواتي - أو أولئك الذين كانوا ذاهبين. أو ممن حلموا بفعل ذلك.

ولدت أمي وأبي، وترعرعا في القرية نفسها من سالامانكا. هناك تشاركا المدرسة. هناك رقصا لأول مرة. هناك وقعا في الحب، هناك قررا ما يجب القيام به بعد ذلك. وهناك وضعا دبوساً على الخريطة. دبوساً مسمراً على مدريد، وعلى نحوٍ مماثل كان يمكن أن يكون مسمراً على بلباو أو أوفييدو.

لقد جئنا من الظلام. ذهبنا إلى النور.

كنا نطمح إلى المزيد. على الرغم من أننا سنعود لاحقاً إلى القرية في سالامانكا في آب أو في أسبوع عيد الفصح للتسوق والتعارف.

كنا من الذين يركبون في المقعد الخلفي للسيارة بلا أحزمة الأمان، أشعر بالرغبة في التقيؤ، هل بقي الكثير؟ فأنا أتبول يا أبي، لا تسرع. كنا ذلك الجزء الصغير من الأمتعة، كانت إسبانيا تتحسن. أبناء تلك الطبقة الوسطى، القابلة للتغيير، العادية، الجريئة على هواها. رقم ستة، ترمي من جديد. من إوزة إلى إوزة وأرمي الزهر لأن دوري قد جاء. رقم واحد، من المتاهة إلى ثلاثين. هذا المرجل الذي أثار التنمية.

أي ما جاء لأمي بالزهر.

هذا ما كنا عليه.

* * *

أكثر من مجرد اكتشاف القرية - إنها قرية مسطحة مطلية بالكلس الأبيض، فيها عشرة شوارع معدودة، تميل إلى القباحة ومع عدد من الكهوف، لا يمكن قول المزيد - ما أحببت أنا وأخواتي استكشافه هو استكشاف المنزل الجديد بشكل جيد. إنه المسكن المجاني الذي كانت البلديات تحجزه للمعلم.

تضع فيرونيكا نفسها في وضع القائد، وتثخن صوتها وتقول اتبعوني! وتبعناها بولاء الحملان. إيسا في المقدمة. أنا في الخلف. استمر النظام لبضع ثوان.

دخلنا كما لو كنا قد فجرنا قفلاً، مشينا بفارغ الصبر من خلال غرف، طلبنا سريراً، وألقينا أنفسنا فيه مثل حارس المرمى ميغيل رينا، جربنا الوسادة، فتحنا الخزائن والثلاجة ثلاث أو أربع مرات، وفعلنا الشيء نفسه مع صنبور الماء، كنا نندفع إلى بيت الخلاء لنرى من الذي سيدشنه أولاً، ثم نشدّ السلسلة التي كانت حينئذ ما زالت معلقة، نظرنا إلى أنفسنا في المرآة بقفزات، وفتحنا ستارة البانيو، أشعلنا الأنوار، وأطلينا من النوافذ، وتركناها مفتوحة، ومررنا السبابة على طول الجدران، والظفر على طول حافة القماش الزيتي، لقد علّمنا على كل شيء، وخرجنا إلى الشارع، وعدنا وتحققنا من أن الباب الأمامي مغلق بشكل صحيح.

وفقط بعد خمس عشرة دقيقة، عندها فقط، أعني، أصلحنا البلاط المقشوط إن وجد على الأرض غير المستوية، إذ لم يكن هناك بحر مثل العام الماضي وفي كل ما تركنا وراءنا.

لم يكن هناك اقتلاع أعظم من اتباع والدتك من بلدة إلى أخرى. أم معلمة مشغولة جدّاً زيادة على أنها ليست لك فقط، ولكن لجميع أطفال المنطقة.

كنت صغيراً جدّاً، لكني كنت أعلم بالفعل أنه لا يوجد أفضل صديق في العالم. وهذا إن وجد، فلن يدوم كثيراً. تماماً كما كان يحدث لأبي مع العطور الحلوة: مضت شهور ورائحته من ثلاثة عطور مختلفة. ومن المعروف أنه لم يحدد أيها خاصته.

* * *

ذهب هو إلى مدريد في ذلك الأحد ليعمل في اليوم التالي. في رحلة تتكرر كل عام من نقاط جغرافية مختلفة كنهاية الصيف الحقيقية: كان أبي يعود إلى العاصمة بعد قضاء العطلة معنا، ثم يبدأ روتين العام الدراسي. حينئذ كانت الصفوف الأولى قادمة إلى المدرسة، وتقصر فترة بعد الظهر، ويحل الظلام، ولعبة البرجيس، وبرنامج الإنسان والأرض التلفزيوني، وبالطبع الشتاء.

لقد بدينا مثل دودة القز التي أتلفت شرنقتها، فتبدأ في صنع منزل آخر.

قضينا الأيام الأولى في تنظيف كل شيء رأيته نظيفاً: أمي على ركبتيها تفرك. في ترتيب كل شيء: فتحت أمي الصناديق وتسلقت السلم. في التعود على غرف النوم تلك: تأتي أمي في الليل لتضيء الضوء وتخيف الوحوش. في تحديد حدود القرية، تلك الحدود التي لم نتمكن من عبورها: تمسك أمي بيدي في الطريق.

أنا أستخدم صيغة الجمع، لكن الجمع كانت أمي وليس أي شخص آخر. مفرد، وحدها، رقم نحوي بأنها لم تزن خمسين كيلوغراماً، وأن لها زوجاً في مدريد.

- حتى هنا. حتى أشجار اللوز هذه.
- «وبدءاً من هنا ماذا»؟
- لا أريدك أن تتجاوز أشجار اللوز هذه.
- «هل يمكن أن يحدث شيء لنا»؟
- «ليس من الضروري أن يحدث ذلك، لكني لا أريدك أن تذهب».
- «هل يوجد قاتل في هذه القرية»؟ فيرو تقول إن هناك قاتلاً.
- «أي قاتل ولا أي قاتل»؟ امش، انطلق واصمت.
- «من سيفوز إذا كان هناك صراع»؟ أبي أم القاتل؟

كان كل شيء ينتهي، ويبدأ بين أشجار اللوز.

في ذلك الوقت، كانت أمي لا تزال أمي. لم يكن هناك الكثير مثلها في تلك السنوات، ناهيك عن ذلك في بيئة ريفية، إذ كان يُنظر للنساء باستهجان إذا جلسن في مؤخرة الكنيسة، وهي مساحة مخصصة للرجال. لن أقول الآن إذا لم يذهبن كما كانت تفعل والدتي في بعض الأحيان.

لمّا كانت تصل معلمة جديدة إلى القرية - رأيناها أكثر من مرة - كان الجيران يأتون فجأة إلى المنزل أو يظاهرون باللقاء في الشارع للتعرف عليها. أراد قليل منهم

أن يلقوا التحية بخجل. كان البعض يراقب أمي من خلال الستائر الشبكية. قلة أخرى تساءلوا عما إذا كانت ستبقى مُدَّةً طويلة، أو ما إذا كانت العمدة في الغرب المتوحش. كان هناك من يأتي مع بعض الخضار الطازجة، وكان هناك شخص ما ذهب مع الصبي ممسكاً بكتفيه تماماً كما يفعل بالعود. كما لو كانت الأم تتدرب لحين عُوقب الابن، سيكون مثبتاً.

كان لدى العمدة أو الكاهن مفاتيح دار البلدية أو الكنيسة، لكن أمي كانت لديها أبناؤُها. وأنت لم تعد بيبه أو مانولو أو خافير أو دافيد - كان هذا اسمي: دافيد -، بل ابن المعلمة. كما لو أنني كنت خطيئة الأم ولم يهتموا بأبي.

كانت أمي تقع مستسلمة كل يوم، لكنها كانت لا تزال سعيدة. وتزداد سعادتها عند نهاية الأسبوع وكذلك عودة سيمكا ١٢٠٠. لم أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك: تلك المرأة هي نفسها برائحة التبييض يوم الخميس وبرائحة الخزامى يوم السبت. لأنني كنت دائماً برائحة عطر الأطفال نينوكو التي كانت أمي تبخني به في الصباح وكأنه مادة د. د. ت.

لقد درست شهادتها المهنية، وأصرت علينا عندما رأتنا نتراخى في أداء واجباتنا المدرسية، فحققت اعتراضاتها. وأصرت علينا مرة أخرى كانت قد غادرت بلدة الأجداد، حيث ولدت. كما لو أن تلك الحياة التي كانت لديها الآن كانت مثالية، ومن ثمَّ، فإننا نرغب فيها لأنفسنا في المستقبل. شيء لم يكن لي واضحاً جداً عند رؤية ما قد رأيته.

ربت وحدَها ثلاث أبناء: فتاتان معتوهتان وصبي خائف. أعطت دروساً لثلاثين طفلاً تراوحت أعمارهم بين ستة وأربعة عشر عاماً. دخنت قليلاً. لقد سافرت بين باريس والبرتغال. ارتدت بنطلونات واسعة ونظارات مثل فتيات برنامج التلفاز (واحد، اثنان، ثلاثة). كان لديها رخصة قيادة بالرغم من أنها لا تقود. مشّطت شعرها بأسلوب الصبي. كانت تصلح مقابس الكهرباء. وكانت تطبخ بشكل سيَّئ. وتخيط. وتزرع بستاناً صغيراً. كانت تعتني باثنين من طيور الكناري.

كانت تجبرنا على جلي وتجفيف وتعليق الأواني. كانت تشرح لنا الدرس. كانت تعمل حتى وقت متأخر من الليل. وبعد أن تقرأ لنا قصة الصرصور والنملة بالفرنسية بجانب مدفأة الغاز الرمادية، تسقط منهكةً في سرير ضخم وفارغ.

كان عليها الحفاظ على النظام خلف الأبواب المغلقة، وكان علينا قلب كل شيء رأساً على عقب وبأبواب مفتوحة.

كانت إيسا، الوسطى، أكثر من تعرف الوقوف على يديها، وكلما استطاعت كانت ترمي بنفسها على الحائط رافعة ذراعيها، وتضع يديها على الأرض وبحركة بهلوانية، انتهى بها الأمر متباعدة الساقين، واستدارت مع سروالها الكروشيه على الهواء. بقيت هكذا مدّةً من الوقت حتى عادت إلى الوضع الرأسي والوريد في جبهتها منتفخ جدّاً. - الآن دورك أنت يا دافيد. أعتقد أن هذا كان الشيء الوحيد الذي فعلته إيسا بشكل أفضل من فيرو: شجرة الصنوبر - الوقوف على اليدين.

هكذا كان. قامت فيرو بعمل جيد جدًا في التملق والطبخ، وأدت إيسا الوقوف على يديها جيداً وأنا كذلك. كما تعلم، لقد لعبت دور الأحمق جيداً.

- «هل يمكنني اللعب معكن»؟

- «اعثر على أصدقاء، يا فتى».

- «تعالي، يا فيرو».

فقالت إيسا: «اتركيه، - أكملت إيسا - ولكن اربطه».

- «حسناً، قم بربطه». هكذا.

- «حسناً، إني أربطه».

أمسكتُ بالشريط المطاطي، وانتظرتُ لحظتي، وشديتهُ بقوة، وتركتهُ يصيب إحدى الأختين.

كانت بداية الفصل الدراسي رائعة. جميع القرى متشابهة تماماً: تفوح منها رائحة الحطب، وهي محاطة بطرقات، لديها معلم، بطيخ شمام للسرقة، ساحة، ينبوع

وكنيسة تعتني بها كبيرات السن. لكن تسع سنوات من عمر الطفل لا علاقة لها بالسنوات السبع. ولا السنوات الست مع العشر.

لهذا كان كل شيء مختلفاً. وأفضل. وكذلك أسوأ. كما لو أن كل شيء أثر عليك أكثر مما كنت عليه ولداً صغيراً مع قبعة الجلاد.

إذا لم تكن في ذلك العمر راعيَ بقرٍ أو مبارزاً أو جندياً أو متهوراً (دير ديفيل) بعصا بسيطة، فذلك لأنك كنت طفلاً سخيفاً. وكان لدي بالفعل ثلاثة أو أربعة من أبناء العمومة الذين عرفتهم من مدريد أطفال قذرون، لأن لديهم لعبة (ماديلمان) الغطاس، (وأنا لا)، وكانوا يلعبون تلك اللعبة فقط.

كان أفضل صديق جديد في العالم يسمى فيسنته خيسوس، وثاني أفضل صديق جديد في العالم كان يسمى غريغوريو. وكان فيسنته خيسوس هو الأفضل لأنه كان يعيش في الجهة المقابلة من الشارع وكان مصاباً بمرض السكري، وكان لديه منزلٌ مملوءٌ بالحقن التي كانت تغليها السيدة دونيا أمبارو باستمرار. ما زلت أتذكر اليوم الأول الذي حقنا فيه مشروب أوروخو في الحلزون. أو في أرنب جدته، التي كان علي أن أمسك به من أذنيه كما لو كان ثور المصارعة روديو، لأحقنه جرعة.

لعبت إيسا وفيرو لعبة القصاصات، التي كانت لعبة هزلية تتكون من اللعب بدمى كبيرة الرأس من الورق المقوى بدلاً من الدمى الحقيقية. لكن لم يكن لي أخ من عمري، وكنت أنا الصغير. لهذا السبب احتجت إلى بندقية أو بازوكا. والأعداء.

الشارع.

الطرق.

ما وراء أشجار اللوز بالطبع.

* * *

في تلك الأيام أمطرت السماء على المنطقة، وكأن السماء مدينة لها بماء عدة فصول ربيعية.

فاضت البحيرة، وغمرت المياه جميع الحقول، كذلك غرقت الأقبية والكهوف المنخفضة.

وكان لدينا في المنزل أربعُ دلاء لتجميع مياه تسريبات المياه من السقف، والشيء الجيد الوحيد حقاً هو أن أمي كانت تصنع أفضل القوارب الورقية في العالم، وكنت أنا وأخواتي نتسابق بها في سباق المراكب في تيار المزراب. كان عنوان كتاب بابيروفليكسيا - فن قص وتشكيل الورق (صفحة من الورق)، وكان جزءاً من مجموعة الأعمال اليدوية لدار النشر سالفاتيلا. ظهر على الغلاف عصفور ورقي وخنزير من الورق المقوى. كانت أغلب زوايا الكتاب مثنية، لأن والدتي كانت قد نفذت لنا جميع شخصيات الكتاب التي يمكن تخيلها لصرف الملل: الطائرات، الإوز، الضفدع، الأرنب، البجعة. معتقدة أن العصافير الورقية تجلب الحظ السعيد، فكان لديها عدة عصافير ورقية موزعة في أرجاء المنزل. ما تعلمته من هذا الطوفان الإنجيلي الذي حجزنا لأيام هو أن ما افعله بيدي نتائجه محتومة. وكلما زاد اهتراء الكتاب، بدا أكثر حيوية.

أمطرت السماء مثل بحر انقلب رأساً على عقب. مع الرعد والبرق. وبذلك فإن ما كان يسخر منه الطفل في البداية أخافه فيما بعد.

ولكن بمجرد توقف المطر لبضعة أيام، وعاد كل شيء إلى طبيعته (المصارف، المزاريب، النهر)، فإني كنت أغادر البيت إن ارتديت المعطف الأخضر المطري (أو لا).

كانت أمي مشغولة جداً في ذلك الوقت بإعداد الدروس، وإنهاء أعمال المنزل، ومشاهدة أخواتي، إصلاح تدفئة المدرسة، طلب اللوازم المدرسية الناقصة، تمشيط فروة الكلب وإغلاق ثقوب التسريبات، حتى إني أذهب بعيداً نصف عار مثل طرزان، وأعود ممتلئاً بالطين في الليل دون أن أرى تقريباً في عمر أخبرني فيه، في المدينة، أبناء العم، أنت بقيت حرّاً تحت المراقبة.

- قالوا لنا - «أنتم محظوظون جدّاً» -. لا تعتقد أنهم في المدينة يتركون الأولاد هكذا طلقاء.

في كل يوم كنت أكتشف ركناً جديداً، شعاراً جديداً، فتاة جديدة، سراً جديداً. ثم أعود إلى المنزل مخشخشاً قطع الرخام في الجيب كما لو كانت لآلئ من المحيط الهادئ.

العصافير الورقية بالنسبة إليَّ، يمكنها أن تكون بدلاً من الحيوانات الحقيقية.

* * *

لطالما فكرت كيف ستكون حياتي لو أنه، بدلاً من وجود شقيقتين كبيرتين، كانا شقيقين زميلين في فريق كرة القدم ومستكشفين.

وليس اثنتين من الضفادع.

أسميتهما الضفادع لأنهن في كل مرة يتقيأن فيها في السيارة، بدا الأمر كما لو أنهن بدأن بالنقيق. عادة، فيرو أولاً وتليها إيسا. لذلك ولأن اللقب أزعجهم بالطبع. فقد صرنا على علاقة سيئة كما هو الحال في العائلات الجيدة.

إذا كنت الابن الأصغر وكانت علاقتك جيدة مع أخواتك، فإذا لعبت معهن، وأردت الذهاب معهن، وحاولت أن تبدو مثلهن، يعني أنك كنت عبداً بلا عقل أو ماريكيتا - دعسوقة. على الرغم من انتهاء الاسم بـ - يتا، كان الأمر أشبه بكونك ماريكا -مخنثاً كبيراً جداً وكبيراً جداً.

لكن في النهاية، تقاسمنا سقفاً وكتباً مدرسية. وأسئلة. حتى أنواع الخوف. نعم، بمجرد أن تخليت عن حذري، نسيت أن واجب كل أخ صغير وهو واجب فقط مضايقة أخواته الأكبر سناً.

- «هل تعتقدين أنها ستكون أسوأ أم أفضل من القرية السابقة، يا فيرو»؟

- «أفضل، أيها الأحمق».

- «هل يمكنك أن تترك لي سريرك»؟ ذلك لأن سريري بجوار الباب، وهذا يخيفني.

- طيييييب.

- «هل كوّنتنّ صديقات حتى الآن»؟ أنا لقد كونت أصدقاء.

- غدا تواعدنا مع ثلاث فتيات. دعنا نرَ ما هو الحال. واحدة لديها رقعة عين.

- «مثل القراصنة»؟

- «حسناً، إنها ترتدي نظارة فوق عينها».

- «القراصنة لا يرتدون النظارات».

- نعم. لهذا السبب.

- يا فيرو.

- «ماذا»؟

- «ماذا تعتقدين أنه يحدث ما وراء أشجار اللوز»؟

- لا شيء. اذهب للنوم، يا ثقيل. التي قدمت لي الإجابات كانت فيرو. إنها من خلال السنوات القليلة التي تكبرني فيها، بدت وكأنها الأخت الكبرى. كانت الأكثر اجتهاداً من بين الثلاثة في المدرسة. كانت دائماً تتملق والديَّ. لقد ساعدت والدتي في المطبخ. عندما كانت تتغابى، تصبح غبية.

إيسا هي التي جعلتني أطرح الأسئلة لا سيَّما أنها تُجيد تسلق الأشجار أفضل مني. لقد عاشت في ظل فيرو، لكن كان لها شخصيتها الخاصة. فلكي تقول لا، ترفع كتفيها. ذات مرة رأيتها تتبول واقفة، وقالت لي أن أحاول التبول جالساً القرفصاء. قصت ذات مرة شعر لدمية لمعرفة ما إذا كان قد نما أم لا. لم يَنْمُ.

كانتا ترتديان ثياباً متشابهةً إلى حد ما. ملابس باهتة من قطعة واحدة أو تلك الملابس ذات السروال بمئة جيب. على الرغم من أن الشيء المميز كان شيئاً آخر: كانت الملابس دائماً أنظف، وتدوم للكبرى أكثر بكثير.

أعتقد أن أمي كانت تحب فيرو أكثر، وأن أبي أحبني أكثر، وأن فليكي أحب إيسا أكثر.

* * *

في ذلك الأحد، كان غريغوريو قد واعدنا للذهاب إلى الإيرا بلانكا - الحقل الأبيض، الذي لا أعرف لماذا أطلق عليه هذا الاسم إذا كان بلون الأرض الغامقة. تراجع فيسينته خيسوس في اللحظة الأخيرة. أحطنا به ودياً لمحاولة إقناعه.

- قال: «لدي قط وسوف يشعرني بالأسف». تجشأ. أكل لقمة أخرى من الشطيرة.
- تدخل غريغوريو - «لا تقلق بشأن هذا». ذلك يشعرني بالأسف لي أيضاً. ولكن ما يشعرني بالأسف أكثر من ذلك أن والدي سيضربني.
- وافق الآخر وفمه ممتلئ: «أنا ذاهب، لكنني لن أنظر».
- وأضاف جريجوريو: - «علاوة على ذلك، - فإنهم لا يعانون بالطريقة التي أفعل بها ذلك».

«هل يمكنك أن تعطيني لقمة»؟ لقد قطعت المحادثة.

أعطاني الخبز المحمص كله. مشينا نحو ثلاثين دقيقة نتحدث عن ساريتا وسراويلها الداخلية.

عن زيتون السيد لويس وديل بيراكاس الذي اشترى دراجة كهربائية توررت حمراء.

مع صوت العاصفة مغادرة كانت أو قادمة، لم يعرف ذلك قطُّ. كان غريغوريو يحمل حقيبة كتف كبيرة مع مشدات حديدية صدئة. مظهراً أنه مهم.

شجرة البلوط الوحيدة التي كانت موجودة في منتصف الأرض، بجوار منطقة صخرية صغيرة، فعند وصولنا إليها كنا قد مشينا ملطخين بالوحل حتى الركب. لقد بدينا مثل جامعي العنب وهم يدوسون العنب، مع رشنا بقشور العنب إلى الأعلى. لقد كنا مندهشين لدرجة أننا لم نَدْرِ أن السماء قد عادت لتمطر من جديد. هذه المرة عن قصد.

كان غريغوريو قد مشى في الأول محاولاً أن يطأ الحجارة حتى لا يغرق في الوحل.

كان فيسينته خيسوس قد مشى مرتجفاً وراءه.

كنت قد مشيت الأخير.

كان الضوء خافتاً. لكن ذلك كان كافياً.

لا شيء أسلم وأعنف مثل فترة صامتة. فترة لا يوجد فيها شيء آخر سوى ثلاثة أطفال، وشجرة بلوط واحدة وحقيبة كتف بها أجزاء معدنية صدئة تخفي شيئاً بداخلها.

- «انظر إليهم، ما رأيك»؟

بدوا خارجين من الرحم تواً: رطبين، يرتجفون، وساخنين.

كان غريغوريو قد أخذ القطط الثلاث من الجلد الخلفي للرقبة ثم عرضها علينا بصمت. وكل منا داعب مفضلته.

- «والدي نذل. لقد أراد دسهم في جدار البستان، كما هو الحال دائماً».

- سألت «هل فعل ذلك مرات كثيرة؟».

- دائماً. كان يتركهم هناك لعدة أيام. مع الذباب والبق. قائلاً إنه يفعل ذلك من أجل أن تتعلم القطة ألا تفزع.

- بالفعل.

- ثم تذهب ميمي إلى الحائط وتشمها. ثم يختفي والدي لبضعة أيام... يا له من نذل.

- «إنهم جميلون جدّاً» - أشرت -. هذا يشبه النمر.

- «كل ما في الأمر أنه لا يريدهم». عندما يعود إلى المنزل من الكازينو ويراهم في المنزل، يقول إنه سئم من القطط حتى (لوس كوخونس). والآن هو يسمح لي بالحصول على ميمي فقط إذا اعتنيت بها عندما تحمل ...

- بالفعل.

- إنها لن تعاني بالطريقة التي أفعل بها ذلك، هاه.

كانت العقد مصنوعة من خيوط الصيد. لكنهم استغرقوا وقتاً طويلاً ليموتوا لأنهم كانوا يزنون قليلاً. حين كنا متأكدين من موتهم، قمنا بإنزالهم ووزنهم. في تلك المرحلة، كانوا متيبسين ومبلولين بالماء كما لو كانوا قد غرقوا في النهر. دفناهم بين الحجارة الصخرية. تبولنا أنا وغريغوريو متوجهين إلى الجانب المقابل لأنهم أحزنونا. سألت عما إذا كانوا قد تبولوا بوضعية جلوس القرفصاء. نظروا إلي بشكل غريب. اعترض فيسنته خيسوس وقال آمين.

الأسوأ بعد ذلك كانت الريح. بقينا خارج المنزل لعدة ساعات، مبلولين الماء. لقد فكرت كثيراً جداً. فيما يقوله الطفل كثيراً: عندما تكون طفلاً ويتوقف الزمن، قد يكون سواء إن مرت ساعتان من ثمانية عشر عاماً.

كان أقرب شيء هو كوخ إيميليو، فهو في منتصف الطريق إلى القرية. دخلناه وسط الظلام، وبدرجة حرارة الصفر، كنا مضائين بشكل خافت ببعض أعواد الثقاب التي حملها صديقي الثاني في علبة ملفوفة في كيس بلاستيكي. كانت هناك ثلاثة أحجار قرميد مكسورة، وكيس من الإسمنت نصف فارغ، والبراز في إحدى الزوايا، وكثير من الأدوات الزراعية التي لم تستخدم منذ فترة طويلة.

جلسنا كما هي استطاعتنا، وانتظرنا حتى صحا الجو. طلب أحد منا أن يشعل النار لتجفيفنا، كما في الأفلام. لكن غريغوريو، الذي كان أكبرنا سناً، قال ألَّا نلفها.

- وأضاف فيسنته خيسوس: «بل ستقول، لنلفها أكثر».

ثم أخرج غريغوريو علبة دخان ريكس كان قد أخذها من والده، وأشعل السيكارة له وهو يسعل، ومطلقاً نفخةً طويلةُ ولطيفةُ، كما لو أنه انتهى لتوه من قذف سائله وليس إعدام ثلاث قطط.

نحن لم نتحدث لحين. الشيء الوحيد الذي أضاء الكوخ هو جمرة سيكارة ريكس التي جعلت وجه غريغوريو يبدو كشرير، الذي كان على وجه التحديد ألطف فتى في القرية.

- «هل تسمح لي بتجربته»؟

- خذ.

- قال فيسنته خيسوس، - «سوف نفوز بها» ذلك بعد أن تجاوز موعد الحقن، وكان يعرف عما يتحدث. - سوف نفوز بها...

عندما أنهى غريغوريو سيجارته الثانية، كان قد صحا الجو. بما يكفي لنعلم أن عاصفة جافة كانت تنتظرنا في المنزل.

بدأت الأجراس تدق في القرية كما لو كان هناك حريق.

- قلت: «هناك نار».

- لا تكن معتوهاً.

لا بدَّ أن الوقت كان متأخراً. عندما اقتربنا من حيث بدأت المنازل، كان من الممكن تخمين الأضواء الأربعة الخافتة دائماً. مع مصباح يدوي وصراخ ينادوننا.

كنا ثلاثة أطفال نبدو وكأننا ناجون من الغرق بعد عاصفة بحرية، ونحن داخلون من خلال طريق القرية، أثناء وجود أربعة أو خمسة ظلال تثير لنا الضجة وتتجه نحونا. كنا على وشك إطالة حياتنا.

لذلك سألته.

- «وكيف تعرف أنهم لا يعانون»؟ وقف وأخذني من ذراعي.

- «لأن أخي لم يتألم».

* * *

نال غريغوريو عدة سياط استمرت آثارها عليه لمدة شهر: لم يعد يرى ميمي مرة أخرى.

سمعت صرخات والد فيسنته خيسوس من منزلي وهو يضرب ابنه، الذي كان مقابلاً لبيتي.

كنت سأدفع إكرامية لمدة أربعة أسابيع كيلا يضربني أبي في هذا اليوم الأحد.

استمرت معي الحمى الشديدة ثلاثة أيام، واستمر التهاب الشعب الهوائية لأسابيع، واستمرت البثور في فمي مدة شهر. لكن الأسوأ من ذلك كله هو ما جرى في تلك الليلة والذي حدث ليبقى. ولا أقصد الربو الذي سيرافقني دائماً.

في تلك الليلة، قالت أمي وأبي بعضهما لبعض أشياء جديدة وهائلة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فلأنني لست أحمق، لكنت قد ظننت أنها تخيلات بسبب الحمى. الآن أعتقد أنك لن تكبر حقاً، ولن تعرف ما هو العالم حتى لا تعود تسمع إهانات والديك. أقول إن يتم إهانتك بذلك الأسلوب.

في فترة الغفوة، ميزت فقط بين الصراخ ست أو سبع عبارات لا تبدو مثل كلماتهم. إنها عبارات لم تظهر حتى في أفلام دوس رومبوس (أفلام للكبار +١٨)، وفي أحسن الأحوال، كنت أسمع فقط. الهمجي خوسيه لويس يقول. عن الكلبة الشابة. عندما لم تكن تستحق ذلك العناء ولا مطاردتها.

ثم كان هناك نوع من التصفيق القوي، والجاف، والوحيد، واحد فقط، مثلما حدث عندما كان الجد خورخه ينادي النادل.

ونمت.

عند فجر اليوم التالي، كنت وحيداً في الغرفة. كانت أمي وأخواتي قد ذهبن إلى المدرسة. هذه المرة لم يترك لي أبي المجلة الفكاهية كما اعتاد. بحثت عنها باللمس، شاعراً بالدوخة قليلاً، مثل رجل جريح يبحث عن ترياق. لكنها لم تكن موجودة.

ثم في ذلك الصباح شعرت بالدوار لأول مرة. لم يكن خوفاً من مصاص الدماء دراكولا، أو من الرجل الذئب. كان خوفاً من شيء حقيقي.

لأن هناك أشياء لا تدع الطفل ينام. لكن الأسوأ تلك التي تسلب للمرء الرغبة بالاستيقاظ.

* * *

عندما كنت أندس بين شراشف سرير والدي صباح أيام السبت، لم يعد أبي عارياً أبداً كما في البداية.

في تلك الأيام عندما رأيت ذيله في الهواء، سألته كيف كان ينام هكذا وكان يجيبني دائماً أن لديه كثيراً من الحرارة. شيء لم أفهمه لسببين: الأول، كان الفصل شتاء، والثاني، كان يرتدي القسم العلوي من البيجامة.

كان قد أتى في يوم الجمعة بينما كنا نياماً، وبقي حتى ليلة الأحد ليسألنا عن الدرس. كان استيقاظنا أيام السبت مداهمين سرير أمي وأبي مثل الصعود على طوف في وسط المحيط. مهما حدث، كنت بأمان.

كنت أول من ينهض مبكراً، وبقفزة واحدة أضع نفسي في المنتصف حيث أتقوى. إذا أخرجت القدم من السرير، أكلتها سمكة قرش، يم. إذا انقلبت رأساً على عقب، كان عليّ أن أحزر من أعطاني الصفعة لقد لعبنا أيضاً معارك: ثبتني والدي ولعق أنفي، ما أثار اشمئزازي.

عندما تعبت إيسا وفيرو وذهبتا مع أمي، قارنت ذيلي بذيله. لكن لم يكن هناك لون. وأنا لا أتحدث فقط عن لون البشرة. حتى ذات يوم وبعد مدّة وجيزة من الغضب بسبب القطط، استيقظ أبي صباحاً مرتدياً سروال البيجامة.

وجد والدي ظرافة أننا كنا نناديه أحيانًا بـ ناتاليو بدلاً من أبي. لكن الأمر مع والدتي اختلف لم أتمكن من النطق سوى ماما أو أمي. وفي الفصل، كنت أناديها آنسة مرسيدس لا أكثر. وذلك لأنها أصبحت غليظة جدّاً.

كنت أتطلع أن تصل ليالي الجمعة، عندما جاء والدي، فقد كان مزيجاً بين الممثلين جان بول بلموندو ولويس أراجونيس.

كانت أخواتي الضفادع تلعب مع قواطعها أو مع المطاط، وجلس أبي على ركبتيه معي للعب لعبة التشاباس.

- «هل ستأتي إلى البيدر»؟

- «لقد جاء والدي».

- وذلك؟

- «حسناً، أريد أن ألعب معه».

- «هل يلعب والدك معك»؟

- طبعاً لنرَ.

- «هل أحضر لك المجلّة الفكاهية»؟

- مجلّتين.

شيئاً فشيئاً، باعد والدي بين زياراته من مدريد. أعتقد أنه كان خطئي. ومع مرور الوقت، أمكنه قضاء شهر ونصف دون ظهوره. وعندما فعل، لم يَكَدْ يتحدث مع أمي. ادعت أشياء من المصنع لتبرير غياباته.

عندما عاد بعد فترة وهو يطلق بوق السيارة، كان يجلب لنا دائماً شيئاً: ألبوم فارغ، بعض مجموعات الحيوانات، الخيار بالخل، الجنود الصغار أو قصاصات الصور. حين لم يكن موجوداً في الكازينو، فيمضي اليوم المقدس كله معي أو مع الأخوات. والدي، يا له من رجل، لقد غير عطره مرة أخرى. قال لنا: «ساعدوا والدتكم». ولم يعد قط ليسألنا الدرس.

يوم الأحد الأخير الذي رأيته في القرية، ترك لي أبي شريط كاسيت دانيال وليتي تحت الوسادة. الآن كل ما أحتاج إليه هو راديو كاسيت.

أعتقد أنه هكذا بدأ هوسي بها.

عندما توقف أبي عن المجيء (قالت لي أمي معطية ظهرها لي «إنها مواضيع للكبار، لا تقلق، تناول وجبة الإفطار»، وهي تغسل الصحون بصوت غريب جدّاً)، لقد فعلت شيئاً لم أفعله قطُّ، شيء من شأنه أن تدفع أخواتي ثمنه باهظاً: بدأت بالتغوط في سروالي.

* * *

(هو وهو)

ظهرت جثة الصبي الهامدة ووجهه للأسفل عائمة في بئر مكسورة الحواف. هو طفل ساكن منتفخ الجثة وذراعاه متشنّجتان، كما لو كان يحبس أنفاسه. كما لو كان يفتعل الموت أو يمارس رياضة الغوص في ليلة ظلماء بلا قمر.

كان مفقوداً منذ أيام. واكتشفه بين الطحالب صياد متسلّل جاء من بعيد لصيد الضفادع وما يجده من أشياء أخرى.

ومن وراء حدود الأرض المسيّجة أضاء الفانوس، ورأى الجثة هناك، فقال إني ألعن كل شيء، وفكر للحظة، وأفرغ مرعوباً كيس الضفادع في الماء. كان يسقط على ظهر الصبي الميت، إذ بدأ بالنعيق.

ثم مشى مسرعاً ليحذر السكان المدنيين، ثم رافق الحارسين إلى المكان، وأيقظوا رئيس البلدية، الذي أمر بإحضار قاضي التحقيق إلى بستان الحدث، وانتشر الخبر حتى في تلك الساعات. بعد الفجر بقليل، كان نصف سكان البلدة قد حضر بالفعل لتهدئة الجدة، التي عاش معها الصبي في كهف صغير خارج القرية.

منذ ما حدث لذلك الطفل الرضيع، لم تعد تذكر وفاة طفل آخر في المنطقة.

- «إنه المتخلف العقلي. ذلك صبي الكهف».
- «يقال عنه المنغولي».
- «حسناً، إنه المعنى نفسه».
- «أمي تقول لي إنه ليس المعنى نفسه».
- يروون أنه سقط وغرق.
- لأخذ العلم.

- «حسناً، إذا مات غرقاً، فمن الأكثر احتمالاً أنه لم يعانِ».

في قرية حيث كان الخبر الوحيد هو أن موسم قطف العنب قد أتى مبكراً أو أنهم كانوا يضعون تلفازاً ملوناً في الكازينو، وأن حادث الصبي الذي لم يذهب إلى المدرسة أحدث موجة من الذعر. موجة من الذعر، مثل كل الأخريات، استمرت بضعة أسابيع فقط.

فجأة، خلف محيط القرية، توارت الوحوش القديمة والأخطار.

لم تكن الوحوش مجرد آبار دون حواف (كان هناك العشرات منها)، ولكنها كانت كذلك من جاؤوا من الخارج، الصيادون، الليل، الفخاخ، المياه الراكدة، البحيرة، البساتين، الذئب، الطرق اللا متناهية ومن يدري حتى إذا كانوا هم المتخلفون عقليّاً.

قررت جميع الأمهات في البلدة تقريباً تحديد ساعة وصول لأطفالهن وقواعد جديدة. تراجعت عند أمي خطوطها الحمراء على الخريطة: لم يعد بإمكاننا الذهاب حتى إلى أشجار اللوز. وبالكثير، حتى إلى الحقل الأبيض.

بضربة واحدة تعلمت ثلاثة أشياء.

الأول هو أن الأطفال كانوا يموتون أيضاً.

والثاني هو أنه يمكن نقل الحدود.

والثالث أن والدتي كانت تعرف الخوف أيضاً.

ومن بين الثلاثة، كان الأكثر إثارة للرعب هو الأخير.

بعد الجلوس حول الطاولة المتنقلة لتشرح لنا أهمية الامتثال للقواعد، للتعاون في المنزل، وأن نكون بالغين، كانت تلك المرأة في كل مرة تزداد إرهاقاً ونحافة، وكان ينتهي بها الأمر بإخبارنا دائماً بالأشياء نفسها.

- لو كان والدكم هنا...

لكن والدنا لم يكن كذلك.

لم يكن والدنا هنا، وكانت أمي في مكان آخر.

لم يعد يأتْي منذ شهور، ولم نكن نعرف شيئًا عنه، ولم نعد نسأل عنه أيضاً. لأن إيسا سألت عنه مرة بلا مبالاة وهي ترفع كتفيها، وأمي، التي كانت تدخن في كل مرّة أكثر فأكثر، بدأت في البكاء وذهبت لتغلق على نفسها في الحمام.

كنا أطفالاً، لكننا لم نكن أغبياء.

كانت والدتي تبكي. ابتسمت الآنسة مرسيدس. حيث رآها الجميع امرأة واحدة، وأنا رأيتها اثنتين.

في ذلك الوقت أخبرتنا في المدرسة أنه يجب الالتزام بالحدود وهي تحدق بي، وأضافت أن الصبي المنغولي قد غرق لأنه لم يلتزم بها. عندما سألت إذا كان لدى أي شخص أي أسئلة، كان غريغوريو على وشك رفع يده، لكنه تراجع.

على أي حال، ذهبنا إلى تلك البئر منبهرين جدّاً. وتحدثنا عن كيفية حدوث كل هذا. رمينا الحجارة لنرى العمق.

لمّا أخفت فيسنته خيسوس من الخلف، ناداني أيها المتخلف العقلي.

قال غريغوريو: «هذا». متخلف عقلي. هذا هو بالضبط.

ثم نضحك.

عندما وصلت إلى المنزل، كانت والدتي نصف هادئة ومنظمة ومرحة وأجمل من الآنسة مرسيدس.

كلفتها التغييرات أكثر من أي وقت مضى. أعتقد أنها حين علقت معطفها ووشاحها كمعلمة على الرف خلف الباب، فقدت قواها الخارقة.

على الرغم من أن العمة روزا قررت رعاية الجد قبل أن نصل إلى القرية (**«لديك ما يكفي»**، سمعتها تقول لأمي في غرفة المعيشة بعد ظهر ذلك اليوم)، كانت أمي مرهقة وعزمها منخفضاً.

وصلت أول بطاقة بريدية من والدي يوم الجمعة، وكما اعتاد أن يفعل في السيارة. توجه مخاطباً إيسا، فيرو وأنا. مضيفاً عليكم رعاية أمكم. في غضون عام تلقينا بطاقات بريدية من ملقة، توليدو وسيغوفيا. كان هناك الكثير من العالم للسفر، وهذا ما أراد والدي إخبارنا به. بدءاً من القرية.

بعد شهر من الغرق، كنا نجتاح إلى العالم مرة أخرى. شكلت فيرو وإيسا مجموعة جيدة من الصديقات:

بدت جميعهن تقريباً يشبهن الثانية أكثر من الأولى. انتهى يوم دراسي، وكنت أخرج مع أصدقائي هناك هاربين ودون النظر، كما لو لم يكن هناك حواف آبار مكسورة. لكي نكون الأربعة الرائعين، كان ينقصنا واحد. لذلك ضممت فليكي. لقد لعبت الدور الذي لم يكن أحد يريده: دور الفتاة.

لا أعرف حتى كيف وصلنا إلى المنزل كاملين، بكل ملابسنا، دون إصابة في الرأس أو حروق.

على الرغم من أنني الآن أفكر في الأمر، لم نصل قطّ كاملين تقريباً.

نادراً ما كان الأسبوع الذي لم أظهر فيه بورم أو جرح مذهل أو نازف بعد أن ضربني بيراكاس أو ماريو، قال لي إنني أنجح لأنني ابن الآنسة المعلمة. كان لدي الكثير من الجبهات المفتوحة لدرجة أنني لم أستطع التعامل في تحقيق العدالة. في كل مرة كانت فيرو تشي عن شيء ما، تتم التضحية بإحدى قطعها على موقد المطبخ.

المطبخ.

تلك الطباخة.

لم يكن يعجبني طبق عدس أمي على الإطلاق، وفعلت كل ما بوسعي لأتقيأ العدس، وكان الأمر أشبه بجعل الضفادع تتقيّؤُه أيضاً.

قالت إن أمي أعطتهم دماغاً صغيراً مقليّاً بالطحين والبيض. لأن الدماغ الصغير - تابعت – فيه الكثير من المغذيات والحديد والفيتامينات وأنتم الثلاثة نحيفون جدّاً وتقضون اليوم بالجري من السيكا إلى مكة.

هذا ما قالته من أعلى رأسها، لإحباطي. تلك مكة كنت أعرف مكانها لأنني سألت. لكن لم يكن لدى أحد أدنى فكرة عن لا سيكا. ولا والدتي. ولا حتى «أوخينيو» الذي حصل على علامة عشرة في كل المواد، وكان دائماً يمحو السبورة.

قالت أمي، كانت لدينا الكثير من السخافات. وأضافت، رافعة نبرتها قليلاً - كما كانت تأمر بالصمت في الفصل - فهي خطأ «والدكم». اعتقدت أنها قالت ذلك بسبب شهاداتها وتعيينها كمعلمة، بينما أبي

كان قد نال القليل من الشهادات، وعمل في شركة كرايسلر، وهذا ما سبب وجود هذه السخافة.

كانت قد لصقت بنا واحدة. على الرغم من أن القليل كان قد طابق البطاقات البريدية التي أرسلها من بعيد حين لم يأت.

كررت أمي، أنه كان لدينا الكثير من الحماقات، وذلك عندما اشتكينا من شيء ما، أحياناً نحن الثلاثة في الوقت نفسه ولأشياء مختلفة. مبعدة كل واحد عنها كما لو كان علكة شبابية شوين جونيور بدلاً من أم.

حتى أخبرتنا ذات يوم أنها ستسحبها منا.

«سأسحب أنا هذه السخافة منكم». هيا، نعم أسحبها منكم...

الشيء السخيف في ذلك اليوم هو أنني لم أرغب في أكل العدس مع الأمخاخ الصغيرة. لذلك بدأت مع هذا التكتيك الذي نجح معي مرات عديدة: تعلك الطعام في فمك دون ابتلاعه، تجعل عينيك تدمعان قليلاً، تقول لا برأسك، تصدر ضجيجاً حلقياً، وتقوم بهزة صغيرة مع توجيه الجسم للأمام.

لقد أفرطت بالدور الواقعي للغاية.

ومن دون إخراج السيجارة من فمها، أجبرتني أمي على أكل ذلك القيء الشديد، وربما حتى مع الرماد وكل شيء، لأنه في بيتي لم يكن يُرمى شيء. معبئة الملعقة الفولاذية بتصميم مراراً وتكراراً.

وبالرغم منها. بدت الأم وكأنها طبيب أسنان غاضب أكثر من كونها أمّاً. لقد كانت قد اقتلعت منا السخافة. وعلى الأقل انتهى به الأمر بإخراج الأمخاخ من صحن العدس أيضاً. لم أتحدث معها منذ مئة عام على الأقل. أي حتى يوم الاثنين.

* * *

لقد جئنا من حقبة جوع الأجداد، من خوفهم، من جغرافية تلك الأخاديد، من عربات خطوط السفر التي تتفادى الحفر، من حقائب السفر الكرتونية أو الورق المقوى، من حقبة إصابات السل الكثيرة.

نحن أبناء هؤلاء الأبناء.

هذا ما كنا عليه.

كنت أنا وأخواتي أبناء الحقبة الدكتاتورية الفرنكية الناعمة، آخر نشيد (وجوه نحو الشمس - كارا السول) وما قبل الأخير الرقصة المدرسية لتحية العلم (أنت شاب - تو اريس خوبن). كنا حملة إعادة تشجير الغابات (إيكونا - معهد الحفاظ على الطبيعة) ومهرجان غنائي (أوتي - منظمة الاتصالات الإيبرو أمريكية) وبعض الأغاني المؤدات باللغة الكتالونية ومُغَنٍّ ذي شعر طويل ومن خريطة مليئة بأقاليم الحكم الذاتي ومن طوب البناء.

لقد خرجنا من أحشائهم، ممن ولدوا لدرء الموت والغياب. جئنا من خلال رغبتهم في قلب الصفحة، من رغبتهم في أن نتعلم قراءتها.

الذهب الذي لم يكن موجوداً في القرية ذهبنا للبحث عنه في المدينة.

ناتاليتو وميرسيديتاس في البداية.

ناتاليو ومرسيدس لاحقاً.

أبي والآنسة مرسيدس أخيراً.

كان والداي أيضاً جزءاً من إسبانيا التي كانت على وشك شراء قطعة أرض لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، أخذ الأطفال إلى مدينة الملاهي، للحصول على ما يكفي من المال لصرفه على شراء بدلة المناولة الأولى (لا بريميرا كومونيون)، السفر إلى مدينة بني دورم.

ظهرت أمي في ألبوم الصور مرتدية مايو متصالب الذراعين، وبشعر مربوط، وظهر والدي مرتدياً البدلة العسكرية في مدينة القنطرية من محافظة مورثيا إلى جانب رفيقين، وظهرت طائرة مروحية في الخلف.

وثم، الأولاد.

هنا في قرية العبور.

نحن نكون تلك القفزة في البحر التي ستقوم بها أمي. نحن رحلة طيران والدي التي لم يقم بها.

* * *

- رائحة سيئة.

- «أنا لا أشم أي شيء».

- لنَرَ النعال... لا شيء. يا للغرابة.

مرت برهة، كنا قد عدنا للالتقاء وكانت أمي تجعد أنفها.

- «ما زالت الرائحة كريهة». يا له من وباء.

- لا فكرة.

- «تنبعث رائحة البراز».

- عندي زكام.

إلى أن مر وقت قصير، انتهى بها الأمر بالانحناء وشمي من الخلف، كما كان يفعل فليكي مع يودي.

- «هل تغوطت تحتك»؟

- طيب...

- «أتغوطت في عمرك»؟ لا أستطيع تصديق ذلك.

- لقد ذهبت إلى هناك، ولم أتحمل نفسي.

- لم أتحمل نفسي، لم أتحمل نفسي... خنزير. اذهب للتغيير.

- «إنه بسبب العدس».

- «بالعدس، سأضربك أنا».

في تلك المرة، التي أدركت فيها والدتي أنني كنت أتغوط تحتي، أخبرتني أنها ستكون المرة الأولى والأخيرة. لكنها كانت بالفعل الخامسة أو السادسة على الأقل. لهذا السبب اختفت السراويل الداخلية.

تحت حجر، بجانب الطريق، في القمامة.

بدأ التغوط تحتي يمثل مشكلة. تذكرت المنغولي، لأنه لا أحد كان يريد أن يذهب مع المنغولي، وأنه لم يتغوط تحته. على الأقل هذا ما علمت عنه. كيف لو اكتشفوا عني فعلتي، حينئذ وداعاً.

ولكن إذا كنت قد تغوطت تحتي، لأعارت أمي انتباهها إليّ أكثر من أي شخص آخر.

سألت والدتي إذا كانت قد أخبرت أبي فقالت لي لا، وأن لا أهتم. بينما كان ما أردته هو أن يعرف ذلك. وأن يتوقف عن إرسال البطاقات البريدية.

وأن يجيء من ملقة أو توليدو في سيارة السيمكا ١٢٠٠ ليوبخني أو لينظف مؤخرتي.

لم تستطع والدتي التعامل مع غسيل الملابس الداخلية، وبدأت في إعطائي سراويل أخواتي، والتي بين الاثنتين كان لديهما الكثير من الكروشيه.

لقد أبطلت هذا السخافة، لكن الآن كان علي أن أبطل البراز، الذي أعتقد أنه كان أسوأ.

في المنزل كنت أناديها ماما.

أو الآنسة مرسيدس لنفسي.

اعتماداً على كيف أراها.

ثم، بينما كانت الآنسة مرسيدس تفرك بيديها في الحوض، بدأت ألاحظ يديها. لأن الأيدي تقول الكثير عن شخص ما، وهذا ما اعتاد والدي أن يقوله، والذي سمح لي بلمس يديه القاسية، والحازمة.

لقد تغيرت يدا والدتي كثيراً في تلك السنوات. يديها. أصابعها. أظافرها. آباء أمها، التي كانت كلمة متعددة المعاني كما تحدث لاروس: ١) عن جلود والدتي النيئة أو ٢) عن الوالدين المغادرين.

اثنان من الأشياء التي، في عائلتي، لها علاقة كبيرة بها: أعتقد أنها بدأت في عضهم عندما تركت وحدها.

كانت يدا أمي مملوءة بالأوردة الخضراء، وكان الجلد شديد الاحمرار ورقيقاً جدّاً. بيديها كتبت على السبورة، مصححة بقلم أحمر، شدت الآذان، هزت الأكواب، صنعت الصابون مع الصودا، وخاطت، وغسلت بالمبيض، وشدت أربطة العنق، وزرعت في أصيص، ساعدت في جمع خيوط من الزعفران للسيدة أمبارو، جمعت الحطب، وحاكت الأوشحة، وربطت أسنان الأطفال في مقبض الباب، ونظفت نظارتها، وفي نهاية الليل، قامت بكشط شعرها.

في اليوم الذي مرضت فيه أمي مع حمى، وأمضت ثلاثة أيام في الفراش، تُركت القرية دون معلمة، لكن ثلاثتنا تُركنا بلا أم ودون أيدٍ.

جاءت الجارة لإحضار الطعام وإلقاء نظرة. لكن فيرو تظاهرت بأنها مهمة، ارتدت مئزراً يصل إلى كاحليها، أمرت إيسا، وأرادت تنظيم كل شيء. أثنت أمي عليها قائلة جيد جداً يا بنتي. وكنا نهتم بها أيضاً حتى تستيقظ في فترة ما بعد الظهر،

لأنها كانت الأخت الكبرى. كانت تعتقد أنها كانت كبيرة في السن لدرجة أنها وبّختني بسبب التغوط تحتي في اليوم الثاني.

- أنت تغسلها بنفسك.

- لا أعرف.

- «حسناً، تتعلم».

- لا تجعلي من نفسك الكبرى علينا لأن أمي مريضة، هاه.

- إذا أردت، أشي بك إلى أين أنت تذهب مع أصدقائك...

- سابا (يا ضفدعة).

- إنانو (يا قزم).

هزت إيسا كتفيها وابتسمت، وصنعت فقاعة من العلكة.

- «أطعني، يا جبان».

وغادرت غاضباً جدّاً، ونظرت إلى الحوض لأمتثل لما أمرت به. لكن قبل ذلك أخذت قطعة من لعبتها القواطع.

إذا كنت سعيداً في اليوم الثالث لأنها أحرقت ذراعها ورجلها بالماء الذي كان يغلي في الموقد، لم يكن بسبب الحروق نفسها (التي لم تكن في النهاية سيئة جدّاً)، ولكن لأنه من المؤكد كان علينا الذهاب إلى مستشفى المنطقة وأن يذهب والدي إلى هناك، وهكذا كان.

أخذنا رئيس البلدية دون إلاديو، نحن الأربعة: لم تبكِ فيرو تقريباً في الطريق، وكانت إيسا تقرأ المجلة الفكاهية للأولاد، وأمضت أمي الرحلة بأكملها مع نظارتها الشمسية وبأصابع يدها اليمنى تدلك صدغيها.

عندما وصل أبي من الممر، واستقبلني بفوضى من الشعر وبقبلة سائلاً أمي «عن الفتاة»، شعرت بالإغراء للدخول عليه من الخلف مثل الدفاع الوسط. لكنني تراجعت لأنه حينئذٍ سيكون هناك مصابان بدلاً من واحد.

ضمّدوا ساق فيرو وذراعها، وساقها مثل المومياء. لقد التقطنا صورة مع الجميع حولها.

ثم بدأ الطبيب في طرح الكثير من الأسئلة ثم اكتشف أبي أنها كانت وحدها في المطبخ عندما احترقت. كان والدي غاضباً جدّاً، لكنه لم يفسد الأمر. أنا تغوطت تحتي، لكن لم يشم أحد أي شيء.

قبل مغادرته، تحدث بهدوء وبشكل جيد مع والدتي جانباً. لم يُقَبِّلْ بعضُهما بعضاً. أهداني أبي هارمونيكا.

أثناء العودة إلى القرية، سألتها عما إذا كانت قد أخبرت أبي أنها بالفعل قد خلصتنا من السخافة.

كانت تصدح في السيارة أغنية إمبيريو أرخنتينا وضحك دون إلاديو.

«هذا الصبي، ما هذه اللعنة». ما الأشياء التي لديه؟

* * *

كنا نحب الذهاب إلى المقبرة لأسباب مختلفة: كانت في الضواحي، ويوميّاً لم يكن هناك أحد، وكان بإمكان غريغوريو أن يدخن أو يتظاهر بأنه يدخن، وكانت المقبرة تبقى دائماً مفتوحةً، وكانت هناك أزهار وقرويون، ولأكون صادقاً تماماً، كان الأمر مسلياً جدّاً.

بحلول ذلك الوقت، عرفنا بالفعل كيفية الطرح، ولعبنا لنرى من يمكنه تخمين عمر الموتى أولاً.

على سبيل المثال: نقرأ على شاهدة القبر «بدرو سانشيس - خياط. ١٩١٤ - ١٩٧١». والأول من كان يقول سبعة وخمسون عاماً بصوت عالٍ سجل نقطة.

كنت أنجح دائماً بالرياضيات، لكني فشلت في الموت. فيسنته خيسوس، بالعكس.

من كانت سنواته أكثر في المقبرة بلغ واحداً وثمانين. كان هناك عدد كاف من المدفونين في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات. وباللعب الشيء نفسه مرات عديدة، لقد عرفنا الإجابات مسبقاً، صفاً تلو الآخر، شاهدة القبر تلو الأخرى. أكثر من مقبرة، بدت مثل سجل عمليات برنامج روبيو. لذلك كان علينا أن نتوصل إلى ألغاز جديدة.

من كم حرف تتكون أسماء الموتى وألقابهم.

من هم الأحياء المنتمون لعائلة المتوفَّى.

كم سنة مرت على الدفن أو كم سنة مرت على ولادة المدفون.

ملأ فيسنته خيسوس جيوبه بقواقع الحلزون ليلعب بها لاحقاً. اعتدت مطاردة السحالي فيها عبثاً.

أخرج غريغوريو علبة سجائر ريكس حين وصل إلى قبر أخيه، ونقر شاهدة القبر بمفاصل أصابعه.

أعتقد أنه فعل ذلك لا ليناديه، بل للتأكد من أن المواد كانت جيدة.

- «هل تتخيل أنهم وضعوك هناك، وأنت لم تمت بعد»؟

- يقولون إن شعرهم ينمو.

- نعم. سوف ينمو عضوك.

- أي نعم، قال لي عمي، إنه ينمو لهم.

تركتهما يتناوشان عن بعد. قليلاً لأن قبر شقيق جريجوريو كان لدينا منظره جميل والقبور الأخرى أقل من منها بقليل.

لأنه دائماً في المقبرة تأتيني كثير من الرغبة أن أفعلها بذلك على القبر.

- «ماذا تفعل هناك بلا حركة»؟

- «أبحث عن شيء».

«وما هو الشيء الذي وقفت من أجله دون حراك لمدّة خمس دقائق وتتكئ على تلك الزاوية»؟

- سحلية.

- «وجهك أحمر».

- سيكون من الشمس.

حين ارتابوا، خطرت لي فكرة رائعة: بمجرد أن رأيت قطعة غائط من الكلب (كان هناك الكثير) دست عليها عن قصد. قليلاً من طرفها، لم تكن خطة لأخذها بالكامل. بهذه الطريقة، إذا اشتكى أي شخص من الرائحة، فقد كان ذلك بسبب الكلاب أو لأني دست عليها. لكنها ليست من نجاستي.

أصبحت أمي مريضة. ولأنها لم تكن غريغوريو أو فيسنته خيسوس فهي تناديني الآن: خنزير ونصف.

كان قبر الطفل المنغولي فقيراً جدّاً، لكن على الأقل كان له اسم: لويس لا أعرف، نعم لا أعرف الكنية.

كطفل أنت لا تعرف أسماء العائلات إلا إذا سمعتهم يتلونها كل يوم في الفصل. لكن هذا الصبي لم يطأ المدرسة.

بعد ظهر ذلك اليوم من الجنازة علمت أنه إذا كنت قصير القامة، فسيسمحون لك بالوقوف في الأمام لرؤية أفضل. وأن هناك الكثير من الأشخاص الذين يحبونك فقط إذا غرقت في بئر. وأيضاً كان هناك قرع الجرس الذي كان يسمى عزف للطفل الميت. قرع بطيء جدّاً وحزين جدّاً يجعلك ترغب في النمو بسرعة كبيرة.

كانوا جميعاً هناك: العمدة، والآنسة مرسيدس، والحراس، والمتدرب، ولويس من متجر ألترامارينوس ما وراء البحار، ودون أوبالدو، والسيدة أمبارو وفيسينتيكو من المتجر، والجيران وبعض الأطفال الذين خرجنا للتو من المدرسة.

جعلت الرياح المروحة الهوائية عند المدخل تصدر صريراً. وانطوت أشجار السرو تقريباً بقدر ما انطوى ظهر جدة الفتى الميت التي كانت تتكئ على عصا. لقد

مرت قريبة جدّاً مني. كانت تفوح منها رائحة الكولونيا، القديمة ورائحة صندوق مفتوح مؤخرًا. لم يفهم أحد ما قاله الكاهن لأن ما قاله

كان سريعاً جدّاً وسيئاً.

في تلك الجنازة بدأت أفكر أن الصبي الميت لن يتغير كثيراً بعد ذلك من الحادث. فقد كان يعيش سابقاً في كهف عميق، والآن بعد أن مات، أصبح تحت الأرض بشكل مشابه.

بقينا عدة أسابيع دون الذهاب إلى المقبرة. لم يكن ذلك لسبب واحد فقط. لقد اجتمعت عدة أسباب مثل البرد المتأخر، وباء الغدة النكافية، وصدمة الجنازة الأولى في حياتك وظل الميت.

عندما عدنا لدفن قطة منقطة، رأيناه.

تعتقد أنك تعرف مكاناً من أدناه إلى أقصاه، وذهبت إليه آلاف المرات، لكنك لا تعرف ذلك. يحدث الشيء نفسه مع والديك.

كانت الكومة نصف مخبأة بجوار العليق على الحائط. كومة صغيرة جدّاً من الأرض أصغر ما في المقبرة. مع صليب أبيض صغير دون أي اسم حيث كتب سنة واحدة.

أزال فيسته خيسوس الحشائش بعصا وقاسها من خلال اتخاذ خطوات صغيرة بالتوازي، كما هو الحال عندما اخترنا معدات لرمي كرة القدم على الأقدام.

لم يحصل على شيء أكثر من خمس أقدام.

* * *

في ذلك الصيف الأول ذهبنا نحن الأربعة إلى غرناطة لمدة أسبوع، ليس لأننا أحببنا غرناطة، التي لم يصلنا منها أي بطاقة بريدية، ولكن لأن عمة أمي كانت راهبة في دار لكبار السن، ويمكننا قضاء أسبوع هناك مجاناً.

- إذا سألتكم العمة عن والدكم، فأخبروها أنه لا يستطيع الحضور لأنه يعمل في فيلافيرده ألتو.

- مفهوم؟

كانت سيارة أمي فيات رمادية اللون جديدة ١٢٧، استخدمناها لأول مرّة في ذلك الشهر - آب.

كنت أعلم أن والدتي كانت مختلفة ليس فقط لأنها كانت تقود السيارة، ولكن لأنه ليس في القرية معلمة غيرها، ولم تكن تدخن، ولم تكن ترتدي البنطال، ولم تكن تمتلك كلباً إيرلندياً، بل الكلاب السلوقية أو ما شابه ذلك.

الآنسة مرسيدس (عندما جلست خلف المقود رأيت الآنسة مرسيدس) قادت أبطأ بكثير من أبي، لم تكن تدخن في السيارة، لقد قادت دائماً متمسكة بكلتا يديها على المقود، ووضعت أغاني بيرالس ومؤخراً أغاني كاميلو سيستو. عندما تصل أغنية ألغو ده مي (شيء مني) والتي كانت تبدأ «وداع دون أسباب وسنوات دون قيمة»، نحن الثلاثة مثل المجانين كنا نغني الجوقة وأمي (عندما غنت رأيت أمي بالفعل) رفعت مستوى الصوت.

«شيء مني، شيء مني، شيء مني يحتضر»...

منذ موضوع العدس، لم يعد لدينا أي سخافة. لا أعرف ما إذا كنا كبرنا قليلاً أكثر بسبب ذلك، بسبب أبي أو بسبب المنغولي. لكن القضية كانت أننا لم نتقيأ شيئاً خلال ثماني ساعات من السفر. وسألت فقط (كم تبقى) عشرين أو ثلاثين مرة.

في ذلك العمر، عرفت خطايا أكثر مما كنت أرتكبها.

علمت أن هناك خطيئة تلامس، وأخرى تقذف في سان ديوس، كما قال عندما غضب غريغوريو، شخص آخر كان يأكل اللحوم أيام الجمعة أو شخص آخر كان يشتهي البضائع الأجنبية. لكن في دار المسنين تلك اكتشفت أندر خطيئة مميتة من جميعها. كان ذلك عندما اصطحبتني عمتي الراهبة إلى غرفتها لتعطيني بعضاً من حلوى الراهبة (قطع كراميل قاسية وضخمة) ثم طلبت مني أن أستدير للحظة.

- «ألا يخطر لك النظر».

- لماذا؟

- «لأنني سأخلع الطرحة».

- «ما هي الطرحة، يا عمتي»؟

- بما نغطي شعرنا بها.

- «وماذا يحدث أني رأيت شعرك»؟

- «حسناً، يا بني، رؤية شعر راهبة هو خطيئة مميتة».

لم أكن لأنظر لأنني اعتقدت أنها ستصبح عارية، لكني استدرت قليلاً. لهذا السبب بالتحديد: لأن المرء لم يكن عنده خطيئة مميتة كل يوم بضربة عنق. وبختني قليلاً لكنها كانت تبتسم. كان شعر عمتي قصيراً مفلطحاً، مثلما كنت قد أزلت البرعم. بدت مثل الشاب ذي الشعر الرمادي. الآن كانت هذه خطيئة.

تكون الإجازات دون الأب أسوأ إذا كنت طفلاً، وقبل كل شيء، إذا كنت طفلاً دون أخ.

لأن لا فيرو ولا إيسا تعرفان كيف تلعبان كرة القدم جيدًا، وأمي - عندما شعرت أخيراً بالأسف على نفسها، وانضمت إلي - لم ترمِ الكرة مع تصيد، كما كان يعجبني، ولكن بركلة سخيفة.

ليس الأمر فقط هو أنك تتوقف عن رؤية والدك، ولكن لأن أحداً لن يأخذك إلى ملعب أتليتيكو مدريد (كالديرون) من وقت لآخر أيضاً. ولا إلى الكازينو حيث آخذ شارات لاوكي أو سينزانو أيام الأحد. ولا إلى السد دون صيد السمك، وأحرق ظهري ثم تعالجني أمي فيما بعد بالخل. ولا لحقل الغاز لمشاهدة المصارعة الحرة في عطلة عيد الميلاد. ولا يمكنني بالطبع مقارنة ذيلي بذيل شخص بالغ.

عدنا إلى القرية سُمْراً تماماً من شاطئ موتريل وكانت سيارة السيات ١٢٧ ممتلئة بالرمال والشعر.

عادت أمي سعيدة بطريقتها الخاصة، ونحن بطريقتنا: كومة من الأصداف في أكياس مختلفة، ذكرى آيس كريم دراكولا في وقت متأخر من بعد الظهر، الرغبة في العودة إلى الحقل الأبيض.

كنت أول من شاهدها، وأول من قرأها.

كُتب على البطاقة البريدية الموضوعة تحت الباب «ذكرى من مدينة كاسيريس». بدأ أبي حديثه بقلم أسود: «مرحباً. كيف حالكم، يا أولادي؟، كان يسأل عن العطلة الصيفية، ووعد أنه سيأتي لرؤيتنا قريباً، وقال إنه لم يتوقف عن العمل وطلب منا أن نسلك سلوكاً جيداً بعضنا مع بعضٍ، وأن نساعد أمنا. مع حاشية: «ساعدوا السيدة أيضاً».

سؤالي لأمي عن السيدة التي كان يتحدث عنها أبي وسحبها البطاقة البريدية من يدي جرى بآن واحد.

أسقطت الحقيبة لتقرأ البطاقة دفعة واحدة، ووضعتها على الخزانة، وتمتمت بشيء بصوت عالٍ، وانتهت من وضع الأشياء في المنزل، وأغلقت الباب، وبعد أن طلبت منا غسل أيدينا (كانت تفعل ذلك دائماً)، أمرتنا بالجلوس في غرفة المعيشة لأنها تريد التحدث إلينا نحن.

كانت واحدة من تلك اللحظات التي تتذكرها طوال حياتك. أحد تلك المشاهد التي تدشن شيئاً ما.

الفاصلة بين ما قبل وما بعد.

كان الطقس بارداً رطباً. انهار فليكي على الأرضية الحجرية. كان الإبريق فوق طبق قد استراح على الطاولة المتنقلة. شربت وتبللت: كان طعمه على يانسون. شغلت فيرو التلفاز وأمي أغلقته.

بعد ذلك رفعت الستارة قليلاً، فدخل ضوء مخطط إلى الغرفة التي كنا بها نبدو مثل النحل. ثم تركت نفسها تقع على الأريكة، وهي تتنهد، كما لو أنها جاءت راكضة

وهي تمارس الجري من غرناطة، وليس بسرعة ثمانين كيلومتراً بالساعة مع أغاني كاميلو سيستو.

- «هذا شيء أردت أن أعلنه لكم عندما وصلنا إلى القرية». لكن بالفعل كان قد قاله لكم والدكم على البطاقة البريدية. ذلك الرجل، إذا صمت، ينفجر.

- «هل سيأتي أبي لرؤيتنا قريباً»؟ قاطعتها إيسا.

- «لا، أنا لا أتحدث عن ذلك. حسناً، نعم، أعتقد أنه سيأتي لرؤيتكم. لكن هذا لم يكن ما أردت أن أحدثكم به.

- «هل يتعلق بالسيدة إذن»؟ أنا سألت.

- هو كذلك.

- «ما العلاقة مع السيدة، أماه»؟ سألت فيرو.

وقفت أمي قليلاً، وربتت على الكلب عند قدميها، وبدأت تخبرنا.

- «أنتم تعرفون بالفعل. أنتم تعلمون أن أباكم لديه الكثير من العمل في مدريد، وأنه لا يمكنه الحضور، وأن أمكم دائماً وحيدة في القرية، وعليها أن تعطي الدروس للكثير من الأطفال. لن يكون الأمر نفسه فلو كنا الخمسة معاً دائماً. لكان شيئاً آخر. لكننا الأربعة وحيدون. أنا وأنتم الثلاثة. لا شيء آخر.

- قالت إيسا وهي ترفع كتفيها: «يقال أنتم الثلاثة وأنا».

- «حسناً، أنتم الثلاثة وأنا».

- وأضافت إيسا: «وفليكي، أماه».

- وفليكي.

- «وطيور الكناري؟» تابعت إيسا.

- وطيور الكناري ...

- قاطعت فيرو: «لا تكوني غليظة، دعيها تكمل».

- «لا شيء خطأ... أنتم الثلاثة، فليكي، طيور الكناري، وظيفتي... هذا ما أردت أن أقوله لكم».

أقول، هناك أوقات لا تستطيع فيها الأم تحملها وحدها بعد الآن. أنتم هناك طوال اليوم، وعلي أن أغسل ملابسكم «غمزتني بعين»، اللم، والجلي، والتصحيح، وإعطاء واجبات منزلية، وإعطاؤكم الدرس، والخياطة والطبخ... هل تتذكرون عندما مرضت؟

- نعم.

- «من جاء ليهتم بتلك الأيام»؟

- السيدة أمبارو. حضرت لنا الطعام، وكانت تغسل كل شيء.

- لقد أطعمتكم. إذا فلولاها، لا أعرف. لكن السيدة أمبارو لها حياتها واهتماماتها.

- الزعفران.

- حقول الزعفران، نعم. وكذلك إدارة المنزل مع شقيقيها. و، حسناً، وأشياء أكثر من ذلك...

هل تتذكرون عندما أصبت (أنت) بالتهاب رئوي مع هذين الشخصين في الخارج؟

- نعم.

- «كادت أمي تموت من الخوف». وأبي أيضاً. اعتقدت أن شيئاً ما قد حدث لكم. كل القرية كانت تبحث عنكم. الحراس. الجيران. رئيس البلدية. الأولاد الأكبر سناً. صيادو الحرش ممن يعرفون الآبار. هل تعلمون ماذا؟ تلك المخاوف التي لديكم في بعض الأحيان، من ذلك الرجل الذئب أو من الموتى الأحياء لا يُقارن بالخوف الذي يأتي إليك عندما تكون بالغاً، الليل مظلم جدّاً، لقد مرت عدة ساعات ولم تتمكن من العثور على ابنك. كنت قد فكرت... وفكرت كثيراً: في جميع الأخطار، التي ربما لم أكن منتبهة

جدّاً، أين كنت تمشي، قبل كل شيء كنت أفكر في المكان الذي ستمشي فيه... وشعرت هنا في صدري كما لو كان ينقصني الهواء.

- «تماماً مثل فليكي في السيارة هذا الصباح».

- نعم مثله. شعرت بالاختناق من الخوف. مثل حرارة شديدة في الصدر لن تتركك تنفس، وكان ذلك اليوم باردًا. اعتقدت أنه إذا حدث شيء لك، فأنت صغير جدّاً، وكنت هناك طوال اليوم. رأيت الآبار. وسيارات دون أضواء. وأنا ماذا أعرف عن تلك الأشياء. فكرت في والدكم أيضاً. كما ترون، كنت أفكر فيه.

بقيت أمي صامتة للحظة. أخرجت سيجارة. أشعلتها. كان اليوم الثالث من ذلك اليوم. أراحت ذقنها على راحة اليد التي كانت تحمل السيجارة بها. بدت كممثلة جميلة. ممثلة بنظارات ضخمة، نعم.

ثم واصلت إخبارنا واقفة على قدميها، كما لو كانت في الفصل.

- «تحدثنا أنا وبابا عن ذلك. أفضل شيء هو أن يكون لماما مساعدة، وأن تأتي إليها سيدة لمساعدتنا.

قبل كل شيء، سوف تعتني بك. - أشارت إلي، لا أعرف ما إذا كنت سعيداً، أعتقد أن فيرو وإيسا خجلتا قليلاً. أخواتك أقل فوضى منك فضلاً عن أنهن بالغات أيضاً. - مكثت صامتة للحظة.

كانت تنقل نظرها من واحد إلى الآخر. ابتسمت ورفعت حاجبيها -. ما هو رأيكم؟ ستقوم بأعمال المنزل، وستحرص على ألَّا تفسد الأمور، وأن تقللوا العبث، وستساعدني في المطبخ، قيل لي إنها امرأة مميزة جدّاً... - «سحبت نفساً طويلاً. ونفخت الدخان نحو الأعلى. قلصت ذراعيها مستهجنة. ابتسمت مرة أخرى. وهي تعيش وحيدة. ستأتي الأسبوع المقبل للبقاء والعيش معنا.

هذا ما تعنيه بطاقة والدكم البريدية. هكذا كان. الآن قولوا لي: أي أسئلة؟

* * *

- «كيف تعتقدين أنها ستكون يا فيرو»؟

- «حسناً، سيدة من القرية». من تلك النسوة المعتادة. سمينة وقوية.

- «وأنت يا إيسا»؟

«قبيحة مثل الشيطان». هل تتذكر تلك البطاطا من الحديقة التي أخذتها أمي والتي كان لها شكل الوجه؟

- نعم.

- حسناً، هكذا هي.

ضحكنا. ثم ساد الصمت. خمس ثوانٍ. عشراً على الأكثر. حتى عدت إلى السؤال.

- «ماذا لو كانت لصة، يا فيرو»؟

- ديفيد، بني، دعنا نَرَ ما إذا كنت تعتقد أن أمي ستحضر لصة إلى المنزل.

- هذا فقط، بما أن أبي ليس هنا، إذا دخلت لصة بسكين، فليس لدينا ما نفعله...

- «آه،» قاطعتني إيسا. إذا لم يكن أبي هنا، فأنت الرجل وعليك أن تدافع عنا كلنا...

- خو(اللعنة).

كنا نحب التحدث بين الهمسات وفي الظلام، لا نكاد نُضَاءُ بانعكاس ضوء الشارع.

في الغرفة التي ننام فيها نحن الثلاثة، علقنا لوحة طبيعة جامدة وصليباً من الجص. تجاذبنا أطراف الحديث جالسين على الوسائد. على الرغم من انتهاء الأمر بنا أنا وإيسا في سرير فيرو دائماً تقريباً، الذي كان أعلى قليلاً من سريرنا.

- «ماذا لو عاد أبي»؟

- «وإذا عاد أبي، ماذا»؟

- هل كان سيتمكن من البقاء حتى لو كانت المرأة موجودة.

- وما علاقة ذلك؟

- «حسناً، ربما تولى أمرها بالفعل».

في بعض الأحيان، عندما نقضي الكثير من الوقت في الحديث، حتى لو كان بصوت منخفض، كنا نسمع صوت هسسس مطولة من أمي تأمرنا بالنوم.

لكن أفضل شيء كان عندما جاءت بقميص النوم، دخلت وكأنها تطلب الإذن، كانت تسألنا عما كنا نتحدث عنه، وجلست أمامنا نحن الثلاثة على أحد الأسرة الفارغة. وهي تمسك ركبتيها بذراعيها.

في تلك الليالي، بدا لنا أن الطفلة كانت هي.

- فيرو...

- ماذا؟

- «وإذا لم تعجبنا، فهل يمكننا استبدالها بأخرى»؟

- «امضِ، اخرس، يا ثقيل».

- فتتدخل إيسا: «نعم هذا». دعونا نَرَ ما إذا كان الشخص الذي سنغيره هو أنت...

* * *

في اليوم التالي، أمضته أمي بتنظيف المنزل وترتيب كل شيء. لدرجة أن السيدة بدلاً من المجيء إلى العمل، بدت وكأنها وصلت إلى شقة في توره بيخا.

هذه واحدة من التغييرات التي حصلت. ففي بعض الأحيان تعتقد أنك تمنح شخصاً ما منزلًا، أو مصدر رزق، أو الفرصة، أو المستقبل، وبشكل حاسم. لكنه ثبت أن العكس هو الصحيح: ذلك أن الشخص الذي يأتي من الخارج هو الشخص الذي سيعطيك تلك الفرصة.

غسلت أمي فليكي أولاً ثم أجبرتنا على الاستحمام وجعلتنا نفرك خلف آذاننا، وكان ذلك دليل بنسبة تسعين بالمئة على أن الزيارة ماضية بجدية. وضعت الزهور عند المدخل. جعلتنا نرتدي أفضل ملابسنا، التي تتكون في حالتي من شورت من القماش، حذاء لامع بإبزيم وقميص أبيض بأكمام قصيرة. رشت كلونيا نينوكو في المنزل كما لو كان مدخنة المدفع. ذكّرتنا بأشياء معينة مرة أخرى.

- أكرر: إذا لم أكن في المنزل، فهي الآمرة. إنها ليست سيدة جامعية، لكن هذا لا يعني أي شيء على الإطلاق، فهي تكبر أمي بكثير. عاملوها دائماً بحضرتك. تذكروا الكلمات السحرية الثلاث: من فضلك، شكراً لك، وآسف. إنها ليست خادمة، فتذكروا. إنها مثل وجود عمة. هي لطيفة وطيبة جدّاً. لو علمت أنكم قللتم احترامها، ولم تطيعوها أو كان عليها أن تمشي وراءكم، فهناك عقاب. انتظروا الآن وأنتم جالسون هنا.

عندما رن جرس الباب، نظرت أمي إلى نفسها في المرآة، وألقت نظرة أخيرة إلينا، وذهبت لفتح الباب. وكما فتحت الباب أغلقته.

لم نتحرك. حتى فليكي تشكل بشكل لا تشوبه شائبة في تلك الطبيعة الجامدة.

رنت قبلتان في الممر. أخبرتها أمي بعدة أشياء، ناطقة كثيراً وببطء شديد، كما لو كان المعلم يتعلم التحدث في هذه المرحلة. ثم ردوا الباب، وكانت هناك.

لم يكن هذا ما كنت أتوقعه.

كانت قامتها شامخة وطويلة كجبل وقوية أكثر منها سمينة. تميزت بصدرها الضخم، كما لو كانت ترضع القرية بأكملها.

ارتدت حبل كتف من عذراء الكارمن في رقبتها، كان شعرها قصيراً، ورمادياً، وخشناً، يذكرني بنعجة سيئة الجز التي لها رائحة تشبه رائحة كرات النفتالين

والشومينيه[1] (المدفأة الجدارية). ارتدت فستاناً منقوشاً من قطعة واحدة، وتلبس جوارب سميكة بالرغم من الصيف، وخفَّين مخمليين للمشي في المنزل، كما لو كانت قد دخلت للتو إلى بيتنا لتبقى فيه. جلبت كيساً كبيراً. تبتسم لكل شيء تقريباً دون أن تفتح فمها. مشت ساحبةً قدميها قليلاً. تتحدث بصوت مرتفع جدّاً، وكما سيؤكد لاحقاً لم تَكَدْ تعرف القراءة ولا الكتابة. كانت تخز قليلاً، وبغض النظر عن مقدار ما أخبرته عنها، فإن ملمس يديها كان كملمس القفة.

لكن الأسوأ من ذلك كله هو ما لم تخبرنا به أمي: تلك المرأة لم تكن تصغي.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١) **الشومينيه:** المدفأة الجدارية. [المترجم].

(هو وذاك)

سُمي متجر ما وراء البحار بهذا الاسم لأنه كانت تُباع فيه مأكولات ما وراء البحار، حيث ترى هناك سمك القد المملح أو السردين المخلل لا أكثر.

في متجر السيد لويس لما وراء البحار، يوجد البطاطا وأكياس الخضار والجوز والكستناء، والفلفل الأحمر المطحون والمخللات والزعفران والنبيذ الموسمي والجبن أو الخبز، وكلها بعلية المنشأ، وهكذا، ومتجر ما وراء البحار في القرية ينبغي ألّا تكون مثل متاجر ما وراء البحار في المدينة. أسوأ شيء هو أن أسماك أعماق البحار، فرس البحر أو شرائح الحيتان القاتلة تصل فقط إلى متاجر ما وراء البحار في سيوداد ريال، والشيء الغريب الوحيد الذي تركوه لإرساله إلى متجر ما وراء البحار في القرية هو سمك الرنكة.

تم هناك أول خروج لنا معاً.

رآنا الجميع لأننا عبرنا الساحة قطرياً. وأتذكر أنني شعرت بقليل من الحرج حين اضطروا إلى التوقف عن اللعب لعبة الفرونتون (كرة الجدار) لأننا مررنا كِلانا.

هو يومٌ من أيام الأسبوع، ولم يتبق سوى القليل لبدء الدراسة، ولا يوجد هناك أي شيء تقريباً في المخزن، وطلبت أمي من تلك السيدة أن تذهب برفقتي إلى متجر ما وراء البحار للسيد لويس. أخذت أنا قائمة التسوق بيد واحدة ويدي الأخرى التي بقيت حرة أمسكتها تلك السيدة بقوة كبيرة، كما لو كنت أنا أول شيء في القائمة.

اشترينا ما طلبته أمي. لمّا هممنا بالمغادرة، انحنت تلك السيدة وسألتني إذ كنتُ أحب الزيتون الكبير. رفعت كتفي مقلداً إيسا، وكأنني كنت أجيب بوضوح. وكأن

الزيتون الكبير مثل تقبيل ممثلة أجنبية شقراء. لنرى من يقول لا. ثم أخرجت حقيبتها من جيب ردائها، ودفعت من مالها. وبمجرد أن أعطتني الكيس بارتياح بالغت فيه، أخبرتني شيئاً لم أفهمه إلا بعد فترة طويلة.

- «أين كنت مختبئاً، هاه»؟ كم كبرت لي؟

لأنني لم أصل إلى أي مكان. ولا يمكن أن أكبر كثيراً في يومين هما ما صار لها معنا.

إن أكل الزيتون مفيدٌ لي، فهو لأنني لم أضطر إلى مناولتها يدي مرة أخرى في طريق العودة.

وتفاخرت أمام أخواتي عند الوصول إلى المنزل. منذ ذلك اليوم الأول، وأرغب دائماً العودة معها إلى ذلك المكان.

عندما لزم الأمر للذهاب إلى متجر ما وراء البحار، عرضت إيسا وفيرو نفسيهما بإجراء قفزات نحو الأعلى والأسفل مع رفع يديهما، ولكن إما أنني كنت المفضل لديها، أو أنها تطبق الأوامر بالمراقبة الشخصية عن كثب الذي أوكلتها إليها والدتي.

تشاهد في متجر ما وراء البحار حبال غسيل ملونة: الأحمر للفلفل المعلق للتجفيف، النيلي للصناديق المرتبة، الأخضر لعبوات الزيتون. لكنه أيضاً جرد لروائح: التوابل، الأطعمة المدخنة، الخبز الطازج، الزيت، المخلل، الرطوبة. أنا أعرف أنها أكثر من رائحة متجر ما وراء البحار (هي أيضاً)، انتهى بي الأمر إلى الإعجاب بذكرى رائحتها. أغمض عيني وأتخيل نفسي هناك. مكان آمن للطفولة. ولكنه أيضاً باب للعالم الآخر.

الروائح.

رائحتها.

استغرق الأمر عدة أسابيع، في رأسي، لتصبح تلك السيدة - لا سنيورة إميريتا (السيدة الفخريّة).

والعديد من الأسابيع حتى تصبح السيدة الفخرية «إيميه» فقط. وكان كذلك لأنني كنت غاضباً جدّاً من أمي.

ظننت أنها استبدلت والدي بامرأة عجوز تبلغ من العمر خمسين عاماً. كما لو كانت تلك السيدة كانت ستأتي لتحل محل أبي إلى الأبد، ومنِ ثمَّ، كانت أمي قد اختارتها لتبدو مثله: طويلة القامة، بيدين قاسيتين وشعر قصير.

لمحاولة خداعي.

* * *

لم تكن المسألة أن أراهم أقل من ذي قبل.

كانت المسألة أنه، في كل مرة التقينا فيها نحن الثلاثة، غريغوريو، فيسنته خيسوس وأنا، بقيت السيدة إميريتا على مسافة احترازية لمراقبتي. تماماً مثل أبي في المستنقع، عندما جلس على صخرة ناظراً بشكل ثابت إلى دوارة الهواء.

طبعاً كنت أنا دوارة الهواء. وإذا حدث شيء ما في الأسفل وغرقت، فستركض هناك كيفما استطاعت لسحبي وتعويمي. لم أكن أعرف طريقة حب من هذا القبيل، بدائية وانتحارية جدّاً. كانت لتقفز لداخل منزل يحترق دون تردد فقط لإخراجي من هناك. كانت لتلقى بنفسها على لوح خشبي في البحيرة لإنقاذي، حتى مع علمها أنها لا تعرف السباحة.

في بعض الأحيان، رغبتُ بتقمص دور الوحش عن قصد فقط حتى يرى هذان ما كانت هذه المرأة قادرة على القيام به من أجلي وأشياء مثل تسلق عمود الضوء أو المشي على الحبل المشدود فوق حافة البئر.

عندئذ كانت لتأتي راكضة وتقوم بالإيماءات، وتمسك بإحدى ذراعي بقوة وهزتني، قائلة لي إن هذا لا، إن هذا لا، إن هذا لا يفعل بإميريتا. ثم عادت إلى الجلوس في مقعدها. كانت صامتة جدّاً في طريقي إلى المنزل، لكن يدها على رقبتي. لم تشِ قطّ. كانت فيرو وإيسا مَهُوْوسَتْيِنِ بالألوان.

مرت بضع أمسيات معدودات عندما سمحت لي بالذهاب وحدي، لأنها طبخت أو نظفت على وجه العموم. لكنني دائماً، دون استثناء، قبل الخروج من الباب، مشطت شعري بطريقة أكرهها مما حثني على إفساد تسريحة شعري بمجرد تجاوزي زاوية الشارع مثل ما رأيت فليكي يفعل بعد بلله.

ناداها أصدقائي بالصماء، وأنا ما زلت أناديها بالفعل بالسيدة إميريتا. خاصة، لتسمعني أمي. وقليلاً بسببين: الزيتون الكبير الذي اشترته لي، وتضامنها معي دائماً في أن أربح في لعبة البرجيس ولعبة الشدة وهي تحتضنني وهذا ما لم أعرفه قطُّ.

لقد أعطتني ما لم يكن لدى أمي وقت لتمنحنا إياه. وأيضاً ما لم يعد لدى أبي الرغبة أن يعطيني إياه.

جاء والدي لزيارتنا، وأحضر لي ساعة يد كاسيو مع مؤقت، لكنها أهدتني شيئاً أفضل. كنت آخذ القلم، وأرفع كمي، وأمسك بمعصمي وأكتب ١، وعليه سهمان صغيران يشيران إلى الساعة الثالثة تماماً ودائماً. ثم حملتها بالقرب من أذني.

- «هل تعمل يا بني»؟

أومأت برأسي عدة مرات.

لقد أشارا للتاسعة معاً.

حتى شعرتُ بالشعور نفسه تجاه إيميه التي قال غريغوريو إنه يشعر به تجاه والدته.

بالتأكيد كانت خطيئة مميتة أسوأ من رؤية شعر عمتي. لكن ذلك لا يمكنني تجنبه.

اعتاد غريغوريو أن يقول إنه إذا كان عليه أن يختار إنقاذ أحد أفراد عائلته، إذا كان عليه أن يقطع ذراعه لشخص ما، سيكون ذلك الشخص والدته. أنا الشيء نفسه، ولكن مع إيميه.

وبختني ذات مرة بجدية شديدة لأنني لم أكن أؤدي بالواجب الذي كانت قد أعدته لي الآنسة مرسيدس وأنا بدأت ألعب بالدحل وحدي. لقد كانت غاضبة حقاً.

أخبرتني بذلك فقط إذا درست سيكون لي كل ما أريده. سألتني كيف أهدرت الكثير من الوقت. وكيف أرادت أن أكون: سواء كصبابة إبريق إميريتا أم مثل أمه.

نظرت إلى الساعة التي رسمتها أنا.

لم يستغرق الأمر مني ثانية للرد.

* * *

أعتقد أنني تعلمت الكتابة بشكل صحيح في مثل هذا الوقت القصير لأنني كنت بحاجة إلى ذلك للتواصل معها أكثر وأفضل. وجب أن يكون الشيء نفسه قد حدث للسيدة إميريتا. في حالتها فقط كان التقدم مذهلاً.

عندما يُدوَّن شيء ما، كان يُفهم فهماً أفضل. ويمكنك إعادة قراءته مراراً وتكراراً. بالنسبة لي لقد جعلتني أضحك للغاية عندما رأيتها تقبض على القلم الرصاص بتلك الأصابع الكبيرة التي بدت كالجزر. وقيامها بالمحي باستمرار. لأنها، لمّا كتبت الكلمة الثالثة، جاءتنا الضحكة أنا وأخواتي.

لكن لم نكن نضحك مثلما اعتدنا الضحك على البيراكاس في المدرسة لأنه لم يكن يعرف كيف يكتب حرفاً باستعمال أنبوب، بل بضحكة السعادة المشتركة.

- قالت لها إيسا - «نحن نلعب دور المعلمات» حتى فهمت. نحن نضع لك الامتحانات، وعليك اجتيازها، اتفقنا؟

- «حسناً، يا بنيتي».

- «اليوم هو دورك في اللغة، هاه،» - تابعت فيرو -. ل-غ-ة. - ومدت لسانها.

- لكم ما تقولون أيتها المعلمات.

- «أنا المدير».

- المدير، جيد جدّاً. الكوريته هو السيد المدير.

- أنا المدير دافيد... لست المدير كوريته.

- حسناً، المدير دافيد، كوريته.

أتذكر تلك اللحظات في غرفة المعيشة باعتبارها واحدة من أفضل اللحظات في طفولتي. أذنت شمس بعد الظهر بالمغادرة، انتشرت حرارة الموقد ورائحة الفحم. حضرت أمي حصة. فيرو وإيسا وأنا كنا نحضر لإيميه إملاءً بعد كتابتنا لواجباتنا. وهي هناك، في وسط الطاولة المتنقلة، فوقها بكلتا يديها، قرأت شفاهنا كاتبةً ما قلناه لها أن تكتب. بينما هي تعض طرف لسانها كما لو كانت ترفع كيساً من السماد أو ترقع.

- «ستصطادان إميريتا، إيه»؟

وأنا أضربها على ذراعها حتى تنظر إلي، وتفتح فمها على مصراعيه.

- وقعت الصاعقة البارحة على الشجرة.

- «ياه، ما هذا الصبي بحق الجحيم. تقول: كيف ستضرب الصاعقة الشجرة بالأمس، إذا كان الطقس بالأمس جيداً. راحت فيرو وجاءت بالغرفة مقلدة والدتي في الفصل. رمت إيسا الفتات على إيميه: قالت إنها لعبت دور طالبة سيئة. ضحكت أمي وبدا كل شيء كما كان من قبل».

كنت أضع العلامات على قطعة من الورق ألصقها على الثلاجة. نعم كان لي في شهر تشرين الأول أربعة وعشرون خطأ على وجه واحد، وفي تشرين الثاني كان هناك ثمانية عشر خطأ في الوجه الآخر. كان هناك اثنا عشر خطأ في كانون الأول فقط. لقد انتهينا من هذه الدورة مع وجود خطأين أو ثلاثة أخطاء لكل إملاء. قالت الآنسة مرسيدس إنها كتبت أفضل مني، والسيدة إميريتا، عندما فهمت ما كانت أمي تخبرنا به، ارتعشت إلى الوراء وقالت ما الأشياء التي لدى هذه المرأة.

تتحدث الكلمات المكتوبة إليك عبر السمع. فالمرأة صماء لا تكاد تعرف الضروري، فإن كتابة بطة أو رعد أو لص يمثل شيئاً مثل التقاط صوت، والقدرة على رؤيته لاحقاً كما لو كان صوت جندب مثبت في الفلين.

- «الهاء ستكون خرساء» - تضحك -. لكن الإميريتا صماء. كثيراً ما نرتب كلتانا معاً.

احتفظت هي بهذه الصفحات الإملائية مصححة بالقلم الأحمر كما لو كانت رسائل غرام دموية. في ملف أصفر أخفته تحت السرير. في المجلد، كان هناك آخر «إملاء آل كوريته». على الرغم من أن الإملاءات وضعناها نحن الثلاثة. كانت هناك أيام عندما كنا فيها ندرس، وهي راجعتها بسحب سبابتها على كل خط منهم، من اليسار إلى اليمين، تعض على لسانها عندما تقفز عن فقرة. كما لو كانت كذلك تفك غلاف الغموض.

- أنتم اذهبوا لاصطياد إميريتا.

* * *

كان الكلبة صماء من طلقة بندقية.

هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها للصيد مع والدي. لقد اتفقنا على الذهاب مع خوسيه لويس في سيارته الجيب. اجتزنا الجبل نحن الثلاثة فقط من قبل طلوع الشمس حتى وقت الغداء.

كانا يحملان بندقيتين، خراطيش، أحزمة خراطيش، ملابس مموهة، قربة نبيذ، بوصلة، عدة فخاخ وورق تواليت وشطيرة نقانق لي. واحدة كنت أنوي تقاسمها بين الكلبة اليافعة والكلبة العجوز.

كنت سأكون مسؤولاً عن المناظير.

لم أستطع إحداث ضوضاء. لم أستطع الشكوى من البرد ولا حتى المشي. لم أستطع التحرك عندما قالوا لي أن أبقى ساكناً جداً. لم أتمكن أن أسأل إن تبقى الكثير. لم أستطع التقدم عليهم. لم أستطع البقاء بعيداً جداً عنهم. لا يمكنني إلهاء الكلبات. لكنني أردت الذهاب للصيد مع والدي وخوسيه لويس رغم كل شيء.

أخبرني والدي أنني إذا تصرفت بشكل جيد، وإذا تصرفت كرجل، فسوف يتركني في النهاية، أطلق طلقة واحدة التي كنتُ سأطلقها أخيراً قبل العودة بسيارة الجيب ببرهة قصيرة، إذا لم يحدث شيء يخيف الأرانب البرية أو السمان أو أي شيء كنا ذاهبين لقتله. قال لي ذلك وألا أقول أي شيء لأمي.

غمرتني الفرحة عندما استيقظتُ في الخامسة صباحاً، قبل ساعة فقط من رنين المنبه، لأن والدي أخبرني أنه إذا كنت نائماً جداً، فلن يوقظني. وأنا بأغلى ما في العالم لم أرغب في تفويت تلك المغامرة التي كانت أقرب إلى لعبة العسكريين.

في أعلى الجبل، أضاءت المصابيح الأمامية لسيارة جيب خوسيه لويس قمم الأشجار وسط الظلام. كان الاثنان يدخنان في صمت. كنت في الخلف مع الكلبتين، اللتين ظلتا مستلقيتين. كنت أعلم أننا ندخل منطقة مجهولة لأن الطريق اختفت، والسيارة بدأت تقفز. كنت سعيداً لأنني لم أتناول الإفطار. كانت عيوني مفتوحة جداً، وكنت أحدق عبر الشجيرات كما لو كان دب على وشك الخروج من أشجار الزيتون.

لم أشعر بالنعاس على الإطلاق.

لم أكن جائعاً على الإطلاق.

لم أكن أعاني الدوار.

لم أكن خائفًا على الإطلاق.

كنت أعلم أننا وصلنا إلى هناك، لأننا أطفأنا الأنوار، وليس المحرك. كنا نتقدم ببطء شديد.

أنزل والدي زجاج النافذة حتى علق الساعد.

- أنه معطل. لا ينزل أكثر.

لقد كانت الشمس تصحو. وكانت تفوح رائحة الزعتر والأرض الرطبة.

كنا قد وصلنا.

* * *

على الرغم من حقيقة أنها قرأت شفتي بالفعل ببراعة خارقة، فقد أخرجنا سويةً دفتر صغير وقلم رصاص. لأنني اضطررت إلى تهجئة كلمات لم تكن تعرفها أو لأنه، في المرة الثالثة حاول شخص ما أن يقول لها شيئاً برفع صوته ولم تفهم، أخذت إميه ورقة وقلماً رصاصاً من جيبها ووضعتهما في كف الشخص الآخر.

- اشرح ما تريد جيداً، فأنا لا أفهمك.

أخرجت دفتر ملاحظاتها، رغم أن الآخر لم يكن يعرف الكتابة. لكنها كانت طريقة لقول ذلك. لم يكن لديها سوى ثلاثة أخطاء في الإملاء على وجه ورقة واحد.

العيش في منزل تلك المعلمة صنع المعجزات الإملائية. على الرغم من أن المعجزة لم تكن من صنع الآنسة مرسيدس، بل لثلاثة أطفال كانوا سعداء بالاستماع إليهم.

تم استلام بطاقات والدي البريدية دون الحماس السابق. لم يكن فيها خطأ واحد، ولا سيَّما وأنها كانت دائماً الكلمات نفسها: أبنائي الأعزاء. آمل أن تكونوا بخير. لدي هنا عمل كثير. ساعدوا أمكم والسيدة.

أرسل لكم قبلة كبيرة جدّاً. وهكذا كل شيء.

في العام الماضي جاء والدي اثنتي عشرة مرة. لم يبق للنوم قط. سقطت والدتي في صمت متنكر بإرهاق في العمل، وأعتقد أنها نأت بنفسها عنا لأننا، بطريقة ما، ذكرناها به. إلى ما كنا عليه نحن الخمسة والآن لم نعد كذلك. وإلى ما كنا سنبقى نواصل أن نكون. لا بدَّ أنها رأت نعمة (هكذا كانت تقول: نعمة) في تلك المرأة القروية التي، بهذا الترتيب، اعتنت أولاً بابنها، ثم ثانياً نظفت لها المنزل وحضرت لها الطعام، وفي المقام الثالث، كانت تراقب ابنتيها.

أرادت فيرو أن تصبح مدرسة. وقالت إيسا إنها ستصبح شرطية فضائية.

كنت واضحاً حينئذٍ إما أنني توقفت عن التغوط وإما أن أُختيَّ ستضطران لإطعامي. في الليل، وهاجمتني الشكوك.

- يا إيسا هل تفضلين، إذا كان عليك الاختيار، أن تكوني عمياء أم صماء أم خرساء؟

- أنا، خرساء.

- «وبين العمياء أو الصماء»؟

- حسناً، صماء... وأنت؟

- أعمى لا أريد. وأصمَّ لا أريد أيضاً: لأنني حينئذٍ لن أكون قادراً على الاستماع إلى أغاني والدي.

أصم... أصم... أصم... أعتقد أنني لست مهتماً أيضاً.

- قاطعت فيرو - «لا يا بني» وهي تغطي رأسها بالوسادة. اهدأ فأنت لن تكون أصمَّ... اغفل!

بجّلتها أمي باعتبارها شيئاً قيماً جدّاً. لأنها في تلك المرحلة، فهمت بالفعل أن السيدة إميريتا وصلت إلى الأماكن التي لا تستطيع الوصول إليها، وبطريقة ما، أعادت تكوين التوازن في المنزل.

كنا جميعاً بحاجة إلى الصمت للنوم، لكن السيدة إميريتا كانت تعشق الضوضاء. هذا هو: كان هناك ضوء حتى وقت متأخر، وكانت الكروشيه بجانب والدتي حتى أنهت أشياءها، ورائحة ماء اللافندر الذي وضعته على الموقد، وتقشير البطاطا في هذه الساعة المتأخرة، ولمسة الكتف لتغفو.

تضرعت لنا والدتي بالدعاء، يتضمن سريري أربع زوايا صغيرة يحرسونه أربعة ملائكة صغار، لكن سريري كان فيه خمسة على الأقل. وكان من بينهم امرأة صماء تؤلمني حين كانت تقبلني. وأنا طلبت من والدتي أو الآنسة مرسيدس (وهذا يعتمد) قبلة، وبعدها، جاءت السيدة إميريتا لتعطيني واحدة أخرى، لأنها إذا لم تفعل ذلك، فلن تأتيني الرغبة في النوم.

قبلتنا واحداً تلو الآخر، وتركتني للأخير. كما يتم ذلك مع الطرف المقرمش من الخبز أو مع البطاطا المقلية، التي تتركها للنهاية حتى تستمتع بالطعم اللاحق.

لقد تعلمت أن أكون صامتاً، وأنني في رأس دون أصوات. والتمييز بين الصمت الجميل، وهو صمت تساقط الثلوج، وصمت آخر مثل صمت رجل ميت في نعش، وصمت مظلم، والذي يجب أن يكون لإميريتا عندما أغمضت عينيها في الليل.

في تلك المرحلة، تيقنت أن الأشخاص المنغوليين يموتون كما مات الحلزون بحقنه بالكحول والقطط التي ماتت مخنوقة.

لأن أسماءهم في المقبرة التي ظللت أذهب إليها مع أصدقائي لم تكن أكثر من لعبة أطفال.

أعتقد أنني اكتسبت يقين الموت، واكتسبتُ الوعي لدرجة التكهن بأن يُحدث العالم أضراراً جسدية لأحبائك في ذلك اليوم الربيعي.

حدث ذلك خلال فترة ما بعد الظهر حين كنت ألعب معارك.

تتكون لعبة المعارك بشكل أساسي من تشكيل مجموعة تلعب ضد مجموعة أخرى مكونة من صبيان لا تكرههم بالضرورة، قم بإعداد خندقين من الأعمال اليدوية، وإحضار سترتين وسيفين للصد، وتحديد الإصابة القاضية، أخيراً، املأ جيوبك بالحصى لمحاولة فتح رأس الآخر.

لم تُستدعَ السيدة إميريتا للمباراة. في الواقع، بقيت في المنزل لتصنع الصابون مع أمي أو هكذا قالت.

مُنعت ممارسة لعبة المعارك تماماً، ولا سيَّما منذ أن كان صبيٌّ يدعى دييغو على وشك فقدان عينه من حصاةٍ غادرة كسرت نظارته.

حدث ذلك لأننا كسرنا القاعدة الرئيسية. لأنه عندما تم لعب القتال، ثمة الفرضية الأساسية التي تضمنت: قبل الإطلاق، ينبغي علينا الصراخ وإطلاق النار حتى يتمكن المنافسون من استخدام الألواح كدروع؛ وإذا لم تصرخ، أطلق النار أيضاً، فقد أُقصيت لكونهم أطلقوا عليك اسم يهودي، وهو الاسم الأسوأ على الإطلاق.

لذلك، كانت دهشتي رائعة عندما قضيت وقتاً طويلاً في الدفاع عن مركزنا مع أعز صديق لي، رأيناها تظهر من خلف كومة من الحصى متواجدة في موقع البناء. بدت أعلى من أي وقت مضى وغير عاطفية. كأنها تبحث عن شيء يخصها.

- أنت، وكيف اكتشفت هي أننا سنلعب معارك هنا؟ سألني فيستته خيسوس.

هززت كتفي، وواصلت إلقاء الحجارة. أتذكر أني أمعنت التفكير: الشيء الذي يدور في رأسي حول الأشياء التي تسمعها النساء الصُّمُّ.

لذا وبينما كانت تتحرك ببطء ولكن بثبات، بدأتُ في الصراخ عليها للابتعاد. بعيداً عن الطريق، والذي، مع الأخذ في الاعتبار أنها لا تسمع، كان أغبى شيء يمكن أن أفعله. توقفنا عن رمي الحصى خوفاً من ضربها. لكن أولئك الذين على الجانب الآخر بدؤوا في الصراخ: أطلق النار، أطلق النار، أطلق النار، منطلقين بالضحك، وينزل علينا مطر من الحجارة.

إما أن تلك المرأة لم تَرَ الحصى، وإما أنها كانت بطلة خارقة جديدة من ألعاب مارفل. ومع أن الحصى كادت تلمس رأسها لم تنحنِ ولم تتراجع.

- «كوريته، تعال»! كيف عرفت الآنسة!؟

بالنسبة إليّ، فإن هذا الهوس الذي لا يمكن تفسيره المتمثل في مناداتي كوريته (عندما كانت تناديني دافيد) لم أكن لأبالي على انفراد، ولكن في العلن تركتني مكشوفاً نهائياً. إن ذهابك ممسكاً يدها هو أمر عادي، أما أن يضعوا لك لقب نوع البوظة مع اسمك وبتهكم أمام أصدقائك: كوريته بالفريز، فهو مهين.

أعتقد أن ذلك كان يسليهم للغاية بشأن كوريته والأكثر إمتاعاً أنها لا تستطع السمع. لأننا بينما كنا تحت الألواح متحملين رشاش العدو، وتمكنت فقط من سماع الضحك والمزيد من الضحك، «أطلق النار» أو «الصماء تستحق الضعف». امرأة صماء حتى لم تنظر خلفها، وأنها كانت لا محالة قادمة نحوي، وقد تم انكشافي بالفعل في تلك المرحلة.

لكن المنغولي استمر مع بيراكاس، وأولئك الذين معه أيضاً. حيث استمر يهيمن عليهم.

كانت المفرقعات الأولى التي أطلقها هي تلك التي تحدث ضوضاء قليلة. لكن المفرقعة الأخيرة لم تكن كذلك كونها من الأنواع الضخمة، إنها مفرقعة من بين تلك التي أحضرها له عمه من فالنسيا والتي جربها بالفعل العام الماضي أمام الجميع كي يبدو الظريف: وضعها في جوف قرميدة وفجرها.

في تلك اللحظة توقفت الضوضاء عندما رفعت رأسي ورأيته ممسكاً بولاعة في إحدى يده وشيء ما في اليد الأخرى. ركض نحو السيدة إميريتا. صرخت في وجهها دون جدوى وهي تقترب، وأنا أقوم بإيماءات، واختصر بيراكاس المسافات من الخلف. عندما وصل إليها بين الضحكات، أشعل الفتيل بالفعل، ووضع المفرقعة في جيب ردائها. لاحظت شيئاً وأخذته بيدها هناك. سمع صوت فيوم ودوي انفجار. أطلق جانب الرداء سحابة صغيرة من الدخان وارتجت ذراع إيميه بالكامل.

أتذكر اللحظة التالية مباشرة، تلك اللحظة التي أدركت فيها أن العالم أيضاً يستطيع إلحاق أضراراً جسدية ولا يمكن إصلاحها بناسك.

مدت يدها المصابة في حالة ذهول وببطء شديد، عندما تجد شيئاً ليس لك في جيبك، وتنظر إليه منزعجاً. كانت الأصابع مسودة ومبللة بالدماء، ووضعت إميريتا يدها تحت إبطها، وواصلت السير نحوي، فجئتها راكضاً.

كان بيراكاس خائفاً، وكنت متوتراً جدّاً، لكنني أعتقد أن الإميريتا كانت حزينة فوق العادة.

- «لنذهب، كوريته».

كانت أطول عشر دقائق بالسيارة في حياتي.

من كثرة وضع يدها تحت إبطها لوقف النزيف، بدت وكأنها قد أصيبت برصاصة في القلب. عندما فتحت أمي الباب، أطلقت (آي يا إلهي) بصوت عالٍ وسريع جدّاً سمعته فقط في تلك المرة عندما احترقت الأخت.

لقد فقدت اثنتين من السلاميات.

في تلك الأيام بكت أمي وكأن الإميريتا قد ماتت لنا.

لقد تم عقابي لمدة ثلاثة آلاف عام على الأقل. اعتنت بنا السيدة أمبارو حتى إنها عادت إلى المنزل بعد مدّة وجيزة، وأخبرت الآنسة مرسيدس بما حدث. لقد كانت أعمال أطفال.

قالته على العشاء. ونفّذناه في اليوم التالي: طلبت منا الآن وأكثر من أي وقت مضى - وهي تلوح بيدها المغطاة بالضماد -، «أرادتنا أن نعلمها الكتابة بشكل جيد».

* * *

نزلنا من الجيب. ونحن نرتدي ملابس سميكة. أخذنا الأسلحة. نبدأ بالمشي. أعطوني حقيبة ظهر صغيرة واحدة مع منظار وورق تواليت وساندويتش. لقد عبرتها كما فعل غريغوريو. استنشقتُ نفساً عميقاً. أمسكت بعصا لم أتركها. أتذكر كم كانت الأرض قاسية وكيف تكسر الجليد تحت حذائي.

في الساعة الأولى، لم نشاهد أي حيوان. كانت هناك أوقات وصلتني فيها النبلة فوق الخصر، رأيت شبكات عنكبوتية ملأى بقطرات الماء، وأعشاشاً بين الكروم. كان أبي وخوسيه لويس يتناثرون من وقت لآخر. أمسكوا بنادقهم وعلقوها على أكتافهم كأن الوقت قد حان. في تلك اللحظات بقيت ساكناً جدّاً وكان قلبي يخفق بشدة.

جاءت الكلاب وذهبت وهي تشم الأرض وآذانها مرهفة.

كانت أثداء الكلبة العجوز معلقة مثل الحقيبة المجهدة.

كانت الكلبة الشابة قد نشأت من ذلك الثدي، وكانت متوترة جدّاً ومشيرة إلى تربيتها، لكن ينقصها استراحة، للتوقف أكثر، لتخبرنا بشكل أفضل. سمعت ذلك من خوسيه لويس.

- أقول لك لا، يا ناتاليو. أن الجروة تشير إلى أن تربيتها أفضل، لكنها تفتقر إلى وقفة وإتقان المدرب واحتفاظ بالعينة حتى نصل، مشينا لعدة ساعات. كنت أمشي ملاصقاً لوالدي. عرفت رائحة البارود وعشر طرق مختلفة للمسبّات. وكل ما يبصقه الصياد من فمه عندما يفوت إصابة محققة.

في كل مرة أمسكت إحدى الكلبات بقطعة، داعب خوسيه لويس رقابها بكبرياء الأب والابن. من وقت لآخر، كانوا يتوقفون يدخنون. لقد قلدتهما بالتدخين، فأخذت غصناً ووضعته في فمي متظاهراً بالتدخين وأنا أخرج بخاراً من فمي. حان موعد الغذاء في منتصف الصباح. خدمتنا الصخرة كطاولة. أكل والدي وخوسيه لويس الجبن وشحم الخنزير وسجقه التي قطعوها بالموس، وشربوا من القربة حتى تلطخوا. أما شطيرة السجق فقد تقاسمتها مع الكلبة الشابة، والتي وقفت على قدميها في كل مرة لوحت لها برميها بقطعة ما.

حين استأنفنا مسيرتنا، لاحظت الغنيمة. كانوا يرتدون القطع المعلقة حول خصورهم في رقصة مروعة.

أرنب دون وجه.

ستة سمّان مكسورة الأجنحة.

أرنبان أحشاؤهما ملأى بالرصاص.

دمها الدافئ يسيل، ورقابها تتأرجح في كل خطوة، وكأنها ترقص رقصة الموت، ونفسها يقاومه، وأفواهها نحو الأسفل قبل إزالة ريش الطيور أو جلد الحيوانات.

* * *

إذا كنت ولداً مع أختين أكبر سناً، وكنت تتعايش معهن، فأنت عالق. هذا ما قاله أصدقائي.

لم تكن فتياتي سيئات، لكن كان هناك اثنتان منهن. فتاتان ضد واحد. هكذا منذ أن غادر أبي، لم أستطع حتى قياس قضيبي أو سؤال أي شخص عن جلد قضيبي.

وكلتاهما كانتا سيّئتي الفهم عندما أسقطت قطرة في حوض المرحاض أو كسرت شيئاً برشة قوية غير مقصودة.

تحكمت فيرو على طريقتها في إيزابيل، التي كانت تميل إلى عدم قبولها لسيطرة أحد. أرادت إيزابيل السيطرة علي. لم يكن لدي أحد لأسيطر عليه. فليكي فقط، الذي أولى اهتماماً ضئيلاً نسبياً بي. صفرت له. فرفع رأسه عن الأرض. أمسكتُ بالحبل للخروج إلى الشارع. خرجنا للتغوط كل واحد بمفرده.

شجعتني حقيقة أن السيدة إميريتا وصفتهن بالمائعات. لأنهما إذا كانتا مائعتين، يجب أن يعني ذلك حينئذٍ أنني كنت رجلاً قاسياً. لم يكن أبي هناك. كانت هناك أربع نساء، امرأة واحدة منهن صماء. أخبرتني والدتي، التي كانت في ذلك الوقت دائماً تقريباً الآنسة مرسيدس في المدرسة وخارجها: «أنت رجل البيت».

كوني رجل البيت كان أفضل بكثير من كوني كوريته، لأن التسمية الثانية بدت مثل صغير، والتسمية الأولى بدت مثل والدي.

بعد أن تمت تسمية رجل المنزل ديفيد من قبل الجد بالرغم من أنه سيتغوط من الخوف في الظلام أو سيتغوط دون سبب.

أنتن اللينات. هذا ما كنتن عليه. أنا الوحيد من بين الثلاثة الذي لم يبكِ عند أخذ الإبر. كنت أنا الشخص الوحيد الذي تجاوز أشجار اللوز والوحيد الذي سافر حول العالم، لأنني ذهبت مع إيميه إلى متجر لويس لما وراء البحار.

ثم في الشارع، لا يهم ما تسمي نفسك لأننا كنا دائماً أبناء الآنسة مرسيدس أو أولاد المعلمة. كما لو لم يكن لدينا اسم أو كنا عنقوداً مع ثلاث حبات من العنب.

عندما كنا نقضي وقتاً ممتعاً، تحدثنا عن كيفية نهاية العالم يوماً ما في المستقبل، حيث أعلن في مطبخ الأجداد عمي خورخه، الذي عاش معهم في مدريد، وكان عضواً بطائفة شهود يهوه[1]، ولديه انفصام بالشخصية. عن عدد الذنوب التي

---

(١) يهوه: طائفة دينية بين المسيحية واليهودية، يهوه إله بني إسرائيل العهد القديم.

ارتكبها كل واحد. عنما كنا سنطلب من الهدايا من الملوك السحرة. لم نعد نتحدث قطُّ عن بطاقات والدي البريدية التي وصلت إلينا. إن أكثر من استمع إلينا هي السيدة الصماء.

في كل القرى التي كنا فيها، كان لأخواتي صديقات أقل مني دائماً. لم يكن ذلك لأنهن كانتا أقل انفتاحاً، ولكن لأن إيسا وفيرو كانتا بعضهما على بعضٍ، لكنني لم يكن لدي أحد. وكان علي الخروج بحثاً عن الأولاد وأنا أشبه بشخص يخرج لاصطياد الضفادع.

لكن في بعض الأحيان، كان يسعدني أن ألعب لعبة المطاطة معهن ومع سوفراخيو، ولعبة الغيوم الصغيرة وكل ذلك. لأنني أحببت سوفراخيو وقليلاً لمضايقتهن: بعد عشر دقائق كنت أخطئ عن قصد بالحبل المطاطي والتظاهر بشنق نفسي. عندئذ ذهبتا لتشكواني لأمي، لكن انتبهت إميريتا إلى ذلك ووصفتهما بالمائعات. وخرجت إلى هناك مع أصدقائي لغزو بولونيا.

بخلاف ذلك، كنت لا أزال أتغوط تحتي برخاوة تامة. ما كان يمكن أن يكون اليوم مادة عالم النفس عندئذ أُتخلص بشكل طبيعي. خلعت سروالك المتسخ، وغسلت مؤخرتك، ويلبسونك سروالاً آخر، وعندما لم يعد لديك المزيد لأنه في المنزل لم يكن هناك ما يكفي، ولقد ألبسوك بعض سراويل الكروشيه الخاصة بأخواتك.

لقد احتجتا، لكن ليس كثيراً. أوه، فقط لو كان العكس.

كان هذا ما قلته من قبل: إذا لم يكن لديك أب، فلا يمكنك قياس ذيلك أو السؤال عن جلد الصافرة. وأقل من ذلك بكثير يمكنك التحدث عما خطر ببالي وقت النوم: ماذا أكثر ما يقلقني بشأن ارتداء سراويل داخلية نسائية هو ما إذا كنت سأصبح شاذاً، لأرى كيف سأكتب إلى إميريتا ذلك في دفتر الملاحظات.

أو ما اعتاد أصدقائي فعله، حيث خزان المياه خلف الأسوار.

على حد علمي، كان ذلك ثلاث مرات على الأقل. أتذكر المرة الأولى كما لو كانت الآن. وصلت إلى الخزان بالكرة ولم يكونوا في مكانهم حيث هم دائماً. في الواقع، لم

يكونوا كذلك. لذلك عندما كنت أغادر للذهاب، مازحني فيسنته خيسوس، وخرج من بين الشجيرات إلى بعيد، وأشار لي كي أذهب.

عند الوصول، التقوا جميعاً مثل ماريو، بيراكاس، غريغوريو، فيسنته خيسوس حتى أوخينيو تودوديسيس في لعبة القطار الصغير بسراويلهم القصيرة. وسألني غريغوريو:

- «تريد أن تقف أنت أيضاً معهم، أليس كذلك»؟

لا بدَّ أنه رآني أحمق الوجه لأنه ضحك. وعلى الفور بعد ذلك تحرك قليلاً إلى الأمام وإلى الوراء.

- مثل الكلاب.

قلت ليس أحمر جدّاً. وذهبت في طريق العودة أطبطب الكرة. خائف قليلاً من أن يأخذ غريغوريو موقفاً من بيراكاس، الذي كان وراءه مباشرة.

قلت لا.

ليس لأنني كنت خائفاً من أن ينتهي بي الأمر إلى شذوذ. لكن بسببي، دعنا نَرَ. كان من الممكن أن يكون الأمر مختلفاً إذا عرضوا عليّ ثلاث مرات، ولم أكن أرتدي سراويل الكروشيه الخاصة بأخواتي.

* * *

ضايقتنا الملابس. فك والدي رداءه حتى خصره، وفكّ أكمام ذراعيه، وترك الرداء يتدلى مثل قشرة موزة.

بدا والدي، وهو يحمل البندقية على كتفه، وكأنه واحد من هؤلاء الجنود الصغار الذين ألعب بهم.

بدأ الملل والإرهاق يؤثر فينا. كذلك النعاس. تثاءبت للمرة الثالثة، فقذفني خوسي لويس بثمرة شجر البلوط.

- «آه، يا هذا». يبدو أنني متكاسل.

- أيها المستيقظ فجراً. دعونا نَرَ.

- ابق هنا إذا أردت تحت الشجرة، سنذهب إلى ذلك التخم ونعود.

- لا لا لا. أنا ذاهب معكم.

أحياناً كنت أجلس على الأرض، وألعب الكتابة بعصا كما رأيت إميه تفعل. في مرات أُخر وضعتُ علامة على جذع بلوط. في كل مرة تبولت فيها، كنت مصوباً لإصابة شيء ما. كانت طريقة لقياس مهارتي.

سقطت نصف دزينة أخرى من القطع. في كل مرة سمعت فيها طلقة، وكنت أقوم بسرعة كبيرة ونظرت، كما لو كان الملعب إعادة بث لمباراة كرة القدم، وكانوا سيقدمون الإعادة. لكنهم لم يقدموها. في هذه المرحلة، وحمل والدي المنظار.

كنت سأسأل عما إذا كان قد بقي الكثير، لكنه كان أحد الأشياء الستة التي قال لي ألا أفعلها.

لا أعرف أيُّهما اصطادت بشكل أفضل، لكنني كونت صداقات مع الكلبة الشابة التي منذ شطيرة النقانق تأتي إليّ من وقت لآخر تحسباً للذباب. جاءت مسرعة بعد أن جمعت بعض السمان، دارت حولي مرتين، وضربتني بذيلها وهي تلهث، أظهرت لسانها ممتلئاً بلعابها، ولعقت يدي، ووضعت قدميها الأماميتين في صدري.

- اترك الكلبة الشابة، التي أصيبت بالذهول ولا تقوم بالعرض.

- «إنها هي، أنا لا أفعل لها أي شيء».

- أنت!، أيتها الكلبة!، أنت!، أنت!، تووسا...!

سقطت آخر قطعتين في الأرض المزروعة. ومن دون أن يترك البندقية، رفع والدي يدَيْهِ مغنّياً غول. ضحكنا كثيراً. تحت شجرة سنديان، دخنوا مرة أخرى، وشربوا الخمر من القربة، وأزالوا الأحزمة.

كانت لمسة الطرائد أكثر صلابة، ومعظم الطرائد باردة بالفعل، حطت الذبابة الخضراء على الأنف المدمى لأرنب، نظرت عن كثب إلى الأرنب الأكبر والأسمن. إلى نظراته. إلى أسنانه. قمت بلمس قرنيته بإصبعي. أصبح للميت عيون دمية.

ألقى خوسيه لويس عقب السيكارة على الأرض وداس عليها.

- «حسناً، علينا العودة، أليس كذلك»؟

* * *

علمني غريغوريو أنه لسرقة العنب من عند أتيلانو، يجب عليك الذهاب والدوس على الكتل الترابية حتى لا تترك آثاراً، حتى علمتني السيدة إميريتا أنه ينبغي ألّا تسرق.

لكني ملت لرأي الأول أكثر من رأي الثانية، ولأنني لم أجرؤ سابقاً على إثم مميت في الخزان. فعلى الأقل أن أجرؤ على ذنب مغفور واحد في الكرم.

لذلك كنا ذاهبين مثل شخص ذاهب إلى أحد فروع البنك: متخفين ومتوترين. على الرغم من أننا لم نأكلها لاحقاً. واستخدمناها لنرى من يمكنه حشو أكبر كمية من العنب في العلبة التي نضعها في نبع هوندا.

نتيجة: واحد صفر.

نتيجة: اثنان صفر.

نتيجة: اثنان لواحد

تلك الأصوات (في المباراة) كانت السعادة.

- «لكنها ألا تسمع أي شيء على الإطلاق»؟

- لا شيء.

نتيجة: اثنان إلى اثنين.

- أبي أيضاً لديه ابنة عم صماء. هي صماء منذ الولادة. هل السيدة إميريتا أيضاً صماء منذ الولادة؟

- لا. أخبرتني أمي أنها صماء لإصابتها بالعدوى.

نتيجة: اثنان إلى ثلاثة

- إذا غسلت يديك، فلن تصاب بالعدوى. هذا لأنها لم تغسلهما.

- «لا تكن حيواناً. عدوى الأذن».

نتيجة: ثلاثة إلى ثلاثة.

- «حسناً، هذا لأنها لم تغسل خلف أذنيها».

- نتيجة: تعادل.

إذا فقدت بطيخة، أو كُسِرَّ زجاج، أو ظهرت آثار أقدام أطفال على إحدى الأراضي، كنا المشتبه بهم كما جرت العادة. أجبرنا أتيلانو على رفع باطن أقدامنا كما شاهدت ما فعله الحكام مع لاعبي أتلتيكو مدريد قبل القفز في الملعب. وبعد ذلك، قطب جبينه كما لو كان قد قرأ شيئاً هناك، أو أنه كاد أن يفك رموز خريطة، وقال:

- لعنك الله.

- «نادراً ما سيأتي والدك إلى القرية بعد الآن».

- لقد جعلوه رئيساً في مدريد، ولكن على الكبار.

نتيجة: أربعة ثلاثة.

- «وإذا جعلوه رئيساً على الكبار، فكيف يعمل يومي السبت والأحد»؟

- «يجب أن يكون هناك كي يرسل إلينا بطاقات بريدية».

- نعم.

نتيجة: خمسة ثلاثة.

- «ألا تخيفك المرأة الصماء»؟

- «لماذا تخيفني»؟

- وبالرغم من أنها طويلة جدّاً... لا أعرف. ففي حالة وجود حريق في المنزل، وصرخت ليتم إنقاذك، وبالرغم من أن الصماء لا تسمعك.

نتيجة: ستة ثلاثة.

- يقول والدي إنه لم يكن ليحضرها إلى المنزل ولا إهداءً. إنه أليس هناك نساء تتفاهم معها في مكانها في القرية حتى تصبح مفتوناً بإميريتا.

- «وماذا يعرف والدك»؟

- حسنا، لا شيء.

نتيجة: سبعة ثلاثة.

- «هل تحبها أكثر من والدتك»؟

- «لا تبالغ».

نتيجة: ثمانية ثلاثة.

- «لكن هل تحبها أكثر»؟

- لا أعلم. ذلك ممكن.

* * *

دائماً ما تكون طرق العودة أقصر من طرق الذهاب. حدث لي الشيء نفسه ونحن عائدون من غرناطة. منذ مغادرتنا سيارة الجيب مع البنادق، بدا وكأننا قد عبرنا جبال نصف أوروبا، والآن بعد أن رأينا السيارة، بدا كل شيء مثل نزهة ضمن الحدود الدنيوية.

امتدت غابة أشجار البلّوط من أعلى الجبل حتى مفترق الطرق. نظر أبي إلى البعيد مظللاً عينيه بيده. أزال خوسي لويس الطين عن حذائه بطرقه على الأرض. أنا داعبت بطن الكلبة الشابة.

- تعال، دع الصبي يطلق النار، اللعنة. لقد تصرف مثل الخنزير البري، ولم ينبس المخلوق ببنت شفه.

- هل تريد الرمي؟

- لو سمحت.

ابتسم أبي وأومأ برأسه.

فتح خوسيه لويس البندقية، وأدخل خرطوشتين حمراوَيْنِ، انحنى للأسفل، وجثا على ركبتيه، وأراح البندقية على كتفي ووقف خلفي، وأعطاني التعليمات.

- «احترس يا فتى». سدد على الجِذْعِ الهدف هناك، الذي يحمل العلامة البيضاء. عليك أن تنظر من هنا، عُلِم؟ لا، لا، لا. لا تغمض عينك. إن ثقب التسديد يقع أسفل المكان الذي تريد أن تصيبه. أنعم؟ تضغط على الزناد ببطء شديد. اجعل كتفك قوية لمنع الارتداد. أمستعد أنت؟

- نعم.

- إذن هيا بنا.

- اتفقنا.

- «ببطء، هاه».

- نعم.

لا بدَّ أن يكون الحيوان قد شد اهتمامها لفتة العناق بين الاثنين. لهذا السبب وقفت لنا على قدميها. جاءت الكلبة الشابة إلينا وهي سعيدة جدّاً عندما أطلقت النار تماماً. كان دوي التفجير أشبه بصوت مدفع يلمس الأذن. أخطأت الرمي على الهدف بأكثر من متر. ولكن هذا كان أقل أهمية. ركضت الحيوان مرعوبةً في عواء لا نهاية له.

- ملعونة تلك الأم التي أنجبت تلك الكلبة الشابة، وأم من أحضرها.

نبحت الكلبة العجوز، وذهبت الكلبة الشابة ذهاباً وإياباً في فرك جزء من رأسها على الأرض.

- كادت أن تصاب يا لكلبة العذراء.

انتزع والدي البندقية من يدي. فجاءتني الرغبة بالبكاء. كان خوسيه لويس يتعرج خلف الحيوان التي تحركت بجنون وخوف.

- «الكلبة الملعونة».

تمكن من الإمساك بها من طوقها ووضعها في الصندوق الشبكي وأغلق الباب.

- أطعمها.

في طريق العودة، كان خوسيه لويس يقود سيارته بجدية شديدة، وسط أنينها طوال الوقت، فحكت أذنها اليسرى بقدمها. اشتكت مرة أخرى وحكتها مرة أخرى. كما لو كان لديها عش دبور بداخلها ولم تتمكن من إخراجه.

نحن لا نتحدث على الإطلاق.

أصبحت الكلبة الشابة صماء من صوت انفجار طلقة البندقية.

أخبرنا والدتي أن خوسيه لويس هو من أطلق.

* * *

شيئاً فشيئاً، تبنوها جميعاً.

كان فيسنته خيسوس مسروراً جدّاً عندما قصت بعض النكات المعيبة التي قالتها بصوت منخفض جدّاً. طلب منها المزيد من تلك النكات، فضحكت واحمرَّ وجهها كالطماطم. أخبرت غريغوريو أنه كان لديه شعر أحمر جميل ونمش لطيف جدّاً. وكان كذلك شيطاناً ذكياً أيضاً. أحب غريغوريو الجزء الذكي، لكنه أحب الشيطان أكثر.

كانت تنادي ماريو دوس بيلاس (الشمعتان) لأنه كان يشرق مخاطه دائماً. «أنت يا شمعتان أليس لديك منديل؟». كان المسكين دائماً مصاباً بنزلة برد. فحاكت إيميه وشاحاً بنياً له، وأجبرته الجدة على إعادته فأبقتهْ لي.

كان إلاديتو، ابن رئيس البلدية دون إلاديو مفتوناً بكعك اليانسون الذي صنعته، وبسرعتها بسلخ الأرانب. «دون دراسة»، كان يضيف هذه العبارة دائماً عندما يراها تعمل.

أخبرت «أوخينيو تودوديثيس» لنرى ما إذا كان سينسى أصدقاءه عندما عين وزيراً.

اعتادت حياكة الملابس المصغرة لسوفراخيو وساريتا وإنكارني ولبقية صديقات أخواتي للدمى أو تصنع لهن باقة من الأقحوان والخشخاش مربوطة بساق خضراء.

حتى إن بيراكاس اقترب منها، بعد مدّة زمنية معقولة، حتى تتمكن من إظهار أصابعها المبتورة. كان محرجاً قليلاً في البداية، لكن ليس بعد الآن. إذ كان لديه ورقة في مكان قريب، طلب من إميريتا وضع يدها المصابة عليه. مع مراقبتي، مرر القلم على طول الكف ببطء شديد. ثم رأى النتيجة عكس الضوء وقال أي حيوان أنا أي حيوان، وبدا أن السيدة إميريتا كانت تفهمه.

توماس الأكبر سناً والأكثر هدوءً هو الوحيد الذي لم يكسر الجدار. بذور اليقطين التي اشترتها إميه كانت للجميع. امتهنت مهنة الصيد والحشرات والفطر والذبح. عن أخطار الطرق. حكت لنا قصص عن الخوف أو عن الحرب، والتي كانت في الغالب هي نفسها.

قطفت إميريتا لنا الدراق الأعلى والأكثر نضجاً، حين كنا نلعب، حافظت على بعد منا. ولم تقترب إلا لجر نعالها حول المنزل إلا إذا سقط أحدنا وبكى. أو إذا تقاتلنا، وكان ذلك يوماً واحداً من يومين.

لكن إميه استمرت من أجلي فقط. واحتفظت بسر ملابسي الداخلية مخفياً جيداً. وتركتني أربح مزيداً في البرجيس. وفي نهاية اليوم، كانت على هذا الجانب من الباب وليس بالخارج.

مرات عديدة، ونحن بمفردنا، وعندما أدارت لي ظهرها، وأدركت أنها لا تستطيع قراءة شفتيَّ بدأت أتحدث معها كما لو كانت تسمعني.

لعبة كنت قد اخترعتها بنفسي.

عندئذ أدعوها صماء، صماء كالجدار. وعجوز، قلت لها. عجوز وصماء. أنت عجوز وصماء. أنت امرأة عجوز صماء تكتبين كلمة أمس بالهاء واللام. أمي أذكى منك. وأنت وحيدة. وسألتها أيضاً عما إذا كانت ستغادر. هل ستذهبين يا إميه؟ في البداية بصوت منخفض جدّاً وبعد ذلك رفعت صوتي هل ستغادريننا؟ أخبريني إذا كنت ستذهبين مع كوريته آخر. لا أريدك أن تذهبي، إميه.

كنت أود أن استمع إلى أغاني دانيال وليتي، وأن أتمكن من سماع صوت الرعد البعيد، وتلك ضحكة الربو الذي مرضت به التي بدت وكأنها منفاخ مكسور.

ما فهمته في تلك السنوات هو أن نصف القرية بدأت الحديث عنك إذ أن هناك اثنان في البيت لا يحبُّ بعضهما بعضاً. وأيضاً إذ رأوا أن هناك شخصان آخران يحبُّ بعضهما بعضاً بطريقة لم يسبق لها مثيل من قبل.

لقد فهمت أنه في تلك السنوات وفي ذلك المكان، فقط ما كان مفيداً استحق التقييم: لقد قتل خوسيه لويس الكلبة الشابة بطلقة واحدة في الأسبوع التالي.

عندما سألوني ماذا أريد أن أكون عندما أكبر، قلت ما يريدون سماعه. لكنني في الحقيقة لم أرغب في أن أكون شيئاً. ولا أن أصبح بالغاً. أبداً. كنت سأبقى دائماً هناك. آمنا ومع الزيتون الكبير.

ساعتي كانت تشير دائماً إلى الساعة الثالثة تماماً.

* * *

(هي وهي)

أعلم ما سيقولونه لك عني يا آنسة. لأني سأكون صماء ولن أحصل على دراسات، لكنني لست غبية.

أعرف ما سيقولونه لك ومن هم مع أية مبالغة بالخوف في الأولى وفي أي وقت من اليوم في الأخرى بنبرة صوت من الأكثر تواضعاً ورغبات كل واحد. قالت لي والدتي: ابنتي، عندما يتحرك الهواء في المدينة، تأتي رائحة البورين الكريهة دائماً من المنازل نفسها. رائحة براز الخنزيرة، يا لها من رائحة. وكانت على حق.

تصيب الأمهات أكثر مما تخطئ، ألا تعتقدين ذلك؟ لكن هذا ما تدركينه عندما تكونين أنت أمّاً، دعينا نَرَ. أو عندما لم يعدن لديك. كما في السابق لا تفعلين شيئاً سوى المجادلة معهن، والنظر إلى عيوبهن، حتى تتوقفّي وتتغير الأشياء. لقد ساعدتني أمي على الولادة. وهي لم تعرف القراءة ولا الكتابة ولا عن الأرقام، لكنها فعلت أشياء كثيرة بيديها.

لقد أعجبت بشكلك من خلال عيوني لنعومتك وموضتك، يا آنسة، نعم في هذا لن أكذب عليك ولكن لبساطتك أيضاً. كذلك عندما كنت أمر من أمام منزلك، كذلك كان الأمر كنت تجلسين مرتدية نظارات شمسية تقرئين شيئاً للأولاد مثل، خطة جوليفود، التي كنت تديرين الحديقة الخلفية، تلك الأرض الضائعة ومرتدية السراويل، مثل الرجال.

هل تتذكرين البستان يا آنسة؟ رفعت ظهرك، بيد واحدة تظللين بها عينيك لتتمكني من الرؤية وباليد الأخرى تحيين المارة. تماماً كما في الأفلام، عندما يُودع الشخص الذي يصعد في القارب .

وذكرني بالمسافرين هناك بين الأخاديد ملوحين وداعاً.

لقد كنت أنت على القارب، آنسة. هناك في الأعلى.

ونحن، نساء القرية، كنا في الأسفل. نحن من اللاتي لم يذهبن إلى أي مكان.

أقول لكِ إنني أعجبت بكِ كما أُعجبت بكِ أيضاً نساء القرية كلهن. ولكن بالنسبة إليَّ وحدي يبقى بعد ظهر ذلك اليوم من شهر تموز عندما ذهبت للتحدث معي، وانتهى بكِ الأمر بكتابة ما تريدينه على ورقة. بعد محاولة بالكلمات دون جدوى. بعد القيام بالإيماءات بلا فائدة. صماء مثل إبريق، كما ترين.

ابتسمتِ، وأخرجتِ دفتر ملاحظات من حقيبتكِ، واستندتِ على الطاولة، وكتبت لمدّة دقيقة على الأقل، ونزعت الصفحة، وأعطيتني إياها.

لدي الورقة هنا.

قلت فيها: «مرحباً، سيدة إميريتا. أنا المعلمة، اسمي مرسيدس. كثير من الناس تحدثوا جيداً عنك وأنا بحاجة إلى شخص ما لرعاية ابني الصغير أثناء المدرسة. أحتاج إليك في المنزل تعيشين معنا. وطبعاً مع أجرك، وطعامك، وسريرك. نحن أربعة، فتاتان، الصبي وأنا. وكلب. لكن يكفي أنك مهتمة بالطفل. سيحبك. أتمنى أن يكون شعوراً متبادلاً أيضاً. أنتِ ممتازة. وقد قيل لي إنك تطبخين بشكل إلهي. ماذا تقولين؟».

ولم يكن لدي أي فكرة سوى أن أسألك من هي فيسفيرسا (متبادلاً). لو أنكِ لم تقولي سوى رعاية الطفل ولا شيء آخر. أو لو كان هناك اثنان: الولد الصغير، وفيسفيرسا (متبادلا) وكيف ضحكت، آه يا أمي. كم كنت محرجة لاحقاً حين شرحت لي ذلك. وبذلك عانق بعضنا بعضاً بعد أن قلت لك نعم أنا موافقة. تماماً.

سأبدو غبية بالنسبة لك، لكنني لا أعتقد أن أي شخص قد قال لي شيئاً جميلاً من هذا القبيل يا آنسة. ولا حتى رامون، الذي بعد أن تزوجنا لم يعد يقول لي لا أهلاً ولا سهلاً.

«أنتِ ممتازة».

«أنتِ ممتازة».

«أنتِ ممتازة».

ماذا تريديني ان أقول لك. لا تمل المرأة من قراءتها.

* * *

أنا أكتب لنفسي في هذه المفكرة. لا ليقرأها أحد، أبداً. إنها حتى لا أنسى.

ولكي تبقى. تماماً كما يحدث عندما يشيد الرجال بناء من الإسمنت ثم يدشنونه بوضع لوحة مع الأحرف الأولى والتاريخ.

أنا أكتب وأحفظه. أصنع مخزن أفكار، ومخاوف، وأحاديث فارغة لإحداهن، وحماقات، والشكوك التي تراودني.

يغمرني شوق شديد لمعرفة ما أحببتهِ فيَّ، لأنه كان هناك المزيد من النساء للاعتناء بهذا المتأنق. وقبل كل شيء، كانت هناك من لم تكن صماء. لكنك ذهبت للصماء، لذلك أقول إن الأمر يشبه الدخول إلى مزرعة لطبخ حساء واختيار دجاجة ينقصها شيء.

وماذا لو كان ينقصني شيء ما، إيه، يا آنسة. لا تقولي إنك لا تعرفينه عندما جئت تبحثين عني في البيت. بيت بسيط جدّاً، كما رأيت. لأرملة دون أطفال. بيت متواضع لكنه نظيف نعم. بسيط ونظيف ومشرق ومرتب. وأنا أقول إنه أنيق جدّاً، فأنت تعرفين إلى أين أنا ذاهبة.

الشيء السيئ هو في النظام، آنسة. أعتقد أنه يمكنك العيش دون سماعهم، ولكن ليس دون رؤيتهم. دون رؤيتهم يبعثرون كل شيء، لمس ما لا ينبغي، تغيير أماكن الأشياء. تماماً.

على الرغم من أنك ترينهم قليلاً. أولادك أقصد. تعتبرين ذلك أمراً مسلم به. تركضين طوال اليوم هناك تصححين، أو تعدين التمارين أو تذهبين إلى المدرسة بسبب

تسرب المياه أو بسبب وجود الفئران، أو زيارة التلميذ الذي لم يذهب إلى الفصل في فترة ما بعد الظهر، وهو أمر مثير بالفعل يا آنسة مرسيدس.

أراك كما لو كنت محشورة بصبيان الآخرين عندما تعودين إلى المنزل، كما لو كانوا قد أصابوه بهجوم وتودين أن أولادك لم يفعلوا ذلك.

بالفعل لو لم يكن كوريته طفلاً، بل كان رجلاً.

أو لو أن فيرو وإيسا لم يكونا فرخين طريين - لأنك أنجبتهن طريين - بل امرأتين ناصحتين. ولا سيَّما الأكبر سناً.

ماذا أقول إن موضوعك هو مثل الشخص الذي اعتاد تناول لحم الخنزير في المنزل ولكن لم يتذوقه أبداً. لاحظي ما أقوله: لحم خنزير جيد، بالضبط. بفرض أنه محمول على حامل لحم الخنزير في المطبخ. مبدئيّاً تتذوقين يومياً في البداية، لكنك لا تعيرينه اهتمامك بعد ذلك. حتى يجف. لحم الخنزير وكل شيء.

هكذا نحن.

أهو كذلك أم لا؟

إنه كذلك.

لكني كنت أتحدث معك عن النظام يا آنسة مرسيدس.

لا يمكنك أن تتخيلي الفرح الذي منحتِه لي للاستيقاظ في اليوم الأول في منزلك ورؤية تلك الفوضى التي زادت لاحقاً. أسرّة كوريته والفتيات دون ترتيب. أوعية الحليب مبعثرة. الطاولة ملأى بالفتات. منديل على الأرض. الدمى في مغسلة الحمام. الحذاء الأزرق المفقود والذي لم يُعثر عليه. علبة ألوان بلوميير مع جميع الدهانات مبعثرة على الطاولة. المبولة المتنقلة في الممر. وأنت تستعجلينهم وتسرعينهم، وإننا لن نصل أعتقد أنك قلت، وإننا لم نصل، ولن نصل.

طلبت منك مغادرتي، وأن إميريتا موجودة بالفعل، ولا داعي للقلق. وبعد ذلك كنت أمضي في وضع كل شيء في مكانه، مثل إخراج الحياة من المنزل.

النظام أمر سيّئ يا آنسة. أن تستيقظ المرأة في الصباح، وترى أن شيئاً لم يتغير مكانه، أن هناك صحناً واحداً فقط في حوض الجلي. لن يدخل أحد من خلال الممر راكداً، وأن كل شيء سيبقى على حاله في المكان نفسه عند الساعة الحادية عشرة والثالثة والتاسعة.

أقوله لك، إنه سيأتي يوم ستستفقدين فيه هذه الفوضى.

وكم ستتأثرين، ضمن كثير منها، عندما ترين دوامة في درج أدوات المائدة.

* * *

كنت أتمنى أن أكون مثلك في أشياء كثيرة. إلّا ما يتعلق بالتدخين، دعينا نَرَ. لا أدري، الحصول على بعض الدراسات، وحتى السفر إلى البرتغال، وأن تكوني محاطة بالصبيان الصغار، ومعرفة السياقة، وجلوسي في الخلف في الصلاة في الكنيسة إذا رغبت في ذلك حقاً أو لا أذهب، أن أكون مثل هذه الفتاة الطيبة، مثلك في كل شيء، أن تدافع الواحدة عن نفسها دون الحاجة إلى رجل ينبح عليك.

كانت والدتي تقول إن الرجل حيوان. الواحد منهم عندما تكونين خطيبة ينظر إليك مثل الذئب، وأنه عندما تكونين زوجته ينبح عليك مثل الكلب. كان المعلم السابق، دون أوبالدو ينبح. وكذلك الآخر. كان دائماً يقدم القليل لنساء القرية. «ظهورهن سرقت ظلماً إلى عالم الزراعة»، أتذكر أني كنت أقول للفتيات اللاتي يذهبن إلى المدرسة. يا إلهي. تلك الأحاديث التي تدور لتقول شيئاً بسيطاً جدّاً: لم يكن علينا أن نكون هناك (في المدرسة)، ولكن في المطبخ.

كما لو كان يزعجه أن تدرس القليلات اللاتي يذهبن إلى المدرسة، كما ترين. ثم كان يقول لنا: لقد ربّينا أطفالنا في البرية، مثل القوارض أو الأرانب، هذا ما قاله. وكذلك من هناك ما كان سيخرج أكثر من العشب.

لهذا السبب كان من دواعي سروري رؤيتك تصلين إلى القرية، يا آنسة، لأنك لست على هذا النحو وليس عليك أن تفعلي ذلك. وخلطت الأولاد بالبنات في اليوم

الأول في قطيع واحد، ولم يعد يتكلمون بشيء آخر في القرية. وجعلت ابنة السيدة دولوريس تمحو السبورة وتكتب التاريخ. وأهديت السيدة إنكارني علبة من جلد الغزال البني، أخبرتني بها أمها. السيدة إينيس، ممتنة جدّاً. ثم أنت علمتني، كما ترين. حسناً، أنت والأولاد، هذا كوريتي ينهال عليَّ بالإملاءات.

ما أقوله لك: مثل دون أوبالدو.

بالطبع، الشيء الطبيعي هو أن ينتهي الأمر بأطفالهم بحكمهم على أطفالنا. أخبرتني بذلك السيدة إينيس وهو صحيح. لأن هذا ما كان عليه الحال طوال حياة المسيح، والمهندس يحكم أفضل من راعي الأغنام.

عفواً، كانت المرة الأولى التي سمعت فيها مني هذه العبارة. أتذكرين؟ ألا أتكلم هكذا أمام الأطفال، إنه إذا كان هناك نقص في الفرص وإذا كان التخلف، نعم يا سيدة إميريتا، أنت تساوي نفس أو أكثر من المعلمة، إنه نعم للمرأة الريفية حجج باطلة.

يفعلون ذلك حتى لا ينتهي بهم الأمر إلى فلاحين أُجراء، أتعلمين؟ حول إرسالهم إلى المدرسة. وكأن الواحدة لم يعد لديها حل، لكن الابن أو الابنة فعلاً ذلك. كما لو كانت ابنتك لا تهمك، لكن لا ينطبق ذلك على الصبي. يجب أن يسير أمر الصبي على ما يرام، على كل حال، لأن هذا هو سبب إصابتك ببعض تورم الأصابع الشيطانية. حتى لا يصيبه ما أصابك تماماً.

لذا فهن يجلين، وينظفن، ويحصدن، ويقطفن الزعفران، ويذهبن بالأجر اليومي على ما يخرج، ويجمعن فضلات الحصادين بالبرد أو بالحر، ويرهقن في الخياطة أو تقشير اللوز لأنهم يدفعون جيداً، ولا يتذمرن ولا يغيرن أثاث منزلهم أبداً، بل يحرمون أنفسهم من كل شيء فقط من أجل أن يحصلوا هم عليه. وبعد ذلك، عندما يتمون الدراسة ويرسلونهم إلى المدينة لنيل الشهادة العليا، وهن مستمرات على المنوال نفسه ولكن بدون أولادهم. قادمون للزيارة في البداية، وعلى الأكثر يرسلون بطاقة في عيد الميلاد أو في عيد الفصح، وبعد ذلك لا يعودون

حتى في تلك المناسبات: على الأكثر، يكتفون ببطاقة بريدية، لأن الصبي في سفر، وعليه أن يرى العالم الذي لم تريه أنت. ولن تريه. وأنت ما زلت تشدين الحزام، وإنفاق الحد الأدنى، دون الذهاب في إجازة لأن هناك، حيث يتابع الولد دراسة الشهادة، كل شيء يكلف غالياً، ومرضك لم يعد له علاج في القرية، ولكن كل ما يخص الابن فهو ضروري. بالرغم من أن الابن قد وصل متأخراً إلى جنازتك في سيارة باهظة الثمن، ويرتدي ملابس أنيقة جدّاً، كما حدث للسيدة تريني مع ابنها خيرمانين. كل حياتها تعمل المرأة هكذا ليدرس الابن. وقد حصل على الشهادة. ثم يذهب للخارج ولا تكاد تراه مرة أخرى.

بالضبط كما أقوله لك.

كم مرة أخبرت الصبي أنك تحبينه يا آنسة؟ متى كانت آخر مرة لعبوا معاً؟

في اليوم الذي ماتت فيه السيدة تريني، كان ابنها في الخارج وتأخر عن موعد الدفن.

لقد أردنا جميعاً أن يكون أطفالنا مثل خيرمانين، كما ترين.

حتى لو تأخروا عن المقبرة، نعم. ولكن مع سترة وبعض الأحذية التي أعطت المجد لرؤيتهم.

* * *

أنت لا تعرفين البهجة التي تمنحينها لي حين تمدين ذراعك لآخذها، كما لو كنت أنا أنتمي إليك، وخرجنا للتنزه في الخريف على طريق الوادي أو طريق الجبل مع الصبي وهو يتقدم بالدراجة ومع الفتيات اللواتي يأكلنَّ بذور اليقطين.

بطاقة بريدية. تماماً مثل بطاقة بريدية. أو مثل أحد تلك الأفلام التي تنتهي بموسيقا جميلة ونهاية كبيرة.

أنت لا تعرفين كم أستمتع بتحضير شطائر الأطفال. اختيار ما ترتدينه لكل واحد منهم. ولف كل شطيرة بعد ذلك مغادرين كما لو كنا ذاهبين إلى الفلبين. ماذا

لو أخذنا الكرة؟ ماذا لو أخذنا بعضاً من العلكة؟ ماذا لو أخذنا المقلاع. ماذا لو أخذنا السلة؟ قالت لي، إميه، إذا رأينا فطراً. تخيلي ما إذا كنا سنتوقف عند مكان الذقن أو إذا كنا سنصل إلى حيث أشجار اللوز، التي هي أبعد من الفلبين.

لأن الشيء السيَّئ ليس الصمت الذي تحمله الواحدة في الداخل، يا آنسة، كأنه حداد لا علاج له. الشيء السيَّئ هو الصمت في الخارج. عندما لا يكون لديك أحد يضع لك ذراعه، وليس هناك ولد على دراجة يفتح لك الطريق، تلك هي فترات الصمت الكريهة. ستقولين إنني حمارة، لكنني لا أهتم إذا لم أسمع إذا كنت أعرف أن هناك ضوضاء من حولي.

لا يخيفني أن شيئاً ما مكسور هنا في الداخل. ما يخيفني هو هذا الشيء المسحوق من الخارج. مع العلم أنه حتى لو سمعت، حتى لو أعاد لي الله السمع، فليس لدي شيء لأضعه على أذنيَّ. تماماً.

الصمت الذي تعيش به الصماء ليس مخيفاً يا آنسة. بل الصمت الذي يخيف هو الذي تعيش به من تستطيع أن تسمع بشكل رائع، ولكن ليس لديها ضوضاء قريبة. أو لا تريدها. أو تهرب منها كما تهرب من الشيطان لأنها تعتقد أنها ستبقى موجودة طول العمر ولكنها لا تبقى كذلك.

الصمت الأول هو قانون الحياة ولا أعرف ما إذا كنت أستطيع الشرح.

الصمت الثاني هو الموت نفسه.

متى كانت آخر مرة بحثت فيها عن ضوضاء الأبناء، هاه؟ قولي. هل صنعتم الكعك معاً بعد الظهر؟ كيف ستكون حياتك من يوم لآخر إذا لم تسمعيهم يقلبون الدنيا رأساً على عقب، يا آنسة؟ كم مضى من الوقت منذ أن لم تعودي تطلبين منه لمس الهارمونيكا؟ تلك التي كان يعزف عليها في البداية، أتذكرين؟ تلك التي جلبها له والده والتي تجعلك مريضة. التي كان يعزف عليها حتى وضعها في الدرج ذات يوم.

أقولها لك تستطيعين العيش دون الزوج. حتى أنه في بعض الأحيان فإن العيش بدون الزوج هو أفضل بكثير، ولكن لا يمكن العيش دون الابن.

يعجبني عندما يضحك الأربعة فجأة بمجرد مشاهدة تلك الضحكات التي تبدو كالألعاب النارية. يعجبني عندما يضحكون على إميريتا لأني خرجت إلى طريق الوادي مرتدية نعال المنزل. أو عندما أكتب هوغار بلا حرف الهاء في الإملاء. يرفع كوريته رأسه، ويمررها إليك أو إلى الفتيات، ويضحكون جميعاً، والصبي يشير إلى الخطأ بالقلم الأحمر، ويضع ذراعه حول رقبتي.

أصوات الضجيج المباركة، آنسة مرسيدس.

مباركة، العفو. تكتب مباركة.

حسناً، هكذا يبقى. لا أشعر برغبة في وضع تشطيبات.

* * *

إنه متقدم بالدراجة.

يترك يديه ويحيي.

يتغابى.

أطلق صرخة وأذهب.

الصبي يبكي كثيراً.

لديه دماء يا آنسة.

وأنت هادئة جدّاً. هذا يجعلني أحياناً أشعر بالمرض بسبب العديد من الدروس خارج المدرسة.

أنت تقولين: ينبغي عليك أن تتركيهم يسقطون، وأعتقد أنها غلطة مُعتذرةً من ذلك الأمر. يجب علينا تركهم يقعون، ومن ثم مساعدتهم على النهوض، وبعدها الوقوف على أقدامهم حتى نعرف توجيههم. دفعهم كما ندفع الساعات بربط مسننها. نجعلهم يعملون دون أن يسقطوا. لا ندعهم ينهارون مثل جدار يأكله اللبلاب.

كوريته، كم كان يمشي مستقيماً، هاه.

في اليوم الذي أخذته إلى المنزل لأول مرة لسقي النباتات في المزرعة، واستغرق الأمر منا بعض الوقت للعودة، لم تقولي لي شيئاً، لكني لاحظت إيماءة منك.

بدأت على الفور بإخبارك بالتفصيل عما فعلناه، كما لو كنا قد فعلنا شيئاً خاطئاً، كما ترين. ذهبنا أولاً للشراء من متجر السيد لويس لما وراء البحار لأنه كما تعلمين أن شيئاً ما يقع دائماً في حبه، وأننا استمتعنا فيما بعد بالمراجيح، ولاحقاً ذهبنا إلى منزلي للسقاية بالماء... لكنك ابتسمت لي، وأخذت ذراعي وأخبرتني أنه لم يكن عليك أن تخبريني بأي شيء، وأن الشيء الوحيد هو أنك كانت قلقة لأن الظلام قد حل. أردت إخبارك بالطريقة نفسها، لكن كان لديك الكثير لتصحيحه.

لذا دعيني أخبرك الآن. أتخيل من ذهب إليك بالقصة. ماذا عن رائحة القرف التي كانت والدتي تقولها عندما تتحرك الريح.

ماذا قالوا لك عني؟ لأنهم قالوا بالفعل كل شيء.

من كل شيء، أماه يا ذا الحب الجميل. كما لو كانت إحداهن محضرة وجبات خفيفة للأطفال.

كما لو كان الأطفال في خطر مع إميريتا، كما ترين. تلك التي رشقوها بالحجارة هي المرأة التي إذا تركت بدون زوج لتخرس أفواههم. الحماقات التي تنتشر متى تعاني المرأة من مصيبة لا تزول أبداً. الحماقات التي تقال عندما يرونك معهم.

وصلنا وكان عطشاناً. الستائر مغطاة، ورفعتها للسماح بدخول القليل من الضوء المتبقي. لقد شرب من الإبريق بمجرد دخوله، وهو يعلم أنه منعش جدّاً. وبعد ذلك ذهب معي إلى الحظيرة لسقي النباتات. أخرجت الدلاء من البئر، وألقى هو بالسطول. لهذا السبب بلل سرواله، وأنا أعلم أنك لاحظته. ثم ذهب يفتش في المنزل، يعرف كيف هو. أيضاً، دعنا نَرَ. دخل الغرف. رأى مصائد الفئران. في النهاية انتهى به الأمر في غرفة النوم. سألني إذا كان الشخص الذي في الصورة هو رامون. قلت له أنظر. لقد فتح المذياع، على ما أعتقد، لأنه بقي يقلب بالمفتاح لفترة من الوقت من جانب إلى آخر. جلس على السرير، وجرب القفز على المرتبة. جلستُ بجانبه. أضحكتّه

صورة الدب المنسوجة على الوسادة. شمها. ثم لمس عجلة المذياع ورفع الستارة. قال شيئاً وهو ينظر إلى الشارع. وأنا ألقيت نظرة خاطفة. وهناك كانت. كانت هناك عندما رأتنا تلك في غرفة النوم.

أترين. تلك الحمقاء. حتى إنني أشعر بالحرج لاضطراري أن أقص.

لا أعرف حتى ما إذا كانت قد قالت لك أي شيء.

لكن مجرد التفكير في ذلك، كان يدخل الألم في صدري.

هذا ما حدث بعد ظهر ذلك اليوم، آنسة مرسيدس. لهذا وصلنا في الليل.

* * *

الولد يعلم. أعلم أنك لم تخبريه، لا تقلق.

إنه يعرف لأنه ولد، وهو مع فتيان آخرين من القرية. وهؤلاء الفتيان الآخرون يعرفون.

تماماً.

من الجيد أن يعرف.

أقول لك إنني معه طوال اليوم المقدس. لأنه يسألني عن كل شيء، لاحظي. لديه معلمة في المنزل، ويسألني كل شيء. حتى إنه يسألني عن أشياء يجب أن يسألها للأب بشكل أفضل، أشياء عن أجساد الأولاد، إذ تعتنين به أنت الآن. ولكن ليس لديه أب. كما يقولون.

يسألني وهو يكتب على صفحة لماذا أرتدي طوقاً حول رقبتي. وماذا لو كانت عذراء الكارمن وعذراء الفاطمة موجودتين، وكانتا اثنتين، كم عدد أمهات يسوع.

يسألني عن المحاصيل وعما تزرعينه في الحديقة.

يسألني عن كاسيريس وطليطلة، كما ترين. وكذلك عن ليغانيس. أنا التي لم تخرج من القرية.

يسألني كيف كنت أعيش دون زوج. وإذا كنت أرغب في استلام بطاقات بريدية من رامون.

يسألني إذا كان الغريق يعاني كثيراً، انظري إلى هذه الحماقات الكبيرة.

يسألني إذا كنت قد ولدت صماء أم إنني أصبت بالصَّمَم فجأة. هل يمكن أن يصبح أصمَّ؟

يسألني عما كنت أفعله قبل مجيئي للعناية به.

لديه معلمة في المنزل ويسألني كل شيء

أنت تتحدثين وتبشرين كما لو أن سنوات الطفل الأولى لن تنتهي أبداً وسيكونون دائماً هكذا.

لكن لا.

إنهم يغادرون. ذات يوم يغادر أبناء السبع سنوات، بوم. في يوم آخر يغادر أبناء الثمانية، بوم. في يوم آخر يغادر أبناء التسع سنوات، بوم. ثم لا تبحثين عنهم في أي مكان، لأنك إذا عثرت عليهم، فبالتأكيد لم يعودوا أولادك. بل شبيهين بهم. بألقابهم العائلية. مع بعض السلوكيات منذ ذلك الحين، تلك نعم.

لكنهم لم يعودوا أنفسهم. يبقون في تلك الألبومات التي يملؤونها كما لو كان الأبناء كبطاقات اللعب. إنهم يبقون هناك مثل الأطفال المحبوسين في مجموعات يعتبرونها منتهية، وبعد ذلك لا يُفتحوا. حتى الحليب الذي رضعوه، أوه.

يذهبون يا آنسة. مثلما يذهب الأطفال عن الثدي أو تأتي ليلة لا تعودين فيها لغسل الحفاظات باليد.

لقد ذهبوا ولن يعودوا. ثم تحدثين نفسك حيث كنت تبحثين في السجلات وماذا كنت تفعلين كل هذا الوقت.

* * *

بعد ظهر هذا اليوم، سألني ابنك، دون مقدمات، إذا كنت سأضاجع فيلادييغو. كنا على الطاولة النقالة نشاهد التلفزيون. لقد نهض وجلس فوقي كما يفعل الحيوان. أمسك بذراعي ووضعهما إلى الأمام كما لو كنت حزام أمان، بينما واصل النظر في الرسوم المتحركة. ثم مد إحدى يديه، ومزق صفحة من دفتر السلك، وكتب لي السؤال. إن كنت سأذهب وأتركه.

وشعرت بالشفقة من أن أقول له الحقيقة: إن من سيغادر يوماً ما سيكون هو أو، العكس بالعكس، يا آنسة. والعكس بالعكس.

وبما أنني شعرت بالشفقة تجاهه، أجبته بالنفي.

لذلك عندما انتهى عرضه المفضل، استدار وجلس على الطاولة.

لعبنا لعبة الحجر، والورق، والمقص حيناً من الوقت، ووصفني بالكاذبة وبنصف ابتسامة سألني ما إذا كان ما قالوه له صحيحاً.

لقد أخبرته. أعتقد أنك اكتشفت ذلك بالفعل.

وأريد أن أخبرك أنت أيضاً.

كما ترين، الوسادة التي لديه منخفضة جدّاً. إنه لا يحب الحليب الساخن جدّاً يا آنسة مرسيدس. لا تضع له الفاصوليا الخضراء بالخل والزيت لأنه يفضلها مطهوة ببطء. يقول إنه سيكون مصارع ثيران أو طبيباً بيطرياً. فرس النبي يخيفه. يريد أن يكون لديه قطة.

لا تكثري من توبيخه لأنه يتأثر، لأنها طريقته في لفت الانتباه.

دعيه يخربط كل شيء، لأنه فقط من يخربط كل ذلك يحصل على شيء واضح.

لا أعرف ما إذا كنت قد رأيت من قبل عصفوراً ينفض الماء أو كلباً يشم الثلج، يا آنسة. حسناً، هكذا. أود أن يكبر هذا الابن الذي ليس لي على هذا النحو. تماماً.

* * *

(هو وهم)

في دكان فيسينتيكو ثمة مغلفات لجنود صغار من الكروم قابلة للقص وأسنان الدراكولا ومفرقعات الرائحة الكريهة وأقنعة على شكل خفاش وعلكة بازوكا ثمنها بيسيتا واحدة وعرق سوس وعصي وبزر وكوجاكس ونمور صغيرة.

بالدوروين[1] الذين تعطيني إياهما أمي كخرجية أو مصروف، تستطيع بهما الذهاب إلى دكان فيسينتيكو والخروج من هناك وكأنك نهبت كنز فرعون. بالرغم من أن فيسينتيكو كان أعرجاً، وقصيراً، وملتوي الفم، ولا علاقة له بالفرعون.

ولكن - في سّني هذا - كان أفضل ما أستطيع أن أفعله بتلك العشر بيسيتات هو إنفاقها في ساريتا.

لأنك إذا دفعت دورو، فإن ساريتا تريك المؤخرة.

لا أعرف إذا كان ذنبنا المميت أكبر أم ذنبها. تحدثنا عن ذلك نحن الثلاثة وكنا متفقين: ذنبها، ذنبها. إنها مبدئياً تذنب ثماني أو تسع مرات كل يوم أحد ونحن مرة واحدة فقط.

تأخذك إلى الكوخ القرميدي الموجود قرب لاإرابلانكا. تدخلك واحداً فواحداً. وبينما تغلق الباب. تمد كف يدها كي تدفع مقدماً. تودعُ أنت الدورو وحينئذ يحدث العرض: هي تدور، تضع مؤخرتها مثل القنبلة، تنزل سروالها الداخلي وهو يشبه سروالي، وتبقى هكذا ثلاث أو أربع ثوان. عندما كنت تنحني انتهى العرض.

- هلمَّ، انتهى العرض، وهكذا قالت لا أكثر ورفعته.

---

(١) (٢ دورو = ٥٠ بيسيتا).

- انتهى؟ لم تقفي قطّ.

- يا بني، بدورو واحد! إذا رغبت أقف لك كتمثال نصف ساعة.

حينئذ، عندما خرج غريغوريو بعدي، ها هو ينهي الأمر دائماً قائلاً إن ساريتا بائعة الغلاء، ومن الأفضل لنا شراء نمور ورقية أو مفرقعات ذات الرائحة الكريهة.

ولكن في يوم الأحد التالي كنا هناك أيضاً. حيوانات صغار كالعادة.

إذا كان يوم الأحد، وكان يوم قبض الخرجية، ولم تكن في فيسينتيكو بعد الصلاة، فأنت واقف على دور كوخ لاإيرا بلانكا.

سألتني السيدة إميريتا عما كنت أفعله بالدورويين، ذلك لأنني قبلاً كنت أحمل دائماً إلى البيت بعض الجنود الصغار أو قناعاً. وأنا كنت أقول لها وقد تلونت بأني أكلت بها كل شيء. هي عندئذ كانت تطلب أن أريها لساني، أجرت الحسابات وتركتني فيما إذا كنت فد أكلت جميع ما في الدكان. متضمناً الـ فيسينتكو.

تلك المرأة التي لم تكن تتظاهر بالصَّمِ فقط. بل كان لها أشعة إكس في عيونها، وأنا كنت أفكر أنها حزرت كل شيء عني.

* * *

كانت المدرسة تسمى المدارس. وهو شيء لم أفهمه جيداً لأن المدرسة هي ذاتها التي كان يقال عنها مدرسة، كانت واحدة فقط. بناء منخفض مضاء، وفي كل عام، أمي تقوم بالإصلاح كما لو كان بيتها الخاص مع شخصين أرسلهما رئيس البلدية. أقول كما لو كان بيتها الخاص. لكن الحقيقة أنها كانت تجهد نفسها أكثر بكثير.

حيث تصعدُ فوق السقف القرميدي معهما، كانوا يصلحون تسريبات المياه، وتساعدهم في فك المدفأة وتنظيفها. تذهب لرؤية الحداد فيما إذا أمكنه لحام مطرقة الباب المكسورة. تقوي زجاج النوافذ المتشققة باللاصق. كانت تدهن جدران المدرسة من الداخل. وعندما يحين الوقت تربط الرأس بمنديل، وتُكلس الجدار الخارجي.

كنت أراها سعيدة، مشرقة وجميلة. أتحدث، عن الآنسة مرسيدس. لأنه عن أمي كنت ما أزال أبحث عنها منذ أيام.

- هناك فتيان لا يأكلون حتى الحد الأساسي للتغذية تقريباً. أن يبقوا دافئين على الأقل. - كانت تقول ذلك ببطء شديد لإميريتا في المطبخ، وتنظر إلى شفتيها والتي تهز رأسها - إذا لم تقم الوزارة بإصلاح التدفئة، فعلى البلدية أن تفعل ذلك. وإذا ساعدت أنا، فإن البلدية ستتأخر مدة أقل.

وعلى جميع الأحوال، كان المهم هو ما في الداخل، كما كانت تقول إميريتا عندما كنت آكل عجين الشطائر، ولكني أترك الحشوة.

- دعك من الدلال. وكلها كاملة. فإن المهم ما هو في الداخل.

كان في الداخل سبورة خضراء وضخمة، عذراء من الجبصين في إحدى الزوايا، ومقاعد من خشب الصنوبر مجموعين في صفوف، وطاولة ضخمة مع دروج للمعلمة، وعليها نفاضة سكائر قذرة، وسلتيّ مهملات من البلاستك، وحمالة شماسي زرقاء، وثلاث تعاليق للملابس، وفي وسط كل ذلك، تلك المدفأة التي تبدو مثل مرجل القاطرة.

كانت هناك أيضاً لوحتان: واحدة منها صورة لسيد له شاربان يسمى فرانكو والأخرى صورة للملك، والذي كان يضع شريطاً حول صدره.

اعتادت والدتي أن تزيل من حين لآخر صورة الرجل ذي الشاربين وتترك صورة الآخر. لكن دون إلاديو، والذي كانت لديه مفاتيح المدرسة أيضاً، حينها يترك بضع أسابيع تمر، منتهزاً غفلة ما، فكان يعيد صورة السيد ذا الشاربين إلى حيث كانت.

- لنأخذ عطلة العيد بسلام آنسة مرسيدس.

- لهذا بالضبط، دون إلاديو.

ثم حيّا بعضهما بعضاً وهما يبتسمان، وتبادلا تحية صباح الخير.

بالرغم من ذلك، كانت أمي تتحدث عنه بشكل جيد، وليس فقط لأنه كان قد حمل فيرو إلى المستشفى عندما احترقت، بل لأن دون إلاديو كان يساعد الذين لا يملكون إلا القليل من أهل القرية، هذا ما كانت تقوله ماما، وكانت تقول دائماً رافعة الإصبع أن الأوامر العامة هي ثلم الأمة، وأننا نحن، تلاميذ المدرسة، كنا البذرة.

ضحكت أمي (في هذه اللحظات كانت أمي) عندما قلدتها برفع الإصبع أيضاً. وثم أضافتْ أَنَّهُ كان رجلاً طيباً. وإن قام في اليوم التالي قد عاد وعلق صورة السيد ذي الشاربين على المسمار الخطاف.

لم يكن هناك مثيلٌ لليوم الأول للدوام في المدرسة. تلك اللحظة التي تسحب فيها الآنسة مرسيدس الصناديق، وتضعها على كل طاولة من الصفوف (الأول، الثاني، الثالث) وبعد ذلك كانت تقول لنا أن نفتحها كما لو كانت هدية.

كنت تفتحها، وهناك تجد البطاقات المدرسية. حيث تجرب بوزة القلم الرصاص المبرية بوخزك بها على ظهر اليد. كنت تحمل إلى أنفك المحاة المطاطية، وتجرب الحلقات المعدنية للمؤرشف فيما إذا أُغلقت جيداً، كلاك، كلاك، عدة مرات، وكأنها كانت أسنان تمساح. وشممت رائحة دفتر المربعات أيضاً.

وعندما أطلقت الآنسة طلقة البداية، قالت: أن نضع في الأعلى اسمنا و(كنيتي الأب والأم)، والصف الذي نحن فيه، تلك المرة، أقول، على الأقل هذه المرة الوحيدة، أكرر، وأنت تتفنن بكتابة الاسم بطريقة لا مثيل لها، وأصبح الاسم جميلاً جداً وبعدة ألوان، ودون شطب، ودون خروجك عن السطر.

هناك كنا مختلطين ونجلس حسب الأعمار، وساريتا، وغريغوريو، وفيسنته خيسوس، وإلاديتو، وسوفراخيو، وإيسا، وفيرو، وبيراكاس، وإنكارني، وماريو، وأوخينيو، وتودوديسيس، وتوماس وغيرهم من الكبار الذين تتعامل معهم بشكل أقل.

على أي حال، مع مرور الأيام، ما كنت أريده هو أن أمرض قليلاً. وأنا أقول قليلاً لأنني لم أكن أخطط ليتألم جسدي كله أيضاً. مع القليل من المرض أعني ثماني وثلاثين درجة من الحمى وقليلاً من السعال ولكن ليس كثيراً. ما يكفي لأن أكون قادراً على البقاء. بينما كانت أخواتي يغادرن.

ما إن خرجن من الباب مع والدتي حتى جاءت إميريتا لإصلاح غطائي. سألتني عما إذا كنت أرغب في شيء ما، وكانت تقول لي إنه يجب أن أتعرق كثيراً، وأطفأت عني النور، وقد تركت الباب مفتوحاً، وبعد ذلك، عندما تعبت من التعرق ولم يعد هناك خطر من الذهاب إلى المدرسة، ناديتها وأنا أشعل الضوء وأطفئه، كما لو كنا نعرف إشارات مورس، وقد أتت في الحال.

لم تكد تمضي ساعة، وكنت اعتدت حينئذ أن أطلب منها أن تحضر لي المجلة المصورة والقصص التي كنت قد شاهدتُها ألف مرة. كنت قد قرأت قصص صاندوقان وداردوفيل وكاربانتا أو قصص تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر (ليلى الحمراء) مع الضفائر. لكنني رأيت أيضاً والدي، الذي كان هو من أحضرها لي من مدريد.

للعلم ما كنت أراها هي إميريتا، التي كانت تجلس قريبة جدًا. تعمل الكروشيه أو النظر إليَّ.

*   *   *

هذه قصة فتاة غير عادية على الإطلاق. هكذا يعتقدون، على الأقل، جميع أولئك الذين يعرفونها. اسمها بيبلوتا فوكتواليا رولغاردينا بفيففيرمينز ليسينج لانجسترومبف، أو للاختصار - بيبي كالثاس لارغاس - ذات الجوارب الطويلة.

تعيش وحدها تماماً. حسناً، ليست بمفردها، حيث يوجد معها السيد نيلسون، وقرد صغير مضحك، والعم الصغير، وحصان جميل.

توفيت والدتها عندما كانت بيبي لا تزال صغيرة جدّاً واختفى والدها، - وهو قبطان بحري -، في عاصفة بحرية. ومع ذلك، فهي تعرف كيف تعتني بنفسها.

قُرِأت الفقرات الثلاث عشرات المرات، وثمة أجزاء كنت أعرفها عن ظهر قلب مثل صور من المسلسل التلفزيوني التي ظهرت في الكتاب وأذهلتني ونسخة الكتاب التي تضمن ثلاث بقع على الغطاء الأخضر، فكتبت اسمي ولقبي لتوضيح لمن هي.

طويتُ الوسادة خلف ظهري، ودفعت نفسي للجلوس على السرير، ورفعت الغطاء حتى صدري، التقطت القصص، وكدستها حسب الأفضلية. كانت هناك قصة (غضب). قصة (داكتاري). قصة (زعيم هندي). قصة (عجائب العالم القديم). قصة (مغامرات نيغريتو ريفيس).

كانت قصة بيبي دائماً هي التي أرتبها في المركز الأول.

إذا لم تكن الحمى عالية جدّاً، يمكنني قضاء ساعات هناك في الداخل. لأنني إذا أردت يوماً أن أكون فتاة، يجب أن أكون مثلها.

وحيدة دون أبوين مع قرد وحصان. ترتدي ما تشاء. تتسلق على أسطح المنازل القرميدية. دون الذهاب إلى المدرسة. اللعب في الوحل. بالتأكيد، يمكن أن تكون فتيات مثل هذه تجدها فقط في الخارج وليس في القرية.

«دعنا نَرَ، وأن أرى إذا كانت قد ارتفعت حرارتك». ووضعت إيميه شفتيها أولاً على جبهتي. ثم هزت الترمومتر. ثم وضعته تحت إبطي وأنا شعرت به مثلجاً.

قالت بعد بضع دقائق: «ثماني وثلاثون تماماً».

دثرتني مرة أخرى.

وضعت شفتيها على جبهتي مرة أخرى.

سألتني مرة أخرى إذا كنت أريد الماء أو إناء التبوّل.

في النهاية كنت أعود إليها دائماً.

قالت بيبي: - «والدي في بلد بعيد وهو ملك أكلة لحوم البشر». في يوم من الأيام سيأتي ليأخذني معه. وسأكون أميرة وسأستمتع جدّاً!

- «ومن يرسلك للنوم»؟ سألت أنيكا.

- حسناً، لا أحد. أنا نفسي أذهب إلى الفراش عندما أرغب في ذلك. هذا هو الشيء الجيد في العيش بمفردك: لا أحد يأمرك بأي شيء أبداً.

* * *

في أحد الأيام قال بيراكاس بصوت عالٍ إن ميغيل أنخل قد أجرى الجماع مع القديس بطرس. بدأ معظمهم يضحكون. حتى الآنسة مرسيدس فعلت. وأنا أيضاً. أنا ضحكت فقط كيلا أبدو غبياً، ولكن ليس لأنني فهمته.

- ميغيل أنخيل، يقول، يا له من وحشي - ضحكت مع البقية.

اعتقدت أن الجماع كان من الممكن أن يقوم به شخص آخر وليس مايكل أنجلو. إنه شيء، أولاً وأخيراً، لم يبدُ لي أنه يستحق كل هذا الضحك. ولكن الأمر لم يكن هكذا.

شرح لي غريغوريو ذلك عند الخزان.

لأنه وإذا كنت تعيش في قرية، فقد تعلمت في ذلك العمر خارج المدرسة أكثر مما تعلمت داخلها.

عندما كنت في الشارع رأيته قادماً، عاد أبي ليلة الجمعة كما كان يفعل سابقاً، دهن سيارة السيمكا طراز (١٢٠٠) باللون البني وقد صبغ شعره الشائب قليلاً، وارتدى كنزة برقبة عالية جعلته يبدو أنحف، وأحضر لي ما لا يقل عن ستّ مجلات مصورة جديدة تماماً ولأخواتي، القواطع المرسومة ودميتين: قصت إيسا شعر إحدى الدميتين. أهدى أمي أصيصاً مع بعض الزهور، همس بشيء في أذنها ثم عاجلها بإحدى تلك القبلات السينمائية. كيف تمكن كلاهما من إخراج السيجارة من الفم لتبادل القبلة.

حصلت تلك المشاهد لتبقى.

خلال العشاء، قدم والدي النبيذ لنفسه، وألقى الطعام تحت المائدة لفليكي، كما فعل من قبل، وتحدث إلينا نحن الخمسة تحت نظرة أمي المذهولة.

- دعونا نَرَ. ماذا يقص لي هذا الولد الصغير؟

وتحدثت معه قليلاً عن غريغوريو وفيسنته خيسوس، وكيف عملت آخر جرح في الركبة، الولادات الجديدة من القطط للجار وإذا أمكننا الاحتفاظ بواحد. أو أخبره عن اليوم الذي تُركت فيه الإميريتا دون قطعتين من إصبعها.

- أريه يدك يا إميه، هيا.

- يقال السيدة إميريتا، يا بني، كم مرة يجب أن تخبرك والدتك.

وهي أظهرتها له.

وبعد أن أخبرت أخواتي بدورهن أيضاً، بدأنا نحن الثلاثة بالاستجواب، والضغط علينا بالأسئلة كما لو كنا في مسابقة.

توقفنا فقط بسبب تلك الكلمة التي كان تقولها الإميريتا من وقت لآخر:

- «هيا كلو».

- «بابا، هل زرت كل تلك الأماكن التي أرسلت منها البطاقات البريدية»؟

- «في كل منها يا بني».

- ما هو حجم قناة سيغوفيا؟

- إنها أكبر مساحة من هنا إلى الكنيسة يا إيسا. - مد ذراعيه، ووسع عينيه كثيراً -. بناها الرومان أيام عيسى المسيح. لحمل الماء.

- «هل لديك أي شريط جديد لدانييل وليتي»؟

- «نعم لدي، يا بني. سأضعه لك غداً. ولفيكتور خارا أيضاً. وفي كل مرة أستمع إليه، كنت أتذكركم.

- هل استمعت إلى أغنية ألغو دي مي (شيء مني)، لكاميلو سيستو؟ يأمي، غنيها لنا.

استجابت أمي بعد الترجي لتُدندنها كما طلبت منها فيرو، واستمرت إميريتا قائلة «كلو»، وفليكي هو الوحيد الذي فعل ذلك، ثم غنى أبي «للتخلص من الأسلاك، أديسالامبرار»، والنقر على الطاولة بقبضته وكذلك فعلنا، بينما كانت أمي بوجه سعيد تجمع عظام الدجاج على طبق.

- هل لديهم أسماك أعماق البحار في متجر ما وراء البحار في مدريد؟

- «حسناً، يا رجل، أسماك أعماق البحار لا أعرف». ولكن هناك متجر واحد لديه قريدس عملاق من وراء البحار.
- هذه كذبة... ليس لديهم أسماك من أعماق البحار هنا. ومعظم ما لديهم من البحر هو سمك الرنجة. أليس كذلك، يا إميه؟
- «إنها تسمى السيدة إميريتا»، تدخلت أمي، «كيف لي أن أخبرك»...
- «هل يمكننا الذهاب إلى الكازينو غداً لنشرب ميرندا»؟
- «حسناً يا ابنتي».
- «هل ستدعونا إلى فيسينتيكو لاحقاً»؟
- موافق.
- «هل يمكنك أن تأتي إليّ لاحقاً لتقصّي الزوايا الصغيرة»؟
- حسنا بالطبع. الزوايا وكل ما يلزم، يا فتى.
- «هل أخبرك العم خورخه أن العالم سينتهي هذا العام»؟
- «أوه، لا، يا بني»، - كان يضحك وهو ينظر إلى أمي -. في هذا العام يبدأ العالم. كيف سينتهي؟

لقد عادت الأمور إلى طبيعتها.

دون معرفة كيف ولماذا. الشيء نفسه الذي لم أسأله من قبل، وأنا أيضاً لم أسأله الآن. وكأن هذا الغياب للوسط لم يكن موجوداً قطُّ، وكان مجرد حقيقة تسميته هو استدعاؤها، وإحضار شيء قبيح ولزج إلى المنزل.

تمثل الخوف الذي دخلني فجأة هو أننا لم نعد بحاجة إليها الآن لأنه كان لديها شعر قصير مثل والدي، ويداها بالصلابة نفسها، وقد أصبحت بالفعل رجلاً معي. (كما أخبروني) سنكون ثلاثة رجال في المنزل وكان ذلك كثيراً، وكنت دائماً أذكر الجد عند الجدال مع أبي.

كان هذا أول ما سألته عنه في صباح اليوم التالي.

- «هل ستغادر إميريتا»؟

- «ولماذا هي ذاهبة»؟

- «لأنك أتيت.

- «وما علاقة الشيء بالآخر»؟

- لا أعلم. لأنها جاءت عندما لم تكن هنا ...

كان بإمكانه أن يقول ما يريد، لكنني هدأت فقط عندما رأيت أن والدي وإميريتا مناسبان كزوجين رائعين. لقد ذكروني قليلاً بالثنائي الكوميدي الذي فيه أحدهما يلعب بذكاء والآخر يلعب بذكاء أقل، لكنه دائماً يضحك ويجعل الناس يضحكون.

جلب أبي أرنبة مليئة بالخردق، وسَلختها وجهزتها لطبخها مع الأرز، جاء أبي ومعه دزينة من العصافير الصغيرة، وقامت إميه بنتفها وحضرتها لأكلها مقلية، قطع أبي الحطب الذي وضعته إميه بعيداً. أحضر أبي أصيصاً لأمي، ورسمت إميه عليه رسوماً بألوان مختلفة. علمها أبي لعب الدومينو، وهي علمته التمييز بين الفطر المفيد وبين الفطر السام. ناداها يا حماتي. أو حميتي. أو سيدة فقط. وأجابته بأنها ليست بهذا الكبر أحياناً، كي يجعلنا نضحك، فكان بابا يمثل وكأنه يصرخ فينا دون أن يصدر أدنى صوت، مُحركاً الشفاه والذراعين كثيراً كي تراه. فقط ليرى والوجه الغريب جدّاً الذي أظهرته إميه، وبعد أن عرفت المزحة وقالت له لا برأسها.

- هذا الرجل، يا للحماقات التي لديه - تضحك - يبدو صبيّاً أكثر من الصبيان.

صماء نعم، ولكني لست غبية، يا ناتاليو.

لم يذهب بابا يوم الأحد، ولا الاثنين، ولا الثلاثاء. ولا في الأسابيع التالية. لم يكن غريباً رؤيته يأخذ الصور بكاميرته. أو بالصيد. أو في الكازينو. وحينئذ تطابقت معي فكرة أنه كان رئيس المديرين. لأنه إن لم يكن ذلك، لكان عليه الذهاب ليسجل بطاقة دوامه يوم الاثنين في معمل شركة كريزلر مثل الجميع، هذا

شيء ضمن أشياء أخرى تعلمتها حين ذاك: في المدينة كانت تسجل بطاقة الدوام أما في القرى فلا.

فهمت أن كل شيء كان قد عاد إلى الوضع الطبيعي. حين ذهبت يوم السبت إلى سرير والديَّ ودخلت بين شراشفه، وتأكدت من عُري جسده.

سألته عنه. نهضت ماما مبتسمة وتركتنا وحدنا قائلة لا أعرف عن فحول البيت.

- ما لديك أهو مماثل، يا بابا.

- وماذا كنت تعتقد، أنه أصبح أخضر؟

- لأنني أعتقد أنه نما عندي. انظر.

تجاهل والدي رؤية السروال الداخلي النسائي الذي ألبسه، بعد ذلك لعبنا المشاجرة.

مع إشراقة الشمس. كان عارياً في السرير كما كنا نفعل كلانا يوم السبت، مع تلك النقاط الصغيرة للشمس التي كانت تدخل عبر الستائر، يجب أن يكون كأنها تلد لك ابناً.

* * *

أفضل شيء في وجود والدي هو أنه، وأخيراً، أن أحداً جعلني أسدد الأهداف كما الله أمر (كما يجب).

كما الله أمر تعني أنها لم تكن تسديدة قوية. ولا بطرف الحذاء. ولا بطريقة قلي الهليون. ولا ضحلة جدّاً. ولا حتى فوق العارضة التي لم تكن موجودة، لكننا تخيلناها بل فقط تمام الكمال، متوسطة الارتفاع، ليست قوية جداً ولا ضعيفة جدّاً، تماماً هناك، تم قذفها، لكي أصنع الفشار مثل ميغيل رينا (حارس المرمى).

كما الله أمر، ألقى لي بهم أبي فقط.

الإميريتا هي من استخدمت كما أمر الله في كل شيء وقلدّتُها. في المرة الأولى التي أخبرت فيها والدي الشيوعي، واستمع إلى دانيال وليتي، وكاد يموت ضحكاً.

- بابا، ألقها إليّ كما الله أمر.

- «وكيف أمر يا بني»؟

- «من هنا» أشرت بيدي على بعد متر منّي. موضوعة.

إذا قالت السيدة إميريتا إن عليك تنظيف نفسك كما الله أمر، فهي تعني أنه كان عليك أن تفرك خلف أذنيك أيضاً.

إذا قالت إن عليك أن تأكل كما الله أمر، فهذا يعني أنه لا يمكنك النهوض دون فاكهة في الجسم.

إذا طلبت مني أن أكون ولداً كما أمر الله، فما كانت تريده هو أن أتعلم الأنهار وجدول ضرب الثمانية وعدم الذهاب أبعد من شجر اللوز.

إذا تحدثت عن الطاعة كما أمر الله، فقد كان عليّ الاستماع لأمي، على الرغم من أنني أؤمن أن من كانت تأمر أكثر من أمي أو من الله كانت إميه.

كانت تلك الأسابيع التي نسيت فيها قليلاً عن العالم وخرائطه غير المكتشفة، أي عن غريغوريو وفيستته خيسوس. لقد فعلت ذلك لأكون أكثر وقتاً مع والدي، بغض النظر عن كونه أبًا، في تلك العائلة، فقد كان ترتيبه ثالثًا في سلسلة القيادة.

«ألا تخرج»؟

- لا لأن والدي هنا.

- «امضِ، انظر إلى هذا». لقد سحرنا. هناك أيضاً والدي ومع ذلك أنا أخرج.

أحياناً نذهب كلانا لإطلاق بضع تسديدات، وكانوا يأتون جميعاً. كنت أحمل الكرة، وحملت إميه الوجبة الخفيفة، اصطحب والدي فليكي، ووالدتي أخواتي وأخواتي حملا المطاط.

وصلنا إلى الموقع، ووضعنا حجرين وقلنا للسيدة إميريتا الوقوف حارسة مرمى إلى حين، ابتسمت وسارت إلى المكان المحدد. مهما رمينا لها الكرات فإنها تفشل، تتحرك ببطء وإلى المركز، لم توقف واحدة. ولا حتى واحدة. بعد أن سُجّلَ

الهدف الخامس، غادرت مع أمي وأخواتي. نظراً لأنها لا تسمع، فقد قال والدي إنه سيضعها في مكان العارضة. وانتابتني ضحكة خفيفة مع تصوري أنها قاسية جدّاً وساكنة جدّاً وأدركت ذلك.

- فلتعرف ماذا يعلمك والدك. أنا لست غبية يا ناتاليو.

لاحقاً، حتى غروب شمس الظهيرة، كان والدي يقذف لي التسديدات كما الله أمر.

* * *

[جئنا من إسبانيا التي باركت الطاولة، وذهبنا إلى تلك التي ألبست الأطفال ملابس البحارة أو الملابس العسكرية في المناولة الأولى المعمودية(*).

في يوم تعميدي، ألبسوني سروالاً قصيراً وقميصاً أبيض لا أكثر. لأنه والدي وكونها المناولة الأولى. لكن الذهاب مرتدياً زي البحار أو الزي العسكري، فهذا لا بكل تأكيد.

لقد ارتديتُ ملابس هزيلة جدّاً في أول مناولة لي، بحيث لا يمكن التعرف علي، عندما دخلت جوقة الأطفال وهي تغني في قاعة العاصمة حيث كانت هناك أربعة احتفالات في الوقت نفسه، لم يأتوا ليعزفوا لي على الغيتار، ولم يعطوني صندوق المفاجآت، ولم يلتقطوا الصور معي. لقد تجاوزوني.

كنت سعيداً لأنني تخيلت بيبي هناك وهي تقوم بأول مناولة، ولم أَرَها ترتدي ملابس بيضاء مثل أخواتي، ولم تظهر وجهاً ناعماً وكلتا يديها معاً في الصور، ولكن في السراويل القصيرة والقميص أبيض دون زيادة، اللعنة على خنزيرة الخوري.

- وهذا الفتى يرتدي هكذا في مثل هذا اليوم؟ - ابتسم الرجل ذو الرداء الأسود.

- «حسناً، أيها الأب، إذا رغبت أنْ ألبسه طقماً بزي إقليمي»، ردت له والدتي الابتسامة -. يذهب مرتدياً هكذا.

(*) المناولة الأولى: وضع القربان في الخمر ثم في فم طفل لأول مرة في الكنيسة.

- «الشيء المهم هو كيف ترتدي من الداخل، أليس كذلك»؟

- بالفعل.

كان على والدي أن يستيقظ في اليوم التالي للمناولة الأولى ويذهب للاحتجاج. لأننا نحن أيضاً قد دفعنا، وكان شاملاً كل شيء. لذا جاءت جوقة الأطفال أخيراً، وخلعوا الجزء العلوي من الزي للتحدث إلى أبي وأمي، واعتذروا بشكل خجول. وكان لدينا صورة وصندوق المفاجآت.

لم أسافر إلى الخارج مع والديّ قطُّ. كان رمي الطعام خطيئة وعمل إشارة في الكنيسة عملاً قبيحاً ويجب وضع الخبز ووجهه لأعلى الطاولة.

لقد جئنا من خيال الظلال الصينية. كنا نتجه نحو التلفزيون الملون. ومن هناك إلى ما لا نهاية].

* * *

في اليوم الذي اكتشفت فيه أن أبي لم يكن مخلصاً لأمي، كان قد مر وقت كافٍ، وأنا قد أصبحت كبيراً بما يكفي الآن لأتمنى له ثلاث دورات مع الأجراس في سيارة السيمكا، أو رصاصة في الأذن أثناء الصيد.

لم تكن تلك أمي هي من أخبرتني، ولا بابا، وبالطبع ليست إميه، ولا أحد من القرية. كان لأنه بدأ الزغب عندي بالظهور، والزغب، كما كان يقول البيرراكاس، إنه يعمل مثل هوائي يمكنك من خلاله التقاط كل شيء أثناء طيرانه.

في تلك الليلة، خرج الاثنان إلى الشرفة للجلوس على الكراسي الهزازة للتدخين، وتركا الباب نصف مفتوح. ذهبت أخواتي للعب لعبة الغميضة في البيدر، وبقيتُ ملتصقاً بكرسي ذي ذراعين من الجلد الاصطناعي أراقب المسابقة. عند انتهائها بعد نصف ساعة، أطفأت التلفاز، ثم سمعتهما بوضوح.

وضع والدي الترانزستور في الخلفية لمتابعة برنامج يوميات كرة القدم والتحقق من نتائج المباريات - الكينيلا - أخبرته بشيء عن شواطئ غرناطة وعن عمتها. كانا

يضحكان حافيي الأقدام. أخبرها أبي أنها بهذه النظارات بدت وكأنها مضيفة على شاشة التلفاز وأمي دغدغته بقشة في الأذن. سمعت قبلة، وهدفاً من فريق سالا مانكا، وصوت إشعال ولاعة معدنية، وهمسة ومرة أخرى قبلة أخرى. منذ أن عاد أبي تقريباً كُنا مسرورين.

كنت تماماً خلف ستائر الخيش التي طرزتها إميه. كنت سأفزعهم في تلك اللحظة. لكن كنت أنا من شعر بالفزع.

عندما سمع إعلان في المذياع عن مطعم أستوري يدعى الورقة والذي كان في مدريد، سرعان ما أوقف والدي مذياع الترانزستور بنقرة كليك صاعقة، كما لو أنهم قد أفسدوا نتائج مباريات الكينيلا.

كان يمكن سماع ضحك فيرو وإيسا من بعيد.

لم يخرج من المطبخ سوى الضجيج الذي أحدثته إميه في غسل الملابس يدوياً.

كسرت أمي ذلك الصمت.

- انظر... الورقة... مطعم صديقتك.

ثم وقفت، ومسدت تنورتها، كما لو كان أحدهم على وشك المغادرة. اصطحب أبي أمي من يدها دون النهوض من كرسيه.

همس بانزعاج: «أيتها المرأة، اجلسي، دعي الأمر». وضعت أمي يديها على عينيها. تنهدت. بعد بضع دقائق، عادت لتجلس مرة أخرى. ظلوا صامتين مدّةً أخرى. ثم وضع أبي ذراعه حولها وقبلها. كانت قبلة طويلة بأصوات سائلة تشبه صوت الشفاط. بعد مدّة وجيزة، أنزل يده ووضعها على ركبة أمي.

- أنا فقط أريدك أنت. لقد أخبرتك بالفعل أن الصديقة قد انتهت.

- اسكت. كاذب.

كان كلاهما جالسين وظهرهما لي. دار والدي نصف دورة على جسد أمي وحرك يده اليمنى دون التوقف عن تقبيلها. تأوهت أمي قليلاً التي تنفست بصعوبة، وعندما خلدت إيسا الأولى في النوم، استدارت حينئذٍ، وذهبت إلى الفراش.

في البداية لم أفهم شيئاً. لأنني اعتقدت أن وجود صديقات أمر جيد، وقالت أمي دائماً لفيرو وإيسا إن عليهما تعرُّفَ صديقات، وكلما زاد عددهن، كان ذلك أفضل.

لذلك في تلك الليلة سألت أخواتي.

- «اسمعي، فيرو. لديكن الكثير من الصديقات، صحيح»؟

- عدة من هنّ.

- «وهذا جيد، صحيح»؟

- امضِ يا هذا، بالطبع.

- «وأمي تحب أن يكون لديكن صديقات، صحيح»؟ هي دائماً تقول ذلك.

- يا لها من مسكينة كونها تثقل في ذلك قليلاً باستمرار.

- «هل من السيِّئ أن يكون للصبي صديقات»؟

- كلا طبعاً. كيف سيكون سيئاً؟ وأن تكون فظّاً معها هذا شيء آخر.

- «وهل من السيِّئ أنه كان لأبي صديقة»؟

صمتتا مدّة طويلة، وكان هناك صمت لدرجة أنني اعتقدت أن الذي كان قد أصبح أصمّ هو أنا. كررت السؤال مرة أخرى.

- «أخبرنني، هيا. هل من السيّئ إن كان لأبي صديقة»؟

سألتني فيرو كيف عرفت ذلك، وحذرتني ألّا يخطر ببالي التحدث بذلك مع أي كان، أخبرتني أنه إذا كنت قد فعلت ذلك كنت يهودياً، وأوضحت لي بغضب شديد أن جميع العالم يمكن أن يرتكب خطأً. أنهت فيرو الموضوع بعدة جمل قصيرة. بهذه الطريقة مقلدة الكبار عندما تصرفت كمتسلطة.

- «عدا أن ذلك كان منذ وقت طويل، لم يعد لديه صديقات. إيه، وبابا لن يرحل أبداً». قلت لكم: إلى النوم!

دارت فيرو في السرير إلى جانب الحائط.

ورفعت إيسا كتفيها.

لنرى ما إذا كان الهدف هو أنا، بعد كل شيء. أو على الأقل أحمق المنزل.

- «بابا ليس لديه صديقات. لم - يعد - لديه».

تذكرت عندما كانت تفوح من والدي رائحة العطر الناعم.

شعرت ببعض التعرق والحزن. جعلني أرغب في معانقة والدتي على الرغم من أنها كانت بالفعل الواحدة ليلاً. أردت أن أكون غاضباً جدّاً جدّاً، لكن لم يخرج مني شيء سوى القليل من الغضب. على الرغم من أنني، إذا أمعنت في التفكير، لا يمكنني إلا أن أشكر والدي: إذا لم يكن ذلك بسبب صديقة، من يعرف، ربما لم أكن لأتعرف قطُّ على الإميريتا.

كنت سأقول شيئاً لإيسا، التي نزلت معي في الفراش فقط في الاتجاه المعاكس: واضعة قدميها على الوسادة.

لكن إيسا كانت تتنفس بقوة.

* * *

أكثر من كوني ابن المعلمة، فإن والدتي دخّنت، وعملت بستانية مرتدية بنطلون الجينز، وأتينا من بلدة أخرى أو أن امرأة صماء تعتني بي، الآن أعتقد أن ما فعلته بي، كان الأمر الأكثر اختلافاً عن بقية هؤلاء الأولاد، هو ليس لأن والدي كانت لديه صديقة والآن لم تعد، بل لأنه كان يلعب معي، وآباؤهم لا يلعبون معهم أبداً.

لم يكن الأمر مجرد كرة قدم أو ورق الشدة أو البرجيس، بل كانت تعبئة يانصيب الكينيلا لفرق الدوري - الليغا (ربح - تعادل - خسارة) معاً باستخدام نرد وكوب، أو لعبة التاباس، التي كانت تلك اللعبة الغبية من عظام مفصل الضأن التي علمتنا إياها إميريتا، وتظاهرتُ بإعجابي بها.

المرة الأولى التي لعبنا فيها عظام المفصل كانت بعد عيد الميلاد الذي قضيناه معاً: طلبت السيدة إميريتا من العديد من النساء الاحتفاظ لها بالكاحل الأستراغالو (لقد بحثت عنه في القاموس) من رجلي الخروف الخلفيتين، ورسمت تلك العظام الخمس باللون الأصفر المخضر، أهدتهم لي كما لو كانوا ماساً، لم أجرؤ على إخبارها أنها تشبه عظام الغنمة.

قالت إنها كانت المرة الأولى التي نلعب فيها بعظام المفاصل. وكانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى السيرك.

وآخر مرة. لأنه بعد ما حدث، لم أرغب قطُّ في العودة.

على اللافتة التي لُصِقَتْ على باب الكازينو وقاعة البلدية، كان مكتوباً بأحرف ذهبية: «سيركوس. السيرك العالمي الكبير للإخوة موريتي». ووضع تحتها: «أفضل عرض دولي بوحوشه، والمهرجين الخمسة، والهنود راشقي السكاكين، رياضيي الأرجوحة الانتحاريين وعشر ألعاب أخرى» زُيّنَ كل شيء بصور الأفيال المدربة وأسود بفكين مفتوحين. وقت الحدث: الثامنة. مكان السيرك: هنغار دون إلاديو.

كان السؤال الأول الذي طرحته على نفسي ما الذي جعل عرضاً دولياً يفضل (مهما كان اسمه) ممارسة نشاطه في قرية حيث كانت أقصى إثارة لديها في متجر ما وراء البحار للسيد لويس هو البكالاو (سمك القد) النرويجي حيث كنا نضع المونغوليين في مغارات.

السؤال الثاني الذي طرحته على نفسي هو: أين وضع الإخوة موريتي؟ لا أقصد الحيوانات، بل ألعاب الملاهي العشر والهنود راشقي السكاكين. لأن هنغار دون إلاديو يتسع لثلاثة جرارات مع محاريثها، ولكن أن يتسع لسيرك عالمي اعتقدت أنه لا يمكن.

السؤال الثالث الذي طرحته على نفسي كان له علاقة بما كان مكتوباً في اللافتة بالقلم ذي الخط العريض: يا للشناعة الناعمة لهذا السرك الذي يجمع التبرعات.

ومع ذلك ذهبنا.

ذهبنا نحن الستة مثل الذي يسافر إلى الخارج ليرى ما لم يَرَهُ قطُّ: باصق- النار، آكل الرمل، نساء ملتحية، لا أعرف.

ذهبنا مشياً على الأقدام بالرغم من الثلج. ذهبت إميريتا متزينة وكأنها متوجهة للصلاة. تأبط أبي ذراع أمي من دون ترك لفافة الدخان من فمه، وكنت ألعب كمدخن بعود من الكرمة بين أصابعي.

كلما كنا نقترب، كان بإمكاني سماع صوت الموسيقا المرحة يزداد قوة وتذكرني بأرجوحة الخيل. عند الوصول، وانعكاس الضوء الخارجي، جعل لون وجوهنا من لون من ينظر إلى الشعلة. يجب أن تكون قد رأتني سعيداً جدّاً، لأن إميه أعطتني يدها بقوة أكبر، وكأنها شعرت بالموسيقا من الداخل. أو كأن موسيقاها كانت أنا.

مد مهرج قبعته، ففتح لنا ستارة من الخيش، معلقةً على مدخل الهنغار. وفجأة، هناك في الداخل، في قرية كان الوصول إليها عبر طريق مملوء بالحفر، كان السيرك العالمي الكبير للإخوة موريتي.

كان نصف الهنغار قد احتلته خشبة المسرح حيث نال القسم الخلفي. كنا كُثُراً بحيث لم نشعر بالبرد. كانت تفوح رائحة روث الحمار، الكراميل المحروق، كولونيا وبنزين. فكرت بأن كل ذلك كان ممزوجاً ليشكل رائحة السيرك. أنا، لم أكن قطّ في واحد منه.

جلس والداي في الخلف مع أخواتي، في الركن الفارغ الوحيد المكون من أربعة مقاعد التي بقيت، جلست السيدة إميريتا معي في طرف المسرح، ولكن في الصف الأول.

لم أكن قد تصورت قطّ حتى هذه الليلة إميريتا في حفلة راقصة. هذا ما كانت قد حدثتني به هي بأنها كانت تنتظر بجانب الأخريات حتى يسحبن للرقص الواحدة تلو الأخرى، مختارات مثل اختيار الماشية تقريباً. كانت الصبايا يلبسن أفضل ما عندهن من ثياب، ويجلسن على كرسي وقد ضمت ركبتيها إلى بعض بشدة، ووضعت حقيبتها فوقها، حتى يطلبها شاب للرقص خلال مقطع أغنية. هذا بأنه هناك بعض منهن

اللاتي لم يطلبهن أحد للرقص، لا في أغنية ولا في أخرى ولا في أمسية ولا في أخرى. لكن بالنسبة لها نعم. لأنها كانت جميلة، وكانت أبعاد جسمها متناسقةً جدّاً، وفي تلك السنوات كانت تحرك الأقدام ما إن تسمع الموسيقا.

حينئذ، كانا يجلسان معاً، مع ابتسامة كطفلة، نعم تخيلتها تنتظر أن تُسحب للرقص من قبل رامون أو من قبل أيّ كان. القرية مُحتفلة. الضحكات. الأضواء. وإميه مُمسكة من قبل شاب، مُسندة رأسها إلى كتفه، مصغية لهمسات في أُذُنها. قبل مدة طويلة من إقامة الإخوة موريتي للسيرك العالمي الكبير ومن قبل أن يصيب بيرراكاس يدها.

لقد شاهدنا: اختفاء المناديل، وحزر أوراق الشدة، سحب حمامة من قبعة فارغة، هز ثمانية صحون صينية بعضها مع بعض، بصق النار، شاهدنا: الغجريين الثلاثة متنكرين بعمائم يرشقون السكاكين في طاولة، حيث كانوا يربطون غجرياً آخر بالسلاسل، شاهدنا: كلبَيْنِ يقفزان في إطارات ملونة، سحب حبل كامل من إحدى الأذنين، شاهدنا: رياضيين يقومان بلعبة التوازنات من أعلى هنغار دون إلاديو، من على ارتفاع ستة أمتار من الأرض.

ولكن انتبه حتى طفل صغير مثلي: لوقوع صحن صيني، للمهرج الذي طلب تبرعات عند مدخل السيرك، ورياضي آخر يلعب لعبة التوازنات، وكهندي راشق السكاكين. لتلك المرأة ذات الخرزات البراقة التي كانت زوجة الساحر، وأُماً للبقية. كذلك انتبهنا لذلك الساحر الذي سحب الحبل من الأذن (عملت إشارات لإميريتا) كان له حيلة. لم نجد أثراً للوحوش.

كنت أدير رأسي من حين لآخر لأرى أبويَّ اللذين أبديا سرورهما، وكانا يحيّياني باليد، وكأن لهما زمنٌ طويلٌ لم يرياني فيه، وليس من خمس عشرة دقيقة.

- ومتابعة، عزيزي الجمهور، اللحظة الكبيرة المنتظرة من قبل الأطفال!

المهرجون الدوليون: راكي، ريكي، روكي، وروكي!

تصفيق قوي جدّاً لهم!

استقبلتهم القرية كاملة بصخب، وقفنا مع الأطفال على أقدامنا مصفقين حتى آذينا راحة كفنا، صوته دون ذاكرة وبلا أفكار خبيثة، دوى صوت التصفيق كانفجار، وكأنها المرة الأولى التي يجري التصفيق بها في العالم.

في اللحظة نفسها، فإني أدفع الدوريين اللذين أصرفهما في ساريتا كي تسمع إميه هذه الضجة إلى جانبي. ولو أنه فيما بعد، عندما ذهبت إلى السرير في تلك الليلة، توصلت بالتفكير إلى أنني كنت لأدفع أربع دورو لأن نذهب في اللحظة نفسها تماماً وليس بعد.

وقع المهرجون ألف مرة، أوقعوا عدة قوالب من الحلويات، رشوا ماء للوردة التي يحملونها في السترة، قدموا عرضاً أخفوا فيه قبعة واحد منهم لم يتمكن من العثور عليها ولا حتى بمساعدة الأطفال.

نظرت إميريتا إليّ، وضحكت، كان لها محفظة صغيرة فوق ساقيها، والركبتان ملتصقتان جدّاً.

- والآن أيها الجمهور العزيز، إن راكي، ريكي، روكي،... يطلبون مساعدة الجمهور!

نظر ريكي إليَّ ومد لي يده، لكني قلت له لا. أعتقد أنه كان ريكي لأنه حمل حرف على الجاكيت. ألح مرة أخرى وطأطأت رأسي، أخذوا ولدين بعيدين في الخلف. وهذا بالرغم من أن إميريتا حمستني لأخرج للرقص، ودفعتني بكوعها. لكني أنا، ومنذ موضوعي مع الملابس الداخلية النسائية الكروشيه، كان لدي شعور مبالغ فيه بأني رفيق مضحك.

- ومتابعة فإن المهرجين يحتاجون إلى مساعدة من بالغ سيتم اختياره بالحظ!

أطلق روكي قهقهة، عمل حركة بهلوانية، بلل أبا غريغوريو بالماء، تناول كرة، وأعطى ظهره للجمهور، وبعد أن صرخ: واحد، اثنان، ثلاث، قذفها نحو الخلف.

حين وقعت بأيدي إميريتا، صارت مسرورة جدّاً، كما لو أننا فزنا بشيء في السادسة، وفي النهاية، استحقت أن تكون مرتبة جدّاً. أضاءها ضوء أصفر صغير، من

دون تحريك مؤخرتها من المقعد، رفعت الكرة، واستدارت قليلاً لتنظر لأهلي وكأنها تقول الكرة معي. انفجر أهل القرية من الضحك، لكنها ضحكت ضحكات استعراضية. كما لو أننا جميعاً كنا نضحك أكثر، في تلك اللحظة سررت لأن إميه صماء.

نظرت نحو الخلف، انكمشت والدتي من ذراعيها، اتسم أبي بهدوء أعصابه. صفقت المائعتان وهما ينظران إلى المسرح. عندما استدرت، كانت بالفعل في الأعلى، رفعوا الموسيقا، وأحضروا ثلاثة كراسي.

لم أهتم كثيراً بآليات العرض الذي كان سيبدأ، لأنه كان لي الشعور نفسه الذي تشعر به عندما تنزل على دراجة دون فرامل. نظرت إلى الوراء. لقد عدت لأنظر إلى الأمام. وأمسكت بحقيبة السيدة إميريتا ووضعتها فوق، وضغطت بشدة على المقابض، وأعتقد حتى تجمعت الركبتان معاً.

أتذكر فقط إميه وهي جالسة معصوبة العينين بجوار الطفلين المتطوعين، وكان راكي، ريكي، ريكوي، روكي، روكي يدورون في دائرة حولهم الثلاثة، مُحدثين ضوضاء.

عندما عزفوا على الدف في أثناء مرورهم خلف الطفلين، اللذين كانا يقفزان لأعلى ولأسفل في مقاعدهم. عندما فعلوا ذلك خلف إميه، لم تتحرك حتى.

لقد أحب الناس ذلك كثيراً.

وبما أن الناس وجدوها مضحكة جدّاً، بدأ المهرجون في اصطيادها.

أولاً مع بعض الصحون الصغيرة، ثم مع زميرة، ثم فيما بعد مع ينكا، وأخيراً مع قدر يقرعونه بمغرفة وهي لم تتغير.

أعتقد أنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها الناس يبكون من الضحك.

يجب ألا تكون قد مرت أكثر من خمس دقائق.

عندئذ ظهر والدي ورائي، وهو يتقدم بجدية شديدة بين الكراسي، واقترب من نهاية المرحلة، أشار إلى الساحر الذي لعب دور رمي السكين الهندي وفنان أرجوحة،

وكان الآن مقدم مهرج. قال شيئاً له وهو يرفع إصبعه، مثل ما قلدنا دون إلاديو بالبذرة والثلم. قاطع المذيع عرض المهرج وهو يطلب جولة من التصفيق الصاخب، وظل والدي في أسفل المنصة لمساعدتها على النزول.

أعتقد أن السيدة إميريتا لم تفهم ما حدث إلا عندما فكوا المنديل الأسود عن عيونها، ونظرت نحو الناس، سقطت الابتسامة من فمها في ثانيتين وعبست قليلاً من العبوس لرؤيتهم يضحكون بهذه الطريقة.

عن طريق إزالة هذا المنديل، أزالوه عنا جميعاً قليلاً. عن أمي، أبي، أخواتي، وعني.

جلست إميه وأمسكت بالحقيبة، ووضعتها على ركبتيها، ثم كان هناك عرضٌ آخر من الألعاب السحرية، لم تعد تصفق مرة أخرى.

في طريق العودة إلى المنزل، كان الثلج لا يزال يتساقط. قال لنا أحدهم شيئاً يضحك من بعيد. سأل أبي ماذا ما قد فعل الأليتي. في الليل، أنا وإميه كنا نلعب البرجيس في صمت. لم أحسب ولا واحدة زيادة.

فكرت أنني قد تعلمت شيئاً مهماً، وأن له علاقة مع نظرة الآخر. والذين يسمعون، ولكن لا يرون. ومع والدي. ومع رياضيي الأرجوحة الذين يقولون إنهم انتحاريون، ولكن فيما بعد أصبحت كذبة.

في هذه التواريخ زيادة أو نقصان، أقلعت عن التغوط تحتي.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(هي وهو)

أنا أكتبه وأحفظه.

الإحراج الذي سأشعر به إذا قرأته.

الوقت الذي أمضيه قبل الكتابة أبحث في القاموس، أفكر في الأحرف. وأضع الكلمات هنا كما لو كانت أدوات مائدة. في الوقت نفسه. كما علمتني. تماماً.

وأنا أفكر فيك.

وأنت تؤلمني.

أحب أن أنظر إليك حين لا تدرك ذلك يا بني، حين تمطر بالخارج وأنت هناك مذهول بالنظر إلى هذا التلفزيون لأنني لا أعرف ما الذي يذيعه أو ما يقوله. كل شيء في مكانه وكما الله أمر. تأكل الخبز مع الشوكولاتة التي وضعتها لك.

أحب أن يكون هناك ضوء، وأنه ليس ليلاً. فليكن الجو بارداً جداً في الشارع لأنك هكذا تكون في المنزل، ولا أركض لأعرف أين أنت، تؤدي واجبك المدرسي وهو مغطى بثنايا غطاء الطاولة المتنقلة، مع الكنزة المعلقة لتجف بالقرب من الموقد. أو مساعدتي في تحميص الكستناء وبعد ذلك نأكلها بنفخها بين الأصابع. أو تصنع منفضة سجائر أخرى من الطين لوالدك، تقول لي: الآن لديك ستّ أو تدهن الصمغ على الكرتون الذي أمرتك الآنسة بتزيينه. تلك الروائح يا بني. تلك الروائح التي لم أشمها قط روائحك. في الوقت نفسه أنا أنظر إليك هكذا عندما لا تنظر إلي ولم تكن الآنسة مرسيدس موجودة. متى كنا بمفردنا ويجعلني ذلك أرفع رأسي عن العمل وأندهش: تماماً مثلك مع التلفاز، وأنا معك.

لديك ذات الشامتين فوق الشفة. فخداك نحيلان كالقضبان، الركبتان القذرتان معلقتان من الكرسي دون أن تلمس الأرض. الكنزة الزرقاء التي صنعتها لك بالسنارة. لقد كبرت كثيراً في هذا الوقت: ما لا يقل عن إصبع ونصف، والذي ميّزته بالقلم الرصاص على إطار باب غرفتك.

هل تريد المزيد من الشوكولاتة مع الخبز؟ بعض الماء؟ انتظر، فأنا أنهض.

وأما أنك كنت تهرب مني في البداية، وكنت ترفع لي يدي من شعرك حالما وضعتها لك فوقه، إيه. مثل الجرو. لأنك في البداية ذكرتني بتلك الكلاب الصغيرة في الشارع، لا تقل لي لا. لقد أخبرت أمك وبكل شيء، يا بني: (هذا الصبي يقترب مني مثل الكلاب الخائفة). كانت تلك طريقة فظة جداً لإخبار أمك أن ذلك سيكلفك بعض الشيء، أو ربما كانت قد أخطأت معي، كما كان قد قال الناس لها، أو ماذا أعرف من ماذا؟

لكن بعد ذلك مررت بالطوق مثل الغنم النائم في سبات. قالت لي الآنسة ألا أترك لك الحبل طويلاً، وقلت لها إنك صبي، وإن الصبيان الهادئين يصبحون حمقى. لذلك سمحت لك بالذهاب والركض، والتلطخ والخطى في البرك، وتصبح ضائعاً من الوحل ورمي الحجارة وسرقة العنب. بينما كنت أشاهدك من بعيد أو أنتظرك على المنحدر، كما طلبت مني وذراعاها على خاصرتيها.

بعد ذلك فإن إميريتا كانت ذاهبة إلى هناك إذا لم تأت أنت. رآني الناس أبحث عنك، وعلقوا على ذلك بالفعل، أنت تعرف. قالت لي الآنسة «وأنت اصفعيه عدة صفعات». لكنني لم أصفعك، ماذا كنت سأفعل لك.

كنت أبحث عنك في الحديقة، في المقبرة، في الحقل الأبيض، في المستودع، حيثما أشجار اللوز، وأبعد من ذلك، بالرغم من مرضي بالربو وتورم القدمين، أنا لم أصفعك وكل ذلك، بمجرد أن وجدتك، أخبرتك كم تستحق الصفع. لم أصفعك وفوق ذلك طبعت قبلة كبيرة على وجهك، قبلة لم تعد تنظفها في تلك المرحلة. لا تعرف أهمية تلك المرة التي لم تنظف نفسك بها بالنسبة إليّ، يا كوريته.

في البداية لم يعجبك أن تشاهد في القرية معي، يا بني. لا أعرف ما الذي أخبروك عني ومن كان. ولا بأي نوايا. ولا متى. يمكن للمرأة أن تكون صماء، ولكن غبية مثل إبريق، لا. لقد كنت لاحظت ذلك عندما رفعت لي يدي عن كتفك في الشارع، وعندما كنت تترك ثلاث خطوات تفصلك عني أمام الأصدقاء مع أنك كنت تمثل دور الحنون والباب مغلق. ونعم هذا إذا كنت تريد شيئاً.

الشائعات:

إنها مثل نزلة البرد يا بني. تبدأ بسعال من لا شيء، ويمكن أن تنتهي بالتهاب رئوي. تبدأ بمصيبة واحدة تليها أخرى، وينتهون بسان بينيتو الذي يعلقونه لك في القرية. إنها تجلب لك حظاً سيئاً، إذاً كن حريصاً من الصماء، إذا مشيت خلف الأطفال، إذا أكلتهم مع البطاطا.

لهذا السبب أنا بدينة جدّاً، لا تنزعج.

أعود للموضوع، الذي أحدثك به. كنت قد أخبرتك قبل ذلك بأنك تغيرت فيما بعد. لأنه لا شيء آخر، ولكني أنا صبورة لبعض الوقت. يمكنني أن أكون قاسية مثل المحراث. لكني صبورة. ماذا لو لم أكن كذلك ترى كيف كنت سأحتمل مع زوجي المتوفَّى رامون لمدة عشر سنوات.

يدك تلك بالنسبة إليَّ كانت كما عندما ينبت شيء من الأرض. الشيء نفسه مع الجذع الأخضر الذي لا تتوقعه في قصيص الزرع. عندما أعطيتها لي لأول مرة، عندما أعطيتها لي أنت دون أن أجبرك، كنت سعيدة وعصبية جدّاً أيضاً. حدث ذلك عند العودة إلى البيت بعد أن تركت صديقيك. كانت يدك دافئة يا بني مثل عش العصفور.

إنه دفء ما زلت أتذكره. لا يوجد شيء مثل دفء الابن. هذا الموقد الدافئ. إذا يوماً ما صار لديك واحداً، ستعرف، ولكنك ستعرفه بشكل أفضل إذا فقدته.

كان من الصعب عليك التحدث معي. وليس فقط لأنني كنت صماء، وأنك صرخت في وجهي كثيراً في البداية، كما لو كنت أفكر بهذه الطريقة سأتمكن من

الاستماع إليك بشكل أفضل. لكن لأن عالمك كان مختلفاً كثيراً وأصغر سناً وأنت لا تثق في كبار السن قليلاً، دعنا نَرَ.

هذا ما أدركته في الليلة الأولى. ربما يجب ألّا تخبر الآنسة مرسيدس، لكن عندما رأيت كيف كنت بشراسة تدق ثقوباً في تلك البطاقة البريدية بقلمك، عندما رأيت أنك ألقيت الهارمونيكا على الحائط، فذهلت وذهبت مع بامبلينا. في أي ساعة. كيف كانت؟ كيف نظرت إلي، لا أكثر أبداً.

كنت تقول لي إميه إذا لم يكن هناك أحد في المقدمة والسيدة إميريتا إذا كانت هناك الآنسة، يا بني.

أنت ترى كم أنا سخيفة: السيدة تستمر في الخروج بدلاً من والدتك، كما لو كانت والدتك هي أنا.

كأن هذه الحمقاء قد ولدتك وهي كانت معلمة مع ابنتين كنت سأوظفها لبيتي.

تعلمك الآنسة الكثير، لكنها تقول لي دائماً أنني أعلمك ما هو أكثر أهمية. أشياء أخرى، بالطبع. لأنني لا أعرف لغة الأرقام، ما الذي سأعرفه؟ ولا أعرف حتى رأس ماتشيتشاكو أنه موجود في بيسكايا. لا أعرف حتى جدول ضرب الأربعة. ولا ما هي فلقات البذور.

من أجمل شيء أتذكره هو عندما كنتم تصححون في الليل مع الآنسة. هي، وأوراق الامتحانات. وأنت وأخواتك، والإملاءات التي أعطيتموني إياها كثيراً إيماءً ونطقاً، كي أفهم. يا لدقة الإملاءات ومن طولها. وبأي كلمات؟

كيف كنت تضحك علي وكيف ضحكت أنا لرؤيتك هكذا. وكيف كانت تلك الضحكة شيئاً فشيئاً مثل العدوى، يا كوريته. عدوى طيبة. وكانت قد نظرت الآنسة من فوق نظارتها وكنا ننهار نحن الخمسة من شدة الضحك حتى أصابنا وجع في البطن، ولأنك كنت صرخت بأن السيدة إميريتا كانت قد كتبت هالر بحرف هاء ولام بدلاً من - أيير - أو بوفاندا بحرف فاء. وأنا لم أكن أعرف حتى إذا كان ذلك فيه الكثير من الوحشية أو القليل. لكنني كنت سعيدة جدّاً لأنني أعطيتك الكثير من المرح، يا بني.

هل انتهيت بالفعل؟ لماذا لا تأكل تفاحة فهي مفيدة جدّاً للأمعاء؟ ماذا يقول ذلك الرجل على التلفاز الذي يخرج مع بعض الذئاب، يا كوريته؟

أعلم أنك بالفعل أحببتني كثيراً، وأنك لم تهتم بما أخبروك عني، أظن أن والدتك كلمتك، وكان ذلك جيداً لك.

منذ ذلك الحين، كنت دائماً من تطلب يدي، كما لو كان ذلك ضرورياً بالنسبة لك، لتبحث عن منزلك.

لقد أخبرتني أنه إذا انتهى بكم الأمر بالذهاب إلى المدينة، فسوف تأخذني، وأن بابا قد يشتري لي جهازاً حتى أسمع، وأنك قد تعلمني أن ألعب لعبة لاس تشاباس، وكنت ستأخذني إلى مصارعة الثيران، وأنني - ترى ما هي الأفكار - سأعيش معك إلى ما بعد أن تكون متزوجاً وكل شيء.

كانت الآنسة تقول دائماً أنك بحاجة إليّ كثيراً، لكنك لا تستطيع ولا حتى تخيل ماذا فعلت أنت بي.

الذي فعلته لي من قبل.

وما ستفعله بعد.

أحب كتابته، تماماً كما أكتبه الآن. وكأن كل شيء يحدث الآن بالذات. أغمض عيني عدة مرات قبل أن أنام. وها أنت هناك. أحب أن أنظر إليك عندما لا تدرك ذلك يا بني. عندما تمطر على النافذة، وأنت هناك تشاهد التلفاز، بلهفة أكلت ما أعطيتك للتو، وكأن جوعك وجوعي جاءا من بعيد.

* * *

هل تريد المزيد؟ هل لديك وظائف كثيرة، يا ولدي؟ هل يعجبك أن نلعب بعد ذلك. إملاء مصلح آخر؟ لماذا شطبت لي كلمة هميغراسيون؟ ألا تكتب هكذا؟ هميغراسيون؟ ومودرنيداث؟ ما هي الغلطة التي ارتكبتها إميه؟ أهو حرف الميم في كلمة مودرنيداث؟ يا كوريته، ماذا أعطيت كل هذه الطعنات للكلمة؟

باله، بينغا، تيرا.

تعجبني رؤيتك هكذا. ذاهباً للعب البرجيس وأنت مسرور جدّاً واضعاً إياه أمامي مع تلك الابتسامة كالتي تظهرها عند فتح علبة هدية.

انتبه أن اللعب مع أربعة أشخاص هو أكثر تسلية من اللعب اثنين فقط. لا تغضب المائعتين أبداً عندما تخلصها فيشة، كما يحدث لك. ولا يخربان اللعبة عندما يخسران. لكني أفضل اللعب وحدي معك مثل ما يحدث لك، لأني أتظاهر بغباء القنينة وأتركك تجمع واحدة زيادة، وأتظاهر بأني لم أَرَك ترمي بالزهر ونلت فيه واحداً بل إنك نلت ستة للمرة الثالثة. ذاك الوقت هو لنا، يا ولدي.

يا للمرات التي فكرت بها عن الأمهات الأخريات وهن يلعبن مع أولادهن. وبأي الأشياء يلعبن وكيف يمكن لعب ذلك. وإذا كنت أنا قد عرفت أم لا.

تقول لي الآنسة مرسيدس إن علي تعليمك أن تخسر. ذلك ما تقوله لي، أنت ترى كم أنا الغبية الأكبر. أن المرة الأولى التي فهمت ذلك بعد عدة مرات من المحاولة، أدخلت إلي حتى الضحكة. أوي، خسارة. ما يجب أن نعلمه لغلام هو أن يربح أجره، ولكن لا أن يضيعه.

بالنسبة إليّ كان سيعجبني لو كانوا علموني أن أربح، ولكن عن أي ربح كان والداي يعلمانني إياه إذا لم يكن لديهم شيءٌ. لربح ماذا طالما أنهم كانوا خاسرين دائماً. إذا مات لك الزوج، تخسرين، تخسرين إذا مات لك الابن. إذا خرب لك المحصول تخسرين كل شيء. تخسرين إذا الجار اشتكى عليك للشرطة. إذا لم تذهبي إلى المدرسة تخسرين. وإذا كنت صماء، تخسرين أكثر. في الوقت نفسه. وهكذا في كل مرة تقوم أختاك المائعتان بإيصال ما تغشه في لعبة البرجيس للآنسة مرسيدس، وأمك كانت تأتيني بفكرة تعليمك أن تخسر، يا ولدي العزيز، عندئذ أقول لك، أنا كنت أجيبها إذا لم يربح الفرد عندما يكون طفلاً، متى يربح إذن؟ أن يستطيع طفل التسلق اسكالابراسه بحرف الباء أو بحرف ف وتمتلئ ركبتاه بالبثور، لكن عليه أن يضحك

وأخرج لعبة البرجيس، وربح على عجوز ورغبة في العيش دائماً. أنه فيما بعد تضعك الحياة في الكهف، أتذكر؟ كما حدث لجدة الغلام المنغولي.

* * *

تعجبني كثيراً عندما تشدني من المنديل - المريول بسبب انطفاء الضوء وقد تملكك الخوف، وعندما تمسكني من الظهر كي أحملك كالحصان إلى السرير، وعندما تضحك مني، وتحضر إليَّ الدفتر، وتصحح لي، وتكتب لي على ورقة الكلمة التي كتبتها خاطئة: أباندونو، أيير. عندما تسند إليَّ وجهك بيديك كي أراك وتحكي معي بالوجه، وتهجي ببطء شديد.

لا تعجبني أبداً عندما تغطي أذنيك، يا كوريته: أنت لا تعرف ما هو هذا، وعندما أبحث عنك في القرية وقد هبط الليل، ولا ألقاك، عندما تريد أن تأوي إلى الفراش معي، يا بني، وأمك تقول لا، عندما تعبثون في أرجاء المقبرة، ومهما تقول الآنسة، فإن الطفل يجب ألا يكون في المقبرة أبداً.

كنت قد قلت للآنسة مرسيدس التي هي أمك، إنها هي وحدها التي تخلق مشاكل متكررة. إن جميع الأطفال اليافعين يتغوطون تحتهم. وإن امرأة هي عجوز، تعرف الآن أن السعادة هي رائحة الغائط، وذلك الغسيل اليدوي حتى تنسلخ مفاصل الأصابع به، وهذا الخليط الذي يقلب البيت رأساً على عقب، وهذا المشي طوال اليوم بالصدر العاري، كما لو كانت بقرة لإميليو.

لأنه فيما بعد يأتي الصمت، ليس بالصدر العاري، ألم أقل لك هذا. بل هو الصمت الآخر، الذي هو الأسوأ. صمت الأشياء. وصمت الروائح. وصمت الأذواق. وصمت اللمسات. وهذا نعم هو مشكلة. لأن الابن هو ضجيج.

أنت لا تعرف، طبعاً. لكن المرة الأولى التي رأيتكم فيها أنتم الخمسة كنت أتنزه عبر الساحة يوم السبت. أشعرتموني بغيرة فظيعة لكنها جميلة، إيه. أبواك جميلان جدّاً وشابان جدّاً. أختاك، المائعتان، الملتصقتان جدّاً. وأنت هناك جاراً الكلب ذا الشعر

الأحمر والحزام، ولو أنه، الآن وأنا أفكر فيه، أن الذي كان يجرك هو فليكي. أنت ولا تتذكر، لنرى. ولكني ذهبت ماشية وكأني جعلت لقاءه عمداً حتى بسطة البطيخ حيث توقف والدك، الذي كان يضع نظارات شمسية خضراء، وحينئذ كانت له سوالف طويلة. اشترى والدك ثلاث بطيخات من الغجري، وقال لي ضاحكاً شيئاً لم أفهمه. رفعت الآنسة مرسيدس حاجبيها وفعلت الشيء نفسه. أظن أن الغجري في تلك اللحظة أخبركم بأنني صماء مثل الطوب، لأنه بعدئذ لم يعد الأمر كما كان.

كان عندما حييتكم بصباح الخير، انحنيت قليلاً لأسحب قطعة كراميل بالليمون من خلف أذني، عندئذ شاهدت شامتيك. فقلت لي لا برأسك، وفي النهاية أخذتها الشاطرة إيسا، التي هي أقل ميوعة من فيرو. عندما هممتم بالرحيل، استدرت ونظرت إلي. أنا أخرجت لك لساني وأنت أيضاً.

هكذا تعارفنا، يا ولدي.

في ذلك المساء دخلت سريري. في أي ساعة.

* * *

يعجبني التفكير كثيراً بالكلمات قبل كتابتها. والنظر في القاموس إذا احتاج الأمر. وفقط عندما أكون متأكدة، فإني أصوغ الكلمات. فقط أحياناً عندما تقلبون لي القاموس، وعليّ أن أكتب بوحشية، وهو مثل رمي النفس في بركة دون دولاب النجاة، وجعْل ملقطٍ في الأنف. قنبلة، يقال الآن مع خوف أكثر من سبع عجائز، أقول أنا.

رسائل والدك. تلك الكلمات، يا كوريته.

في البطاقة البريدية لوالدك كان يضع اسم مدريد بالأحرف الذهبية. إنه تمثال لسيدة تعتلي عربة يجرها أسدان. نفس الشيء لميغيل مع الثيران، بفارق واحد هو أن ميغيل ليس من حجر، يا لرقة ميغيل. قلت لك ذلك بهذه القسوة، والآنسة التي لا بدَّ أنها كانت تستمع، رفعت الرأس من بين الأوراق، وأطلقت ضحكة خفيفة التي في النهاية أزعجتني قليلاً.

أنا لا أعرف ما علمتك خلال جميع هذه السنوات التي كنت فيها معك، ولا إذا علمتك شيئاً: (والدتك، يا ولدي، تقول نعم، وإنه أكثر بكثير مما أعتقد). لكني نعم أعرف ما علمتني إياه أنت. ولا أحدثك من أن أيير تكتب دون حرف الهاء، ومع حرف الياء الإغريقية، يا كوريته العزيز، ولا عن فصل ليرون كاريتو. لا، لا.

بل عن أشياء عني.

تعجبني رؤيتك إلى هذا الجانب من النافذة بينما أنا أخيط على ضوء الظهيرة، تحفر في الأرض الطرية بيديك، إلى جانب أصدقائك، كما لو كنت كلياً يريد أن يخفي شيئاً. وبعد ذلك، عندما تمطر رزازاً، تدخل إلى البيت بأظافرك السوداء لتفتح البراد، وأنا أناديك يا خنزير، وأقول لك أن تغسل اليدين وإلا فلن يكون هناك وجبة العصرونية. يا لكمية القمل المصاب به، أيتها العذراء. تعال هنا، لأسخن الخل لأنزع عنك الصئبان.

بان اليوم الكناري الأخضر متيبساً، وفمه نحو الأعلى في جوف القفص. رفعته أنت من أحد جناحيه، ووضعته في علبة حذاء ذات لون رمادي، وحملته إلى الدفن مع الصبيان، هم مسرورون جدّاً وأنت فقط حزين قليلاً. لقد فتحت باب القفص كي يذهب الآخر.

قلت للآنسة مرسيدس ألّا تشاجرك، بحق الجحيم على ماذا ستوبخك، (هكذا قلت لها) إذا كانت هي لا تعير الطيور اهتماماً ولا بقدر فتات. في الصباح سألتني إذا كان الطائر الذي ذهب سيعيش؟

وأنا أجبتك ألّا، إنه من المؤكد أن القطط أكلته، أو يموت من البرد. عندئذ، وأنت حزين جدّاً، قلت لي إنك لا تفهمين ولماذا يذهب؟

بماذا تفكر، يا كوريته؟ لماذا لست هنالك مع أصدقائك هذه الأيام؟ قل ذلك لإميه.

علمت أنا قبلك بما يكفي.

قررت الآنسة مرسيدس ألّا نترك لكم شيئاً لأن كلتينا كنا نعرف ما سيحصل لك بعد ذلك. وحتى لم تعد هناك حلول أخرى، فمن الواضح طبعاً، وقد عرفته أنت. أعتقد أن ذلك حدث عندما شاهدت كثيراً من الصناديق الكرتونية الفارغة، وكانت والدتك تعلب موسوعة لاروس لحملها إلى مكان آخر. الحداثة، إيه.

لم تعد تترك لي ولا حتى أن أمشطك. اتركني اليوم كي تذهب أنيقاً.

جئتني اليوم، أعطيتني قبلةً مع عناق، أنت قلت شيئاً لم أفهمه، وجلست في السيارة أكثر حزناً من غضبان. بدلاً من أن تطلب المقعد الأوسط، كما اعتدت أن تفعل دائماً، طلبت مقعداً بجانب النافذة. ولم تعد تتحرك.

تبكي عندما تذهب من القرية في سيارة السيمكا، إنني أراك في السيارة باكياً.

وأنت لا تبكي بسبب فيسينته خيسوس، ولا بسبب غريغوريو، ولا بسبب سارة، ولا بسبب الإيرا التي لن تعود إليها، ولا بسبب طيور الكناري، ولا لأنك ذاهب أخيراً إلى المدينة.

بل لأنك تترك السيدة إميريتا في القرية.

لذلك تبكي في السيارة التي قام والدك للتو بتشغيل المحرك.

لأننا نحن الصم لا نقرأ الشفاه فقط. نعرف أيضاً قراءة الطرف الآخر، أبعد من مما وراء أشجار اللوز.

لا تعد.

أطلب منك ألّا تعود.

كم كان يعجبني الاستماع إليك تتحدث، أن أستطيع سماع نغمة صوتك، كلمة واحدة منك، وأنه كان من الممكن أن تكون تلك الكلمة ماما.

* * *

(هو وهي)

عاد أبي للذهاب أيام الآحاد ليلاً والعودة أيام الجمع.

أخيراً بدأت أمي تخرج من جسم الآنسة مرسيدس.

بدأت تبرز لفيرو ولإيسا كتل الأثداء.

تعب دون إلاديو من رفع صورة السيد ذي الشاربين (الجنرال فرانكو) في المدرسة، وبقيت صورة الملك.

احترق أحد البيوت كاملاً.

اشترى السيد لويس آلة جديدة، لتحريك ذراع قطع اللحوم الباردة، لمتجر ما وراء البحار.

سوفراخيو صارت خطيبة ماريو، أعني، ذا الشمعتين، الذي استبقى على الكنية بالرغم من أنه لم يعد له مخاطٌ.

أغلقت ساريتا تجارتها.

لقد سرقوا من البيرراكاس الدراجة الهوائية.

أصيب غريغوريو وفيسينته خيسوس بمرض الحصبة، أمر طبيعي جدّاً لأنهما يعملان كل شيء معاً.

دفنت إميريتا أمها، التي وصلت إلى عمر الخامسة والثمانين سنة.

وأنا، أخيراً، أصبحت أرتدي بنفسي السروال الداخلي.

يا للأشياء التي تمر في صيف. خاصة، حين يكون لك عمر وترفع رأسك قليلاً: أصبحت طفلاً في تموز وعدت كاوبوي في أيلول.

في ذلك الوقت، أنا كنت أرى بوضوح تام الفرق. من طرف، كنا الذين واصلنا مع فيسينتيكو، والملاجئ، والركب القذرة. ومن طرف آخر كانوا الذين يتقمصون دور المغرورين الصغار.

وصلت من العطلة الصيفية، وشاهدت نسيج كل واحد منهم، وفي النهاية تتعاون مع فريقك.

- باه، ذلك الآن يظن نفسه مغروراً صغيراً.

لكي تكون مغروراً صغيراً كان عليك إظهار الزغب فوق الشفة، والامتناع عن حمل وجبة، وعدم الرغبة بلعب المشاجرات، وقول الكلمات النابية أكثر، وضرب الأصغر سناً من حين لآخر، كأنك تقول انتبه.

تصبح مغروراً دون أن تنتبه تقريباً. في شهرين أو ثلاثة أشهر. بالسرعة نفسها التي ظهرت فيها كتل الثديين للمائعتين.

كان المغرورون يضايقونك. كثيراً. ولكنك تعد الأيام لترى متى تصبح مغروراً أنت.

المرة الأولى التي رأتني فيها إميريتا واقفاً على رؤوس أصابعي وأنا أنظر في المرآة لأرى ما إذا ظهر لي الزغب، وبعد ذلك أرفع ذراعي لأرى تحت الإبط، قالت لي إلى ماذا أنظر طويلاً. وإذا ما كنت أبحث عن عش السنونو هناك في الأسفل. أجبتها أنني لا أبحث عن السنونو، بل كنت أبحث عن الشعر ومتى سينبت.

- امضِ، يا كوريته. العيش بعمر الغلمان هو جيد جدّاً. يا له من هوس ذلك سيطر عليكم مع نمو أختيك وأنت.

النمو كان له مزاياه. مثلاً: كنت تأمر أكثر قليلاً، كنت ترمي نفسك واقفاً في كرة القدم، كانوا يضعون لك بيضتين مقليتين بدلاً من بيضة واحدة، أو كنت تستطيع الذهاب للصيد مع الرجال.

ولكنني أتخيل أيضاً المساوئ. مهام أكثر من الآنسة مرسيدس، بمعنى، من والدتي. قطع الحطب والمساعدة في البستان. واجب التدخين. فقداني لرواية اورزوي

(تشبه طرزان وماوكلي). والأسوأ من ذلك أنه حتى لم يعد بإمكاني أن أستلقي مع والدي في السرير أيام السبت صباحاً. وشيء آخر أكثر: من المؤكد أنه في غرفة النوم لم تعد تقرأ لي دعاء الزوايا الأربع ولا حتى الرب.

شيئاً فشيئاً، تمثل الوضع في أنني بدأت أتخيل نفسي مغروراً صغيراً.

كان يعجبني أن أتخيل نفسي دون بنطلون قصير، ودون كنزة ذات العنق المطوي، مع إحدى القصات في اليد من الكم، أن أفرك بفرشاة حلاقة الذقن العائدة لوالدي حتى صارت لي ذقن بيضاء من الرغوة، وأن أعمل بعدها كلو - كلو - كلو - كلو عندما أهز موس الحلاقة في الماء.

ما كان يعجبني أقل: رؤية ما فعلت ببدلة مصارع الثيران التي كانت خاطتها لي إميريتا. ذلك شيء آخر: لم يكن هناك أي مغرور يمشي مع سيدة صماء خلفه.

* * *

كان المغرورون كثُراً، لكن كان توماس مغروري المفضل، وهو صبي نصف قائد، ويكبرني ببضعة أعوام، ويعيش في بيوت خارج القرية، لم يكن يتحدث بزيادة، كان ماهراً جدّاً في الرياضيات، تبناني لصفه نصف تبنٍّ.

المرة الأولى التي تحدثنا فيها كانت عند الخزان.

كنا نلعب لعبة الفدية، ونركض مثل الماعز، وهم جالسون فوق عدد من القرميد المتروك. مضى وقت قصير على ما كانت إميريتا قد علمتني أن أعمل البوالين من اللبان، وكنت أتمرن كل اليوم، ولم يبدأ الموضوع جيداً.

- إيه، أنت، أيها المدعوم.

- من؟ أنا؟

- نعم، أنت.

- أنا لست مدعوماً.

- آه، لا؟ لكنك ابن الآنسة.

- وما في ذلك؟

- فإذن هذا هو امتلاك واسطة (مدعوم)، أيها الشاب.

- هراوة لك.

- هراوة هي التي سأضربك بها إذا لم تأتِ. امعنِ، تعال، أيها المدعوم.

وذهبت، لأرى ماذا كان ليفعل إذا لم آت.

ابتسم لي، وبعثر لي شعر رأسي، وسألني إذا أعطيته لباناً لإخفاء رائحة الفم، وقد أعطيته اللبان. عمل الشاب بالوناً كبيراً جدّاً حتى فقع، والتصق اللبان بالغرة. جاءتني الضحكة، وله أيضاً.

- حدث لي ذلك لأني بارع، يا مدعوم.

أخبرته باسمي، لكنه لم يكترث.

- أترغب أيها المدعوم؟

قدم لي جزءاً من زهرة دوارة الشمس العملاقة، التي قطفها من هنالك، اقتطعت منها جزءاً كبيراً، وجلست آكل البذر معه. وخلال الوقت الذي استغرقني في أكل البذر، تحدثنا أنا وتوماس عن الآنسة مرسيدس، سيارة أمي، والمدرسة، وكرة القدم، وأبي إذا كان من كاريو، كما كانوا يقولون، والآبار التي تحوي ضفادع، وساريتا، وحريق الصيف.

ومنذ ذلك الوقت، أصبحنا صديقين جيدين.

إذا نظمنا مباراة لكرة القدم، كان يطلبني لفريقه دائماً، وحتى إنه يمرر لي الكرة. في رحلات الحقل التي كانت تنظمها أمي عندما يكون الطقس صحواً، كان يعطيني قبعة من الخلف، ويقول لي مدعوم، لكنه بعد ذلك يمد لي يده من فوق الكتف، وكان يقص عليّ أشياء تجعلني أضحك. أصبح يدافع عني في المنازعات. وفي أكثر من مرة، وإذا كان قد رآني مخنوقاً في وقت العودة، كان يأخذني على المقعد الخلفي لدراجته إلى المنزل. لكل هذه الأسباب كان شخصاً خاصّاً. بالنسبة إليّ: هو الشخص الوحيد الذي، إذا طلب مني قطعة من الشطيرة، لم أضع أصابعي لتحديدها.

هناك حيث لم يصل والدي، كانت والدتي.

هناك حيث لم تصل أمي، كانت إميريتا.

هناك حيث لم تصل إميريتا، كان توماس.

تعتقد أنك تعرف شخصاً ما لأنه سمح لك بتنفيذ ركلة حرة على حافة المنطقة، ولكن هيهات. روت لي إميه قصة توماس ذات ليلة، بعد رؤيتي عدة مرات بعد الظهر أتحدث معه.

كانت قصة حزينة ومبتذلة وهي على دراية بها كثيراً لأن توماس، ووالديه، وأخويه كانوا جيرانها في ذلك المنزل المبني من الطوب اللبني الذي ملكته عائلة إميريتا في الضواحي، إنه مغلقاً بالكلس والحجارة، وأريد أن أقول. لأنك تلاحظ ذلك بمجرد دخولك المنزل، وكانت تلك المرة الوحيدة التي اصطحبتني فيها السيدة إميريتا إلى منزلها، ورائحته كرائحة البيت المغلق المملوء بالأسرار.

كانت القصة حزينة لأنها لم تنته بشكل جيد ومبتذلة، لأنه في القرى الفقيرة كان هناك الكثير من الحزن.

روت لي:

كان والد توماس يكسب قوت يومه بالعمل في الحقول، وهو معروفٌ بالعمل كالحيوان. لكن هذا لم يكن كافياً لإعالة أسرة لديها ثلاثة أطفال. ذات يوم، عندما ذهب لجمع فضلات الحصادين، قرع جرس الكنيسة معلناً الساعة الخامسة بعد الظهر، ومع ذلك لم يكن قد عاد. حينئذ، أرسلته والدته مع أخيه الأكبر إلى طريق الكروم ليروا ما قد حدث مع والده. وجده توماس نفسه، واقعاً في وضعية مستحيلة، وبدا بصورة فزاعة الطيور المرمية على الأرض. حاولا إنعاشه بصفعه، وألقوا به على ظهورهم. لكنه كان متصلباً، فجروه قدر استطاعتهم إلى القرية، ودخلا المنزل وهما يتصببان عرقاً، ويلهثان، وأودعاه في الداخل بمجرد عبوره العتبة، كما لو كان غريقاً، أحضراه إلى شط الأمان. كان لدى والده خيط أبيض من اللعاب يتدلى من فمه، وعيناه فارغتين. عندها وفي تلك اللحظة فهم توماس أن طفولته قد انتهت.

مرت خمس سنوات على ذلك الفصل. ساعد الإخوة الثلاثة الأم على غسله، وإطعامه، وتغيير وضعيته، ونقله إلى كرسي خلف ستارة شبكية، للحصول على القليل من الشمس. لأن الأب لا يزال على حاله بالرغم من مرور الأيام، مستلقياً مثل كيس على السرير، أو مصطفاً خلف النافذة. لم يعرفوا ما إذا كان يفهمهم، لكنه نظر إليهم بعيون واسعة.

أخافتني تلك القصة أكثر مما آلمتني.

الخوف حثك على التغوط لأنه شيء عندما تأتي الوحوش لزيارتك من وقت لآخر بسبب التلفاز، أو المجلة المصورة للكبار، وشيء آخر هو أن الوحش موجود دائماً في غرفة الجلوس، تجده بمجرد أن تفتح الباب، إن كان الطقس بارداً أو حاراً. لا يمكنك أن تدر ظهرك له. ما هو مخيف (ومثير للاشمئزاز) ليس لأنك تُركت بدون أب، ولكن لأن والدك هناك بهذه الحالة.

- «ومن حدثك عن ذلك»؟ سألني فيسنته خيسوس.

- إنها السيدة إميريتا، التي كانت جارته قبل وصولنا أنا وأمي إلى القرية.

وأضاف غريغوريو لهذا السبب لم يذهب شقيقه الأكبر إلى المدرسة بالطبع».

- لا بدَّ أن يكون بذلك السبب.

- وقال فيسينته خيسوس الحقيقة هي أنه عندما يتعلق الأمر بالوالدين، إذا كان حظك سيئاً، فقد تدهورت في حياتك».

- نعم. لكن متدهور، متدهور!

- تظاهرت بأني لم أسمع.

- سأل غريجوريو: «هل يمكنك تنظيف مؤخرة والدك»؟

- لوالدي، ها أنا أقول لك أنا لا.

- ولا أنا.

- ولا أنا.

في بعض الأحيان نبدأ في الحديث عما نرغب أو لا نرغب في القيام به لإنقاذ حياة والدنا أو والدتنا أو من كان في الأسرة. من الاضطرار إلى شرب البول (كان يتحدث غريغوريو في علم الآخرة)، أو تنظيف برازه.

وبعد ذلك، بعد الضحك مدة طويلة، التزمنا دقيقة صمت واحترام لتوماس، الذي ربما ظهر من بعيد مع دراجته، تفوح منه رائحة صابون لاغارتو وتبغ، وناداني بصوت عال.

- إيه، أنت، أيها المدعوم، هل أحضرت علكة البالون؟

* * *

يقول الكبار إننا نكبر بنمو سريع وهذا صحيح: في ذلك الخريف، كان على إميريتا فك الجزء السفلي من البنطال مرتين.

- كانت تقول لأمي: «لقد حقق هذا الصبي طفرة نمو أخرى».

كانت والدتي تومئ برأسها، وتنظر إليّ حالمة من فوق نظارتها، ثم تعض شفتها السفلية، مع قليل من الابتسامة.

لكنهم أشاروا إلى الطفرات الجسدية وليس إلى الطفرات الأخرى.

لم ير أحد الطفرات الأخرى، لقد شعرت بها في داخلك، لا علاقة لها بالساقين أو الذراعين، ولكن مع العالم الخارجي.

لقد نلت طفرات النمو الأخرى: عندما تركك والدك لفترة من الوقت، عندما رأيت أن المنغوليين موجودون وحتى إنهم يغرقون، عندما تعلم أنه في كل سنتين أو ثلاث سنوات ستحصل على أفضل صديق جديد بحياتك، عندما جعلت الصُمَ يفهمون.

وأيضاً عندما لمحت بأم عينيك العالم مقلوباً. كيف سار ذلك اليوم؟ كان الأخ الأصغر لتوماس يرتدي معطفاً بنياً منقوشاً - والذي صغر على قياسي منذ فترة طويلة.

رأيته يوم السبت مع والدي، شقيق توماس الصغير ممسكاً بيد أمه، وحدقت فيه كأنني رأيت شبحاً.

- «هذه ملابسي».

- كانت.

- إنها لي.

- بالطبع. كانت لك - أكد والدي - لم تعد تناسبك، وهناك عائلات من القرية هم يحتاجون إليها. لهذا نعطيهم ملابسكم.

استغل والدي حقيقة أن والدتي لم تكن هناك ليجعل من نفسه شيوعيّاً قليلاً، ولقد أدركت ذلك. كانت طريقته للانتقام في تلك المناسبات النادرة عندما أخذتني إلى الصلاة في الكنيسة.

لذا، تحدث معي عن العدالة الاجتماعية ومدى سوء الديكتاتورية، أخبرني بذلك كان عليك أن تصدق أكثر من أي شخص آخر، وأن أُمية السيدة إميريتا، على سبيل المثال، كانت ثمرة ظلم بلد جرّ عاراً وتخلفاً وثرثرة.

كل هذا جرى بسبب المعطف المنقوش، وفي أي وقت!

كان ذلك عندما انتهز الفرصة ليكرر لي أنني وأخواتي كنا ثلاثة حظوظ.

وشدد على أن الأول كان الحظ في أننا ولدنا في الجانب الآمن من العالم، وهو المكان الذي نوجد فيه الآن حيث لم تكن هناك حروب أو أوبئة أو مجاعات.

ثاني حظوظنا هو أن نكون في الجانب الآمن من بلدنا: أن نكون جزءاً من تلك إسبانيا، ولدينا راتبين، وإجازات مدفوعة وأشياء من هذا القبيل.

كان الحظ الثالث مثل حلقة بصل داخل الحلقة السابقة: حظنا في عائلتنا، وقال إنه على الرغم من توفر الموارد لها، لم تنسَ أولئك الذين لم تتوفر لهم تلك الموارد. في الختام، لم ننس أولئك الذين لم يحالفهم الحظ رقم واحد أو رقم الحظ اثنان.

لقد فهمت تماماً ما يريد أن يقوله لي، لكن كانت هناك أشياء لم يشرحها لي كنا محظوظين كما ادعى. الأشياء التي كنت أعرفها، والتي أخبروني بها أو التي استنتجتها. يجب أن يكون لهذا السبب (لأننا كنا على صهوة المهرة) لأننا لم نربح أبداً في لعبة الكينيلا التي استمرينا في لعبها كل أسبوع.

- «وإذا كنا محظوظين جدّاً، فلماذا لست هنا خلال أيام الأسبوع»؟ أو كيف لم تستعد إميريتا سمعها؟ أو لماذا سينتهي العالم كما يقول الرجل؟ ضحك والدي. وناداني يا محظوظ بعيون واسعة. وركلني في المؤخرة بساق متغيرة.

* * *

وهكذا كانت إميريتا نتيجة ظلم بلد جرّ عاراً وتخلفاً.

كانت بلابلابا كلمة ثرثرة قيلت فقط في القصص المصورة والكوميديا، ولكن ليس في الواقع. الشيء نفسه حيث لم يقال بيت صغير، أو دعوة ركلة، أو وغد، أو أشعة وشرارات، أو فلين، أو سلال، أو صاعقة، أو قواقع.

لم تقل إميريتا قواقع. لكنها أكلتها مع أبي وإيسا. نحن البقية كانت تلك المخاطيات تقززنا بشكل رهيب.

عند رؤيتهم يأكلونها بشغف شديد، اعتقد المرء أن هذه هي المخاطيات الجيدة لأنه ثمة هناك المخاطيات السيئة. أو بشكل أفضل: الأشخاص الذين لديهم ثرثرة بصيغة المفرد، وليس الجمع. الثرثرة التي تخيلتها ككلمة واحدة ولكن في أفواه الكثيرين. كانت تنقط مثل المتصيدين. كان بسبب ما قالوه عن إميه في متجر ما وراء البحار والكازينو. عند الخروج من الكنيسة في الملعب.

اعتاد والدي أن يقول: «في هذه القرية يوجد الكثير من الثرثرة». ثم يضع الملعقة في إناء الحلزون مع القديد، أخذ واحدة، وأزال جسم الرخويات بعود الأسنان وامتص الصدف.

قرأت إميريتا شفتي والدي، وكيف يلعقها.

ثم ابتسمت بسعادة نقية.

أنا لم أكن أفهم شيئاً.

* * *

«تسع وثلاثون من الحمى». أأنت جيد. تعال، اشرب بعض الماء.

«لا أشعر برغبة في ذلك».

- أتريد شيئاً؟

- أريد أن أتبول.

عندما أصبت بحمى شديدة، لم أبالِ بأي شيء. والداي. الحظ الذي كان لدينا. حجم القضيب. علامات المدرسة. الأخبار السياسية التي قدموها بالتلفاز. الله. أن أكون طبيباً بيطرياً أو مصارع ثيران. المستقبل.

عندما ارتفعت الحمى كثيرًا، لم يكن هناك سواي في العالم.

بلغت حرارتك تسع وثلاثون درجة من الحمى في سرير أطفال مملوء بمجلات القصص المصورة المتناثرة، بينما أخواتك في المدرسة. إنه بلد لا تريد مغادرته. أرض تحبها وتريد العودة إليها. نوع من القوارب به مرتبة وأربعة مجاذف تنقلك إلى أسفل النهر، ببطء شديد، تحت رحمة التيار، في المياه الهادئة وفي يوم مشمس، ومعه تذهب لاستكشاف الأماكن التي لا تعرفها أو التي لم تتوقف للنظر فيها.

لأول مرة، اكتشفت كوناً جديداً: على سبيل المثال، كيف كانت الحياة يوم الثلاثاء يوميّاً، ظهراً، خارج المدرسة، أو إنك اكتشفت أن هناك حياة فقط.

شاهدت كل شيء من النافذة المجاورة للسرير، الشيء السيَّئ في تلك النافذة أنها كانت تدخل البرد قليلاً. الشيء الجيد هو أن شيئاً من العالم قد دخل. شاهدت من النافذة:

جرار مع مقطورة.

امرأتان قادمتان من التسوق.

بائع متجول.

صوت فأس تقطع الخشب.

وما من طفل واحد لوحده.

لا بدَّ أن الوجود في بطن الأم يشبه الإصابة بالحمى. ساخناً. يطوف. تغذيه. بسلام. استدار. كما هو الحال في عالم آخر، ولكن داخل هذا العالم.

إذا تعبت من الرسوم الهزلية والنظر من النافذة، كنت أنظر إلى السقف أو في الخزانة.

في حالات محمومة رأيت أشياء. من كثرة النظر إلى البقعة، تغير شكلها أو لونها. من تكرار كلمة كثيراً فقدت معناها. التحديث، والتحديث، والتحديث... تفوح من المنزل رائحة الملفوف المطبوخ. يمكنك سماع الفقاعات البطيئة للخضروات على النار. ووصول شاحذ السكاكين.

طلبت مني إميريتا إغلاق مجلات القصص المصورة، والتعرق مرة واحدة وإلى الأبد. وكأنه علامة قاطعة على مغادرة شياطين الجسد.

- «هل أنزل لك الستارة»؟

- لا.

- «عليك أن تتعرق».

- الأمر أنني لا أتعرق يا إميه.

لكن ولا من أجل أي شيء في العالم، فلن أرمي تلك المجلات المصورة، ولا المجلات الهزلية، ولا القصص.

(بدت ولادة الكنغر مغامرة رائعة. وبالفعل، كانت الأم خلال ثلاثين يوماً من الحمل، لا تزال في منتصف الحمل، وهي ترقد. حينذاك، مع رأسها بالداخل،

تنظّف الجيب بعناية. من جانبه، يبحث الكنغر الجرابي الذي لا يزن أكثر من مئة غرام عند الولادة بشكل عشوائي في شعر الحبل السري في جيب أمه. هناك يجد بلا شك ثديي الأم التي يتشبث بهما، حتى بعد مئتي يوم يغادر الجرابي ويولد بشكل نهائي. ومع نموه، يخرج قليلاً إلى الخارج، لكنه يعود على الفور إلى الجيب حيث يقضي معظم وقته).

أول شيء فعلته والدتي بمجرد عودتها من المدرسة هو القدوم لرؤيتي باكراً جدّاً. شعرت بالمفتاح في الباب، وخفضت الستارة، وتظاهرت بالنوم. جاءت ببطء شديد، مشيت في صمت، وضعت أمي شفتيها على جبهتي وأنا كأمير بعث مع القبلة. فتح عينيه.

- قالوا إنه حين تصاب بالحمى، فإنك تصاب بطفرة في النمو.

- سأفهم قريباً أنه مع طفرات نمو معينة، ستبدأ الحمى.

- أربعون. لقد ارتفعت حرارتك إلى الأربعين. يا أم الرب.

* * *

في إحدى عطلات نهاية الأسبوع عندما كان الطقس لطيفاً، عاد الناس من السيرك. وفي هذه المناسبة، أقاموا في ساحة القرية عرضاً ضم بالإضافة إلى المهرجين المعتادين والسحرة والمتوازنين على حبل مشدود، ضاماً الدمى والمنوم المغناطيسي، هذه المرة فقط لم نذهب. وهذا على الرغم من السيدة إميريتا أصرت على قيامنا نحن الستة بذلك معاً مرة أخرى.

- «هل هم نفسهم ذوو المرة السابقة»؟ سألت إميه.

- «إنهم آخرون» أجابت والدتي.

- «حسناً، هذا سبب أكبر، آنسة مرسيدس». ألن تأخذي الأولاد؟

- انظري يا سيدة إميريتا: من يريد أن يضحك فدعيه يجد قردته.

وضحكتا كلتاهما، ثم تحدثا لا أعرف ماذا عن القرى، وحاولت والدتي التوضيح لها شيء عن الإحساس بالسخرية وأنا في الليل بعد الإملاء طلبت من إميه في السرير أن تقنع والدتي. وفي صباح اليوم التالي كررت ذلك، وفي اليوم الذي تلاه، وكذلك اليوم الذي بعده، عادت السيدة إميريتا إلى والدتي بفكرة الذهاب، وأجابتها لا، لا، وكانت والدتي هادئة جدّاً ونحن بقينا بلا سيرك.

في غياب شقائق النعمان أو فرس البحر في متجر ما وراء البحار، كانت رؤية السيرك العالمي واحدة من هذه الأشياء المثيرة التي أتت إلى القرية، وجعلتك تذهب إليها كالحمى. لقد ذكروني قليلاً برسومات الغزاة الإسبان الذين وصلوا إلى أمريكا والتي كانت موجودة في الكتب المدرسية، أو لهؤلاء بائعي المشاريب الكريهة الذين ظهروا في أفلام الغرب الأمريكي.

لم نذهب إلى السيرك بالطبع. لكننا، على الأقل، سمعنا الموسيقا والضحك من بعيد. أما إميه فلم تسمع ولا حتى ذاك.

ولكن حيث ذهبنا نعم، كان للتصويت، وهو ما شرحه لي والدي في يوم المعطف المنقوش. كان أيضاً شيئاً غريباً جدّاً بالنسبة لإسبانيا وقد كلف تحقيقه الكثير. أكثر من أسماك أعماق البحار التي رأيتها فقط في ألبوم (الحياة واللون).

- هل التصويت في القرية فقط؟ سألتُ غريجوريو.

- يا رجل، لا تكن غبياً، أقول ذلك في البلدة المجاورة أيضاً، لذلك هم الضعف عددياً.

- أعتقد أنه سيصوت في القرية فقط، إيه.

كان لا بدَّ من معرفة الشيء مسبقاً، لأنني أتذكر ذلك في ذلك اليوم تخطت الآنسة مرسيدس الإجراء المعتاد - تلك الطقوس التي تبدأ بجرد لائحة الأسماء على طاولتها، وتنتهي ترانيم و«زهور لمريم، وهي أمنا» - وأخبرتنا أنها تريد التحدث إلينا جميعاً بشيء مهم جميعاً.

نهضت من مقعدها، ومشت حول الطاولة، وجلست على حافتها أمامنا وابتسمت لنا قبل البدء، كانت تزيل لنا الشكوك.

- «حسناً، يا أولاد، ستفتح المدرسة خلال أحدين مثل أي يوم آخر». لكن لن يكون الأمر لإعطاء الدروس، ولكن لكي يأتي سكان القرية للتصويت الذي هو اختيار من سيحكم البلد. كل الأصوات تساوي القيمة نفسها: صوت من يملك المال يساوي صوت الذي لا يملك المال، صوت العمدة يساوي صوت والدتك... أنا أشجعكم على الحضور يوم الأحد مع آبائكم لكي تشاهدوا ذلك. وأكلفكم أيضاً بمهمة: أن تقدموا لي تقريراً عما تعتقدون أن التصويت يعنيه لبلد ما.

في ذلك الصباح تحدثت إلينا عن الديمقراطية والمساواة بين الرجل والمرأة، وعن الكاوديو (القائد)، (قالت كاوديو، على الرغم من أنه لم يكن يعجبها على الإطلاق)، وتحدثت عن الأحزاب السياسية وعن الحرية. كمن يتحدث عن شيء يجب الاهتمام به.

- «تخيلوا أنكم لم تستطيعوا الاختيار أبداً». أنكم لم تتمكنوا من انتخاب رئيس للبلاد، ولا حتى اختيار ما تقرؤونه، ولا اجتماعك بمجموعة من الأصدقاء الذين يفكرون مثلكم، ولا الخروج إلى الشارع للشكوى من شيء، هل تتخيلون؟

- ذهبت إلى خريطة العالم المصنوعة من الورق المقوى التي كانت معلقة على الحائط.

- حسناً، يمكن لهذا البلد أن يختار لأنه يتمتع بالديمقراطية. وهذا البلد أيضاً. وهذا البلد الآخر أيضاً. وذاك البلد أيضاً. هل تعرفون شيئاً أيها الفتيان؟ هذه البلدان بالتحديد هي الأكثر تطوراً في العالم... والآن في إسبانيا أصبح الاختيار ممكناً.

يتذكر بعض كبار السن أنه عندما مات فرانكو منذ وقت ليس ببعيد، كانوا قد أُعطوا إجازة لمدة ثلاثة أيام، وسألوا والدتي عما إذا كانوا الآن مع هذه الانتخابات لن يبالوا بها أيضاً.

هي ابتسمت وجعلتنا نطلق القهقهة تلو القهقهة، كما لو كنا وابلاً من قصاصات ورق ملونة، أو بعض الألعاب النارية من بيرراكاس، لأنه عندما ابتسمت والدتي، وجلست على حافة الطاولة، وخرجت عن الروتين اليومي وكتاب دار نشر إدلبيبس، عندئذ أقول: كانت والدتي رائعة جدّاً.

- يا آنسة، أيصوتون أيضاً في القرى الأخرى؟

- «نعم أيضاً، يا غريجوريو».

- أترى؟

واصلت الآنسة مرسيدس إزالة الشكوك. عندما ذكرت ذلك عن حق الاقتراع العام، نظرنا جميعاً إلى سوفراخيو (حق الاقتراع)، التي تحولت إلى اللون الأحمر كالطماطم، وانفجرنا من الضحك.

- حق الاقتراع العام! - صرخنا - سوفراخيو أصبحت عامة!

قال أحدهم ونستمر في المزاح والأسئلة، لأن ذلك كان ديمقراطية. وحتى إلاديتو، ابن دون إلاديو، أطلق مزحة قوية جدّاً عن والده لا أتذكرها حتى.

لأنه في ذلك العمر لم نكن نعرف حقاً ما إذا كان بإمكاننا العيش دون ديمقراطية، ولكن ما كان لدينا واضحاً، أنه لا يمكن العيش دون ضحك.

تحدثت والدتي إلينا كثيراً في ذلك الصباح، وأمضت الكثير من الوقت في إيضاحها لنا وكأنها حفلة، وبعد أسبوعين، ذهب الكثير منا إلى العرض كشخص سيشاهد شيئاً ما أفضل من السيرك العالمي. ومجاناً.

لقد حضرتُ بيد إميه، لأن والدي كان قد بقي في عطلة نهاية الأسبوع في مدريد للتصويت. وكان على والدتي أن تكون في المدرسة طوال اليوم لتعليم الناس كيفية القيام بذلك.

ومما رأيته، كان الأمر في منتصف الطريق بين مهرجان الحج وكرسي الاعتراف. مهرجان الحج للناس من جميع الأنواع التي كانت تظهر، والتي لم أرها في أي مكان من قبل لجدة المنغولي أو لميغيل ذي الثيران أمام الكاهن على نسق واحد.

وكرسي الاعتراف في تلك الغرفة (غرفة الاقتراع) التي بها ستائر كان الجيران يدخلون إليها، واحداً تلو الآخر، ويتهامسون كأنهم يعترفون بالمعاصي التي ارتكبوها.

أعطى دون إلاديو لنفسه جواً من الوقار، وهو يمشي ذهاباً وإياباً ويداه مشدودتان نحو الظهر. وابتسم بطريقة مبالغ فيها لدرجة أنها كانت مخيفة بعض الشيء، كان ينظر إليك كما لو كان أستطاع أن يقرأ حزبك السياسي.

كانت والدتي تجلس مع أشخاص آخرين خلف الطاولة، إذ توجد بعض الصناديق الشفافة. وكانت تُوضع الأوراق فيها، أي الأصوات. لدى رؤيتنا عبور باب المدرسة، انحنت لرؤيتنا، ولوحت لنا من بعيد، وتابعت عملها.

من الواضح أن السيرك لم يكن كذلك، لأن إميريتا كانت ترتدي أفضل ملابسها تماماً مثلما ارتدت عندما ذهبنا لرؤية رماة السكاكين. بالتأكيد، أو إنها كانت أكثر ذكاءً من الكثير من أهل القرية أو والدتي قد شرحت لها بالفعل في المنزل. لأنه بمجرد دخولها ذهبت إلى الغرفة، وأغلقت الستارة، وضغطت عليّ قليلاً نحو جسدها، وبدأت تتفحص بعينيها أكوام من أوراق الاقتراع، حتى توقفت عند واحدة. ثم أخذت منها ورقة واحدة وقالت لي أن أضعها في مغلف، وهو ما فعلته، لأنني كنت سأصبح مغروراً، وكان عليّ أن أبدأ بشيء ما.

وعندما غادرت غرفة الاقتراع، رمق دون أوبالدو بنظرة من أسفل إلى أعلى السيدة إميريتا، وأومأ دون إيلاديو برأسه. رافعاً حاجبيه قليلاً وغمز قائلاً: «جيد جدّاً، جيد جدّاً، لتصوتوا. جميعاً».

لذلك فهمت ما أرادت والدتي أن تخبرنا به قبل أسابيع قليلة، عن الديمقراطية، المساواة والقدرة على الاختيار: أن تصوت امرأة صماء كانت حتى وقت قريب لا تكاد تعرف كيف تكتب صفر باستعمال أنبوب، تتساوى بصوتها مع صوت الشخص الآمر.

كان ذاك النسق للتصويت هو الطابور الثاني في حياتي. إذ كان الطابور الآخر هو الذي وقفت فيه للصلاة في الكنيسة ذات مرة، عندما كنت سأتعمد، إذ كنت غاضباً من والدي، وأردت مضايقته.

صافحت أمي كما لو أنهم لا يعرف بعضهم بعضاً، وسلمتها الهوية الشخصية، الآنسة مرسيدس أعطتها لشخص ما، ثم سمع:

- إميريتا رودريغيز بيريز.

- صوّتي!

وضعت المغلف المغلق بالداخل. ابتسمت والدتي في وجهي كما لو كان الصوت يخصني، ولم أستطع في المقابل إلا أن أعطيها بشرى سارة: كانت إميريتا على الأقل تتمتع بذوق جيد.

- «لقد اخترت الأجمل، يا أمي». ورقة اقتراع الزهرة (شعار الحزب الاشتراكي).

قالت لي والدتي بجدية شديدة أن أصمت ولم أفهم.

كان يجري التصويت جيداً. لكن في القرية لم يكن من الممكن التحدث بصوت عالٍ عن الزهرة، لقد جعلتني أفهم أن الديمقراطية لديها الكثير لتحسينها.

في تلك الليلة أوضحت لي أمي لماذا طلبت مني الصمت، لقد كتبت التقرير عن ماذا عنت الانتخابات لنا، أما إميريتا، التي وضعنا لها إملاءً بهذه المناسبة، لقد تعلمت أن أورناس (صندوق الاقتراع) يكتب دون حرف الهاء، وأن بوتار (التصويت) يمكن أن يكتب أيضاً مع حرف الباء.

أحببت ذلك الوقت عندما كنا نحن الخمسة نكتب حول الطاولة النقالة. أنا وأخواتي مع كتابة التقرير، إميريتا مع مجلدها الأصفر، والآنسة مرسيدس مع الامتحانات.

كنت أعرف جيداً لمن هي ورقة الامتحان الموجودة أمام والدتي من نوع خط يد الطالب فقط.

كان الامتحان في اللغة. كان هذا الخط غير الرشيق والمعوج هو خط توماس. انتهت والدتي من الورقة.

وضعت العلامة في الزاوية العليا اليمنى، ووضعت دائرة حولها باللون الأحمر. ٧٥, ٤.

- «زيديها يا أمي». زيديها.

ونظرت إليّ أمي، وضحكت من أنفاسها، وراجعت ورقة الامتحان بحثاً عن علامة ٢٥ , ٠، وفي النهاية رفعتها.

في اليوم التالي، لم يكن لدي الوقت لأخبر توماس.

- مرحباً، يا توماس، فلتعلم أنك نجحت في امتحان اللغة بمساعدة المدعوم.

* * *

في تلك النقطة، في الشارع، أو بين أصدقائي، لم يكن غريباً أن ينتهي الأمر بشخص ما بتحذيري، أو أن يتساءل عن السيدة إميريتا. وهذا ليس فقط لأنني كنت هناك أقول لعدة أيام إنها وضعت ورقة اقتراع الزهرة، لكن لأنه كان هناك شيء ما قديم بدأ في الظهور.

عندما أخبرت أمي بالقصة، أخبرتني أن الناس يحسدونها. الثرثرة. ثم قالت لي إن الحسد هو أبشع أنواع الخطايا السبع المميتة، لأنه الوحيد الذي لم يسفر عن اللذة.

- هناك متعة في الشراهة، يا بني، في الكسل، في البخل، في الشهوة، في الكبرياء حتى في الغضب موجودة، هناك: متعة التحرر من الذي يغضب كثيراً. لكن لا متعة في الحسد أبداً.

- حسد من ماذا، يا أمي، إذا كانت صماء؟

- حسد على أنها سعيدة بالرغم من صممها، يا دافيد. الحسد أنها تعلمت الكتابة بشكل جيد جدّاً في سنها. وهذا لأنها معنا. ولأنها برهنت أنها

امرأة شجاعة جدّاً، وطيبة جدّاً. حسد أن طفلاً وهو ليس بابنها، وهو أنت، يحبها أكثر من حب أطفالها لها، والذين ينتقدون كل شيء.

ما استنتجته بوضوح من القرية: هو أنه، عندما تكونين امرأة فقيرة وأنت وحيدة، فإنك تثيرين الشفقة وهذا يناسب البقية جدّاً للخروج ناجحين في المقارنة. لكن عندما تتوقفين عن كونك امرأة فقيرة وكونك وحيدة، عندما يحبونك، وتحبين، ارتداء ملابس جيدة حين يمكنك ذلك وتعلم الكثير من الإملاء، عندما تبدئين في الكتابة أفضل من أي شخص آخر، هناك من يشعر بإزعاج جديد وهائِل. لأنه بعدئذ، أصبح ذلك الشخص نادماً على تحسن من لا يمت له بصلة، كما اعتادت والدتي أن تقول: أصبح مرشحاً لاحتلال أدنى مرتبة تركتها إميه شاغرة.

- «يبدو الأمر كما لو أن مجرد حقيقة سعادتها البسيطة وغير المتوقعة معنا كانت شيئاً بالنسبة لأناس معينين، يجب أن تُنتزع».

ما قمت بترجمته هو أن الجميع يستطيعون التصويت وهو شيء، والشيء الآخر مختلف جدّاً، وهو أن امرأةً تمشي الآن في القرية سعيدة جدّاً، كما لو لم يكن لديها ماضٍ.

عندما استمعت إلى هذه الأشياء، شعرت بالانشراح مرة أخرى لأنها كانت صماء تماماً. لأنهم قالوا لأمي ولأخواتي وأنا معها قريب جدّاً. وكأنها أكثر من صماء كانت غير مرئية. وهذا، من المؤكد أنه لا، غير مرئية لا، لأنها على الأقل بطول متر وثمانين سنتيمتر ووزنها قنطار.

روى غريغوريو، عند أشجار اللوز: «قال لي والدي إنه من الأفضل ألا تأتي (إميريتا) معنا. ولا من بعيد».

- فيسنته خيسوس: «أخبرتني أمي أن زوجها رامون كان سكيراً».

دون إلاديو، في أحد أيام السبت في الكازينو، قال لوالدي: - «فإذن خرجت إميريتا من قبضتنا، والوردة، إيه».

البيراكاس: - «جدي يقول إن إميريتا كان يعجبها كل شيء».

- الكاهن، دون مارسيلينو، قال لأمي، عند مغادرة الكنيسة: «وهذه المرأة لن تعترف أبداً كما الله أمر»؟.

ماريو، دوس بيلاس، في المستودع: - أقول «أولم يكن من الأفضل لو كانت والدتك قد اختارت من لم تكن صماء»؟.

السيد لويس، في متجر ما وراء البحار، يقوم بإضحاك الجارات الأخريات: - «هذه المرأة تلعب دور الصماء، أؤكد لكم ما أقول».

دون أوبالدو: - «الآن كيف يصوت العالم...».

وحتى توماس.

* * *

في يوم جميع القديسين، لم تكن هناك مدرسة، وطلبت إميه من والدتي الإذن بأخذي إلى المقبرة.

- أريد أن أريك شيئاً يا كوريته.

- ما هو هذا الشيء؟

كنت معها في بيتها، في السيرك، في الكنيسة، في المدرسة للتصويت، في السرير، في العصر الأبيض، وفي المستشفى.

لذلك يجب أن تكون المقبرة هي المكان الوحيد في العالم الباقي لنا لنذهب معاً.

لقد أخذتني معها وكأنها كانت ذاهبة لتكشف سراً. اعتقدت أنني كنت أعرف ذلك السر كاملاً، لكن لا.

عندما وصلنا، راقب نصف دزينة من الناس فقيديهم أمام العديد من شواهد القبور، فأزالوا الأزهار القديمة، ووضعوا أزهاراً جديدة، ونزعوا الأعشاب التي كانت تحيط بالقبر، وضعوا يدهم فوقه، صلوا قليلاً، نظروا إلى الغيوم وبعد مدّةً غادروا.

لقد أمطرت قليلاً في الليلة السابقة، والتصق الوحل بنعلي الحذاء في كل خطوة، يمكن أن تشعر بأن التربة الطينية للمقبرة تشدك، كما لو أنها تود أن تضعك بالداخل مع كل أمواتها.

امرأتان باللباس الأسود ومظهر متواضع جدّاً حيتا إميريتا باحترام وإعجاب صادق. توقفتا للتحدث معها. كما لو أنها، فيما يتعلق الأمر بالألم، فإن إميه لديها الحواس الخمس جميعها، وكنا نحن الصم. قالوا لها أشياء جيدة عن الآنسة مرسيدس وصلّبوا أنفسهم. ثم قبلتني إحداهن قبلة ممزوجة باللعاب. كمية لعاب جيدة. نظفت نفسي.

كانت تتعامل جدة المنغولي مع مجرفة، وسوت كومة من التراب ملتصقة بعليق الجدار. قبر نصف مغطى، كما لو كانت الطبيعة تخجل من ذلك الصبي. عندما رأت تقدم إميه، وقفت متصلبة وحيتها بيدها من مسافة. ثم عادت لعملها، واستمرت في رفع عدتها وخفضها.

بيدرو سانشيز تيخيدور

١٩١٤ - ١٩٧١.

وثم:

أبيليو غارسيا غارسيا

١٩٢٠ - ١٩٧٤.

وثم يتبع:

روثّيو غارزون هرايز

١٩١٨ - ١٩٦١.

أثناء مرورنا على شواهد القبور، كنت ألعب بعدّ حروف أسماء الأموات وأجمع الأعمار بنفسي. عرفت أنني لم أكن هناك منذ مدّة طويلة منذ أن كنت مع غريجوريو وفيسنته خيسوس لأنني لم أعد أعرف الحسابات الذهنية، على عكس ما حدث من قبل.

توجهنا إلى الجدار نفسه، مكان دفن المنغولي. في ركن آخر هناك، توقفنا أمام كتلة صغيرة من الأرض. واحد كنت أعرفه جيداً.

ظلت إيميريتا صامتةً مدّةً طويلة. ثم جثت على ركبتيها، ولكن لا لتصلي، بل على أربع كما في لعبة الشاباس (الأوراق). بدأت في إزالة بعض الأعشاب الضارة التي نبتت على القبر. ثم، بمجرد أن نظفت القبر، فعلت شيئاً غريباً: أخرجت عصفوراً من الورق من جيبها، علمتها والدتي أن تصنعه، نفخته لإزالة وبر المعطف عنه، ووضعتْه بعناية في الأعلى.

ثم وقفت على قدميها، وسكتت مرة أخرى.

- أعلم أنهم كانوا قد تحدثوا إليك عن إميريتا، وأنهم يخبرونك بأشياء. لأني صماء، نعم أنا كذلك، لكن غبية الأنبيق لا يا بني. ألاحظ عندما نتجول ويقولون لك شيئاً ما، فتتحول إلى اللون الأحمر وأنت تنظر إليّ سريعاً جدّاً، لم أكن قد استعدت سمعي فجأة واكتشفت ذلك. لكن لا. لم أستعد سمعي ولن أستعيده. حتى لو اكتشفت ذلك بالطبع. لأن شيئاً واحداً هو شيء واحد، وعشرون هو عشرون.

سُمع إيقاع مجرفة تضرب الأرض المبتلة. بينما يُسمع لإميريتا صفير القصبات الهوائية في كل مرة أخذت فيها نفساً، كما حدث عندما استولت عليك هجمة الربو.

- طيلة حياتي أستمع إلى الأشياء يا كوريته. والآن بما أنني لا أستطيع سماعها، فأنا أتخيلها. أعتقد أنه لأول مرة كنت أدرك حقاً أنه، في القرية، كان هناك عالم من قبل ظهوري. قبل وصولنا بسيارة السيمكا ١٢٠٠ التي تفوح منها رائحة دخان دوكادوس ورائحة الكلب، أدرك هذا العالم الذي يضم نقاطاً عمياء أن النمو يتكون من التقدم في ممر مظلم مشعلاً الأضواء.

- انظر. انظر هنا. هل ترى هذا هنا؟ أشارت بذقنها. تحمل الابن تسعة أشهر في الداخل، ثم تظل الأرض حاملة به الباقي. إنها لا تحمله أربعة أشهر، وليس ستة أشهر، ولا تسعة. تبقي الأرضُ الابن بداخلها إلى الأبد. فالقبر

أم ذات بطن يمتد من الأرض إلى السماء، ولكنه لا ينمو. مشيمة من الديدان، من الرطوبة، من الظلام، من الحشرات. في الوقت نفسه.

كنتُ خائفاً قليلاً مما كانت تقوله، لكني أعتقد أنني كنت أفهمها. بينما كانت تتحدث، كانت تنقر بإصبع قدمها ببطء شديد على التل، مثل شخص يطرق الباب في أوقات غير مناسبة وكان الحذاء ممتلئاً بالطين.

كانت صامتة مدّةً طويلة، وكتفاها منحدرين جدّاً، وبدت أقل ارتفاعاً، عليّ أن أصلي الزوايا الأربع بنفسي، ثم رفعت رأسي لأنني سمعتها تُحدثُ ضوضاء غريبة.

ثم سعلت بصوت عالٍ، وأخرجت منديلاً مجعداً من كمها، وهزت أنفها عدة مرات. كما لو أنها بدلاً من المخاط، طردت شيئاً أكبر كانت تحمله منذ وقت طويل في الداخل.

- امضي، - «تعال، دعني أدفئك» ابتسمت -. كيف انتعلت حذاءَك؟ دعنا نَرَ ما إذا كنا سنصل متأخرين للمنزل.

لقد كانت السماء تبرق مدّةً طويلة ولم نلاحظ ذلك حتى.

لقد كنا وحدنا أو ما هو أسوأ: كنا وحدنا جدّاً.

على الرغم من أنني أعتقد أن رؤيتها هناك تنظر إلى كومة الأرض، فإنها كانت أكثر وحدة مني بكثير.

- «اهدئي، يا إميه»، نطقت كثيراً ورفعت يدي. شعرت أن فمي لزج، أنا فقط نجحت في قول شيء واحد. - من المؤكد أنه لم يعانِ شيئاً.

* * *

[جئنا من إسبانيا التي كانت تستمع إلى مسلسل إذاعي. كنا ذاهبين نحو إسبانيا تلك التي جلست تشاهد شاشة التلفاز.

وما زالت شاشة واحدة.

وما زلنا معاً حتى الآن.

كنا أحفاد الذين جاعوا. ليست الذكرى بعيدة جدّاً، إذ لم يكن ممكناً أن ينتهي الطعام المتبقي في سلة المهملات.

لقد جئنا من إسبانيا التي لم تكن تستطيع الانتخاب. كنا ذاهبين إلى إسبانيا التي بدأت في القيام بذلك. تلك الموسيقا التي كنا نضعها في الرحلة. في البداية، الوجه ألف أو الوجه باء للكاسيت.

لقد أتينا مما قصّوه أجدادُنا، تلك القصة كنا. كنا ما قالوه، وكنا أيضاً ما سيقولونه.

كاد الحمل الرابع يقتل والدتي، كانت أمي مصابة بداء السكري، ففي كل مرة حملت وأنجبت أطفالاً يعانون زيادة في الوزن. أصبحت حالتها سيئة لدرجة أنها اقتربت من الموت. حدث ذلك: مع فيرو، وإيسا، ومعي. كاد الرابع يقتلها، لكنه مات هو.

كان يجب أن يكون لدي أخ صغير. ذلك الذي ولد ميتاً.

أحب الجدُ أمي كثيراً. لهذا السبب أرادني ألا أولد أيضاً قبل أن يولد أخي الميت. لقد ولدت فيرو، حسناً. لقد ولدت إيسا، طيب. لكن لأنني ولدت، فلا.

لأنه كان ثمة خطر كبير عليها. ولأنه كان يخشى أن تموت مرسيديتاس في عملية الولادة الثالثة، لكن أبي، بالرغم من أنه كان شيوعياً قحاً، لم يرغب أن تُجهض أمي.

لذلك لم يفعل وأنا ولدت.

وخاض الجد والأب معركة كبيرة لكنهما استمرا بالحديث دعونا نَرَ ما سيقوله الناس.

ثم ولد الأخ الميت أو الأخ المُجهض.

لم أسأل عن ذلك كطفل، لقد فعلت ذلك مرة واحدة فقط عندما كبرت، وكان ذلك كافياً ألا أفعل ذلك مرة أخرى. أغلق والدي التلفاز وغادر. كذبت أمي عليّ بالتفصيل بسبب أن الحقيقة ستؤذيني.

لقد أتينا من جميع تلك الأشياء التي لا يمكن التحدث بها أو معرفتها.

لقد جئنا من جدران اللبن. كنا نتجه نحو ورق الحائط المرسوم. كنا نطمح إلى أن يكون غوتيله (دهان خشن بوشاري).

لقد أتينا من أبناء الذين استحموا بالدماء. لقد جئنا من تلك اللوحة الحربية (غيرنيكا) كنت أنا وأصدقائي وأخواتي (المعقم الأحمر الزئبقي) ميركرومينا].

* * *

إذا كان عليّ أن أكون صادقاً تماماً، أعتقد أننا لم نذهب لإحضار منفاخ ننفخ به البالون. وحتى أقل من إرواء العطش. ولا لتلك الجراء التي كانت قد ولدتهم الكلبة السلوقية، وأن شقيقه الأكبر يجب أن يعتني بها.

إذا كان علينا أن نكون صادقين تماماً، أعتقد أننا ذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم إلى منزل توماس لنرى والده عن قرب.

كان لدى البعض دراجة جديدة، ولدى فيسينته خيسوس الكثير من الحقن، ولدى البيراكاس حرق في ساقه بأكملها، بينما كان يعيش الآخرون مع أجدادهم، وكان لدي مقدمة رعاية صماء. لا أعلم، كانت القضية أن يكون لديك شيء مختلف ولم يكن لدى الآخرين. شيء تستطيع إظهاره للعالم.

كان لدى توماس أب يجعلك تخاف.

يقع المبنى نصف المكتمل في الجزء الأكثر تواضعاً من القرية، في الطريق إلى الكهوف التي عاشت فيها جدة المنغولي وقبل منزل إميريتا المبني من اللبن. كانا آخر جيران في الضواحي. ثم انحنى الشارع بحدة إلى اليسار. وانتهى في مسار مملوء بالنفايات.

كانت الواجهة مغطاة بكرمة جافة، وبها عدة شقوق متعرجة. على السطح، ملتوٍ ومنخفض، ثمة هناك طبقة رقيقة من الطحالب وقطّان، تصاعد دخان كثيف من المدخنة. أُسدلت ستارة النافذة الوحيدة التي يمكن رؤيتها.

جلست الكلبة في المدخل، وتذمرت من رؤية الكثيرين.

أول ما لفت انتباهي بمجرد دخولي هو الرائحة: رائحة التبييض والأدوية.

الشيء الثاني الذي لفت انتباهي هو الترتيب والنظافة.

الشيء الثالث هو الحرارة: حرارة مقززة تغذيها النار وأشعة الشمس التي تدخل من خلال النافذة.

- قال لنا: «تعالوا إلى هنا وانتظروني». أنا ذاهب لإحضار المنفاخ. وننفخ الكرة، ونشرب بعض الماء، ثم أريكم مواليد الكلبة ونذهب. والدتي لا يعجبها أن أجلب الناس عندما لا يوجد أحد.

كان والد توماس جالساً أمام طاولة نقالة ورأسه وجسمه على جانب واحد. بالنسبة إليَّ، ذكرني هذا الانحناء قليلاً بدراجة متوقفة على رجلها. ولكن نعم هذه الدراجة مغطاة لأنهم وضعوا بطانية منقوشة بالمربعات بالألوان الأحمر والأسود التي غطت من كتفيه إلى ركبتيه.

كطاولة منخفضة، أحضروا له صندوقاً خشبياً، تلك الصناديق المستخدمة في جني العنب، والذي يقرأ عليه «برتقال بيت بورّاس». وعلى الصندوق، كان هناك كوب ماء فيه نوع من القش وشاشتان ووشاح وجرة بدهان أخضر.

تركنا توماس لفترة مع والده. قلنا مساء الخير، لكن واصل الرجل نظرته الضائعة نحو الشارع. عندما سألناه عن حاله، استمر دون تحريك أي عضلة، ثم لوح بيراكاس بيده دون إحداث أي تأثير، وبدأنا نتمشى ببطء شديد من خلال ذلك المطبخ بالنظر إلى كل شيء. عندما تأكد غريغوريو من أن هذا الرجل كان مثل التمثال، قفز بحيوية اليوم.

- «تمنى لو كان والدي هكذا».

في تلك اللحظة فقط، عاد توماس بالمنفاخ وغرّته مقلوبة، قدم لنا الماء، شربنا بحذر.

- «إنه لا يعي أي شيء. لقد أصبح كذلك منذ عدة سنوات حتى الآن. لا نعرف ما إذا كان يستمع إلينا أم لا، لكن أمي لا تريدنا أن نتوقف عن الحديث معه».

- «ومن يعتني به»؟

- امضي يا هذا. حسناً جميعنا ما عدا الأخ الصغير أسوأ شيء هو أن نغسله، ويحين عندها المهرجان من أجل ماذا؟ لكن تنظيفه هناك من تحت من قبل والدتي، إيه... أمسك.

أمسكت بالكرة التي نفخها توماس بالهواء كما لو أن العضلة القلبية توقفت.

كاد الوريد الأخضر ينفجر في جبهته.

- سألت: «وهل هو أصم»؟

- لا فكرة لدينا. أعتقد أنه يسمع قليلاً. لكن عن الكلام، فهو لا يتكلم شيئاً. لم يكن يكثر من الكلام، هذا صحيح. لكنني تقريباً. لم أعد أتذكر صوته... هل هذه الكمية من الهواء كافية؟

- «ينقصها بعض الشيء». انفخها أكثر. بعد نصف دقيقة، كانت الكرة منتفخة بشكل صحيح، وقال صاحبها دوس بيلاس: دعونا نجربها لنرى ما إذا كانت ترتد جيداً.

- لنرَ، لنرَ، الكرة هي كرتي. مررها لي، والحقيقة أنه عند الارتداد الرابع، أصابته الكرة في ركبته، وكذلك المبولة الكائنة بجانب أب توماس لينتشر السائل بسرعة عبر البلاط، ومُلطخاً الكرة.

ثم سمع صوتي فتح باب وامرأة.

- «هل هذا أنت يا توماس»؟

كانت في المطبخ في غضون ثلاث ثوان.

لم تكن الأم مستمتعة برؤية نصف دزينة من الأولاد هناك كما لو كان هذا العصر الأبيض. نظرت إلى توماس بجدية شديدة. دخل توماس إلى الغرفة عائداً بدلو، ولكنه بعد ذلك بينما مرر الممسحة وعصرها، وصرخ وديا: - «أنتم ماذا»؟ وسألنا حتى إذا كنا تناولنا وجبة.

لقد هربوا جميعاً بأسرع ما يمكن قليلاً لأن الشمس كانت ستختفي دون الحاجة لبدء اللعبة، وأكثر من ذلك بقليل بسبب إحراج مبولة الغرفة. أمسك دوس بيلاس بالكرة بأربعة أصابع، وقال إنهم ينتظروننا وسحب الأولاد من بعده كما لو كان عازف الفلوت من هاميلين.

- «لكنك ألم تكن تريد أن ترى الجراء»؟

- أنا نعم.

بقينا أنا وتوماس وحدنا. اقتربت والدته من زوجها، ووضعت كأس الماء في فمه ليرشفه، وأعادت ترتيب بطانياته، وذهبت لإلقاء دلو الماء القذر في الحظيرة. عند العودة غسلت يديها، ونظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل بنعومة معينة، وتنهدت، مازحة حول نجاح ابنها بمادة اللغة، ثم سألتني عن إميريتا. وأنا أخبرتها كالعادة: أنها لم تكن تسمع، وأنها كانت بخير، وكنت أعطيها إملاءات.

فأومأت برأسها.

- «اذهبا لرؤيتها، هيا».

- لمن.

- الجراء، ماذا ستكون؟

في سرير من الخرق والقش، تحت الحظيرة، كان الجراء الثلاثة، الذي استراحوا متكدسين معاً وناموا وكأنهم ليسوا في خطر.

- «خذهم إذا كنت تريد».

- لا. يمكن أن تكرههم الأم.

- مطلقاً! لما تبقى لهم!

كان لونهم كريميا، ولا يكادون يعرفون كيف يمشون، وكانوا دافئين وناعمين مثل إحدى تلك الأكياس من الماء الذي وضعته إميه على قدمي.

- «عثرت والدتي على عش من الفئران في الخزانة الأسبوع الماضي، وألقت بهم في النار. حتى إنهم لم يفتحوا أعينهم بعد، كيف كانوا يصرخون؟ كان لا يزال صوتهم عالقاً هنا. وكيف كانت رائحتهم؟ ثم في المطبخ: مثلما تشوي قطعة دجاج على النار».

- يا للمساكين.

- هذا ما قلته لأمي وأجابتني على ذلك، بل نحن هم المساكين. وعن الحيوانات: كان لديها ثلاثتنا... إنها لا تضع والدي في مجموعة الحيوانات، طبعاً. في كل مرة كانت الكلبة قد حملت، كان على أخي أن يعتني بها. لأنه إذا لم يكن لدينا بالفعل كلبة سلوقية فلن أقص عليك.

- «هل هناك ما هو أسوأ من قتل كلب صغير»؟ قلت له، وأنا أفكر في قطط غريغوريو. وهو قد حدق بي بهدوء شديد ثم وضع يده على كتفي.

- «يجب أن أخبرك».

ما قاله لي بعد ذلك حدث منذ وقت طويل، وحدث لأخيه الذي في ذلك الوقت كان عمره خمس أو ست سنوات، لا أكثر. لقد حذرني من أنه لم يولد حتى. ولا أنا بالطبع.

كانت قصة قصيرة أصر توماس على تزيينها بكثيرٍ من المنعطفات والمقدمات. حتى وصل إلى الشيء المهم: الأخ الذي كان عليه أن يعتني بالجراء التي كنا نداعبها وتذكر رائحة فيكس فابوراب، وأيضاً تبول في حذائه المطاطي عندما رآها هناك.

أكثر من العبارة نفسها، أتذكر ما أزعجني عندما سمعتها. ما أحزنني هو استماعي لتوماس. الوجه الذي وضعه عندما قال تلك العبارة. العبارة التي كانت مثل إغلاق الباب بعنف عندما كنت أغادر.

- «إيه، أنت، يا مدعوم».

- ماذا.

- «كن حذراً جدّاً مع الصماء».

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(هي وذاك)

أتذكر كيف أنجبتك، يا بني، لكن ليس كيف قتلتك.

أتذكر أنني أنجبتك في السرير الكبير، بجوار المجمرة. نشرت والدتي بعض الخرق القديمة، وجلد الخراف حتى لا يتلوث الفراش على السرير. وبعد ذلك أشعلت النار، وذهبت لاستدعاء القابلة.

أتذكر أنه عندما وصلت الاثنتان على عجل، كنت قد استلقيت بالفعل وأنا أتألم. ولمست إيلينا جبهتي، وقالت لي:

- «اهدئي، يا جميلة»، ثم طلبت من والدتي ذبح دجاجة لتحضير المرق الذي قدّمته حين انتهى الأمر.

أتذكر أنه بعد برهة، غسلتاني بالإبريق، والشاش والماء الفاتر الذي غلته أمي، مع بضع قطرات من الكحول، وأنه لك أيضاً غسلتاك بالكامل، وألبساك، وأعطياك ماء البابونج مع السكر لطرد البراز الأسود، وعزمت والدتي على دفن المشيمة، ثم وضعتاك فوقي.

أقول لك إنني أتذكر كيف أنجبتُك؟ كيف أتيت بك إلى العالم؟ أتذكر ذلك كما لو كان الآن بالذات. لكني لا أتذكر كيف قتلتك. وأنا أعيش بفضل هذا النسيان.

لم نستطع أن نكون يا بني.

كيف كان ممكناً أن يكون كل شيء، لو أننا ما زلنا معاً، إيه؟

كما ترى، الآن أجرؤ على كتابة هذا يا بني. الكتابة التي لم تتعلمها، والحروف التي لم تتراكم لديك، الكلمات التي لم تنل وقتاً لنطقها في فمك.

كنت أود أن أعرف كيف كانت ستكون أحرفك الصغيرة. إذا كنت قد جعلت ذيلاً لحرف u مثل والدتك، أم كتبتها حروف ميم مضغوطة. إذا كنت قد

التقطت قلم الرصاص مع الأصابع ممدودة، أو مقبوضة مثل براعم العنب، وهذا ما أفعله أنا الآن.

أحياناً، من دون سابق إنذار، أكتب الأحرف الخمسة من اسمك في هوامش الدفتر. أو على الأرض بعصا. بينما أنظر إلى ابن المعلمة من بعيد، وأتخيل أن هذا الطفل هو أنت، وإن هاتين الشامتين فوق شفته هي لك، وقشور ساقيه هي التي عملتها معي منذ سنوات عديدة، وتلك الكرة النظامية التي يحملها قد طلبتها من الملوك وذلك في رسالة قرأتها أنا فقط ولا أحد آخر. ستأتي راكضاً لمناداتي بأمي، وأنني سأفهمك، حتى لو لم أسمعك.

أكتب اسمك على الأرض ثم أمحوه إذا رأيت شخصاً قادماً، كما ترى. بالقدم أو بالعصا نفسها. لذلك أشعر بالاندفاع. وتحولت إلى اللون الأحمر: يبدو الأمر كما لو أن والدتك قتلتك تكراراً.

أتذكر أن إيلينا أتت في الأيام التالية للمساعدة في غسلنا كلانا، وأعطتني بعض الزيوت في الأجزاء السفلية، وقابلة القرية، تحدثت أكثر من الممارس حتى سقط حبلك السري، حينئذ بدأت برش مطهر الجروح المركوروكروم عليك. كثيراً لدرجة أنه في المرة الأولى التي رأيته فيها، كان لونه أحمر خالصاً، وظننت أنك جعلتني أنزف دماً.

أتذكر ضحكات القابلة عندما سمعتني. كيف كنت أغمس لك اللهاية في الحليب المكثف وبشراب الكينا سان كليمنته. أتذكر رائحتك. أتذكر الملابس التي صنعتها لك. أتذكر يدك كسلطعون صغير. حفّاضاتك منشورة في الشمس مثل الأعلام. مهدك من شجر الكستناء الذي صنعه لك والدك عندما اكتشف أننا ننتظر طفلاً تماماً مثل روبنسون في عجلة من أمره. نعم أتذكر كل تلك الذكريات. وأنك على الرغم من سرير الأطفال، كنت تنام في سريري فقط.

معي بجواري. يا كوريته.

* * *

أنا وحدي في المنزل، أجلس على طاولة نقالة مع المجمرة، وأكتب هذه السطور كما لو كانت مخفية. لقد انتهيت لتوي من طبخ بعض الفاصولياء مع السجق. لقد كانت الفاصولياء مع السجق المفضلة لدي طوال حياتي، لكن اللوبياء بحرف ب كانت موجودة منذ أن تعرفت على الصبي. الشيء الوحيد الذي كان يكتبه جيداً هو الفاصوليا الخضراء، كما ترى. لأنه وضع حرف هاء على أسيلغاس (السلق). وللبيرينخيناس، حرف ب، (الباذنجان)، نضعه احتياطاً.

الكلمات في وضعها الصحيح تعرف أفضل، يا كوريته. مثل الوصفات. هذا هو السبب في أن الأولاد الذين يدرسون بجد ويذهبون إلى مدريد، ويكسبون أموالاً جيدة، ولديهم ثلاجات جيدة، لديهم بريق أفضل من أولئك الذين لم يغادروا منا القرية.

أنا أدرس ما لم تدرسه. أقرأ ما لم تقرأه. أوه، لو رأيت الموسوعة الكبيرة جدّاً التي تمتلكها الآنسة مرسيدس. يا للأشياء التي تسعها في الداخل. يا للأشياء التي تخرجها من الأمعاء عندما تبدأ القراءة.

أقول إن الكتابة مثل الذهاب إلى كرسي الاعتراف. فقط دون كاهن الذي يجعل خطاياك قبيحة. من أحرف الهاءات التي وضعتها زيادة، أو تلك حروف لاخوتا (الخاء) التي ترقص لك.

لا أعرف إذا كان ما أكتبه جميل. لكن ما أكتبه صحيح، يا بني.

كنت قد أخبرتك أنني عملت بعضاً من الفاصولياء، وأنني سرحت مثل القطط. ولكن قبل ذلك رتبت الأسرّة التي يتركها لي الأولاد نصف مرتبة. لقد لملمت متاعهم. لقد شعلت موقد المطبخ تحضيراً لمجيئهم. لأنهم سيأتون خلال فترة ليأكلوا، وبعد ذلك سيعودون إلى المدرسة. وسأكون قد حفظت هذا قبلاً في مجلد أصفر تحت السرير، وهو كما كنت أمحو اسمك من على الرمل.

لدي كلب عند القدمين. كلب كبير ينظر إليّ الآن بالحال بعيون يقظة جداً بشعر أحمر طويل. هل تعرف كوريته؟ في القرية ننادي الكلب كلباً، دائماً، والكلبة كلبة، البغل بغلاً، الديك ديكاً، لكن أهل المدن يؤلفون أسماء للحيوانات، وهي

طريقة سخيفة تعبر عن التعلق بها. وهذا ما يسمى فليكي. وهو ينام بالداخل. مثل دُماك.

بيلوتشه (دمية) تكتب مع حرف تشيه.

غالو (ديك) يكتب مع حرف لل.

فليكي يكتب مع حرف كي.

وأنت، يا كوريته، لديك حرفان ر ر في اسمك.

هذا ما علمني إياه أبناء معلمة القرية. علموني الكتابة بشكل جيد، وكذلك أشياء لم أكن أعرفها عن نفسي.

أنه كان بإمكاني تربيتك بشكل مثالي، وعلى سبيل المثال. لدي صبر أكثر من الكثيرات. إنني أعرف كيف أبقي طفلاً بعيداً عن الخطر: الطرقات والحجارة والظلام. أني صماء، لكنني لست حيواناً. بالضبط كل ذلك.

متى كنت ستكتب اسمك لأول مرة، هاه؟ هيا قل لي. بأي حال كانوا سيعلمونك عمليات الجمع في المدرسة؟ هل كنت ستصبح حيواناً مثل والدتك؟ ما هي العلامات التي كانت ستعطيها لك الآنسة مرسيدس؟

كنت أتمنى أن أكون مثلها من أجلك، وأنك كنت ستفتخر بأمك لأنني كنت أعرف كيف أقود السيارة، وأخبرك بالفرنسية عن قصة الزيز والنملة من أولها إلى آخرها. لكني لمستك يا بني. أنا لمستك. والآن وأنا أتحدث عن اللمس، أتذكر حرارتك وأنت محضونٌ. كنت الموقد الذي يشع حرارة. والفراء بعد ذلك. عندما استيقظت وعدت لي شتاء.

* * *

المرة الأولى التي طلبني فيها والدك للرقص كانت في أعياد العذراء. كنت أرتدي فستاناً رمادياً صنعته لي عمتي هيلاريا وحذاء من والدتي الذي كان قياسه

صغيراً. أتذكر أنني كنت جالسة بجوار غلوريا ولويزا، لأننا ذهبنا دائماً معاً نحن الثلاثة خامدات الهمة.

جاء شاب، وأخذ غلوريا بعيداً.

جاء آخر فعل الشيء نفسه، وأخذ لويزا.

ثم أخذ والدك رشفة من كأس السانغريا، وبدأ ينظر إليّ وهو أرتدي ملابس يوم الأحد، بالطريقة نفسها التي ينظر بها الرجال إلى أرنب من خلال بندقية: أراد أن يأخذني بعيداً.

رأيته قادماً. أولاً بخطوات قصيرة والتظاهر بالتشتت. ثم متردداً، معدلاً سترته مثل مصارع ثيران صغير، ممرراً يده من خلال شعره، مع هوسه لتنعيم دوامة شعر غرته. حتى قرر، وانزرع أمامي، كما تفعل بقيرة في الانحباس (إغلاق الشوارع أمام الثيران).

إلى أين كنت سأنظر، لنَر. لم أستطع النظر على الجانبين لأن هاتين كانتا ترقصان بالفعل، ولا على الأرض لأنني لم أكن أبحث حتى عن كلبة سمينة، عندئذ نظرت إليه من الأسفل. دون القيام من على الكرسي. مع مشبك حزامه على بعد ثلاثة أشبار من وجهي. وعندما مد يده إليّ بابتسامة وسألني عما إذا كنت سأرقص معه، وأنا وجهت نظري إلى والدتي التي أومأت لي برأسها. لذلك نهضت، وذهبنا إلى المركز وفي ذلك الوقت، يا كوريته، كنت أسعد امرأة في العالم.

لأنْ كان والدك بالفعل يعجبني بالرغم من أنه كان أقصر مني، لا تظن أننا لم نتحدث عن هذا الموضوع في تلك الرقصة، على الرغم من أنه كان معروفاً بسمعته السيئة في الرأس، حتى إنه أطلق حماقاته التي لم يوفرها حتى في اليوم الأول.

حينئذ كان سمعي حيّاً وليس ميتاً. بدأت إحدى أغاني أنطونيو ماتشين بطيئة جدّاً. كنا متعانقين، لكن ليس كثيراً، أخبرني شيئاً بهدوء ما زلت أتذكره.

- يا إميريتا، من كان جائعاً أن يعطيك ثلاث مرات في اليوم.

أنت ترى التوافق، من كان جائعاً، وأن يعطيك ثلاث مرات في اليوم.

كان والدك ذلك الحيوان، يا بني. جعلني أضحك مثل الحمقاء. ضحكة سببت لي الحازوقة وكل شيء. ضحكت، ووالدك انتهز الفرصة ليقترب أكثر فأكثر. حتى إن الواحدة منا كانت تضع مرفقيها للأمام لتحديد مكان لها كما علمتني والدتي، لكنه عاود بعد قليل الاقتراب أكثر.

- إميريتا، من كان لديه إسمنتٌ لدعم هذا التمثال.

القطع الثلاث التي ألقيناها كانت سخيفة هكذا، كما ترى، أعتقد أنه أحضرها جاهزات من المنزل وكل شيء.

لأن والدك لم يكن ذكياً، لكنه كان مسلياً مدّةً من الوقت.

أمسك بي من خصري في كومة القش، وغنّى لي أغاني الكوبلاس. أخذ قشة ودغدغني في الأذن. كان لديه بعض الأصدقاء الذين كانوا معروفين في جميع أنحاء الوادي، وعندما كان يصل المحصول، إذا كان والدك موجوداً، ضحك الجميع، وبدا أن العمل كان أكثر احتمالاً.

الآن أعتقد أننا أحببنا بعضنا بعضاً حتى توقفنا عن الضحك.

أتتوقف عن الحب لأنك توقفت عن الضحك؟ أم تتوقف عن الضحك لأنك توقفت عن الحب؟ في حالتي، أعتقد أنها كانت الأولى في حالة والدك وكانت الثانية.

لم تبق أي واحدة منا نحن الثلاثة عوانس، لأن تزوجت غلوريا من خيرمان، تزوجت لويزا من أندريس، وأنا تزوجت من والدك.

في الأول كانوا يقولون: نعم أنني سأبقى لألبس في عيد قديسي الثلاثين وبضع سنين.

ثم إذا كنت قد تزوجت، فذلك لأنني كنت حاملاً.

ثم إذا لم أحمل، فذلك لأنني لم أكن أستحق ذلك.

ثم... ثم أنت تعرف.

هكذا هم في القرى. فمهما فعلت، فإنهم يضعونك على المشوى مثل القديس لورينثو.

الشيء الوحيد الذي يمكنهم قوله هو أنني كنت أطول بنصف رأس من رامون، ذاك نعم، أي نعم.

وكما أننا كنا نبحث عنك كثيراً من الوقت، لكنك لم تأت. ذاك يمكنهم قوله، وأن أسمعه أيضاً ما قالوه بعد الالتهاب، لم يعد مهمّاً. فبسبب مرض الزهري بقيت صماء إلى الأبد. وعندئذ توقفت عن فهم أشياء كثيرة، لكنني استوعبت أشياء أخرى.

ذهبنا إلى الأطباء في قرى أخرى، لجأنا إلى المعالجين الذين وصفوا لي كمادات من الأعشاب المنقوعة في النفط والبول.

وفي النهاية، ترددنا لرؤية متخصّص الأذن والأنف والحَنْجرة في العاصمة. حين أجروا لي عملية جراحية في الأذن الوحيدة التي كنت أسمع بها شيئاً قليلاً، لقد تركوني صماء تماماً.

هبط الليل علينا قليلاً، ودخل علينا البرد في البيت. لأنه يبدو أنه عندما لا يوجد كلام ولا ضوضاء، فلا وجود للنور ولا للحرارة. لم نصل لأن نصبح فقراء، لكنه لم يفض علينا شيء. كان يقضي رامون وقته في الحقل، أو في موقع بناء، أو في الكازينو. كنت أبحث عنك في كل ليلة جاء فيها والدك. بالرغم من أن رائحته كانت نبيذ الأوروخو ودخان التبغ، بالرغم من أن رائحة عرقه كانت رائحة الحقل أو الصيد، كنت أبحث عنك بالرغم من ذلك. كان هناك أناس في القرية أفقر منا، وهؤلاء الناس لم يشكوا قطُّ.

في ذلك الوقت شعرت بالذنب بسبب الصمم الذي أصابني لأنه بدا كما لو أنني تركت والدك وحده في ذلك البيت حيث كنا نعيش كلانا.

وصل إلى المنزل متعباً، في وقت متأخر من الليل، قبلني على وجنتي، وغسل يديه في الطشت، ووجد الطاولة معدة، وترك حذاءَه الموحل عند أقدام المدخنة، كنا نجلس لتناول العشاء معاً بجوار النار، وبعد ذلك كان يدخن تبغاً ملفوفاً.

كنت أقول له أي شيء، رافعة رأسي من العمل، وكأنني أستطيع الإصغاء لجوابه.

وعندما أخبرني للمرة الثالثة شيئاً لم أفهمه، عندما أومأ برأسه، وأمسك قلماً، وعمل رسماً أو بعض الكتابات غير المتقنة لمحاولة شرح السبب. لأني لم أكن أعرف الكتابة، عندما بدأ يغضب شيئاً فشيئاً، وأعتقد أن الأمر انتهى به بالصراخ، حينئذ أقول، إنه أخذ معطف الفرو من خلف الباب، وكان يخبرني وهو يرفع ذقنه: أنه كان ذاهباً للعب ورق الشدة أو الأخنس، وقد فهمت ذلك من أول مرة.

لقد مضت عشر سنوات في البحث عنك.

أعتقد أنه لم يكن خطئي. ولا هو كذلك، بالطبع.

أو نعم.

كان لغلوريا طفلان ولويزا ثلاث. لقد خطت للخمسة عدة حفاظات بالأحرف الأولى من أسمائهم. عندما كنت أعود من المساعدة في الحقول، أو أكون قد أنهيت كل عملي في المطبخ، فكنت أمر على بيوتهم بحجة جلبي بعض الطماطم أو العنب، وكدت ألتهم الأولاد من القبلات. كان سيمرض أبوك إذا اكتشف ذلك. لهذا فقد فعلت ذلك سرّاً. كنت أحسدهم على ضجيجهم، وعلى حركتهم، ومن رائحة القمامة والقذارة. لقد ظللت أنتظر.

لكن كما ترى فإن الولادة كانت شيئاً مختلفاً.

في المرة الأولى التي جاء فيها في حالة سكر، شعرت بالخوف.

في المرة الثانية، غضبت.

في المرات القليلة التالية التي جاء فيها ثملاً، شعرت بالأسف تجاهه.

وفي المرات الأخيرة، الخوف.

عندما نام أخيراً، والذي كان سريعاً جدّاً، فأعدت كل شيء إلى مكانه، كيلا يدرك في صباح اليوم التالي ما حدث لنا. لكنه لاحظ ذلك.

استيقظ مبكراً جداً. ذهب عابساً ونادماً إلى الزريبة.

دخن هناك سيجارة. ثم ذهب إلى المطبخ، وفتح الخزائن ليرى ما هو ناقص. كان يبحث في القمامة. اقترب لينظر إلي. كان يضع يده على وجهي ويناديني بالجميلة. تناول الفطور معي ورفع طبقه. وبعد ذلك، في الغداء أو العشاء، أحضر لي باقة من الخزامى أو أرنباً. في تلك الليلة التالية، لم يخرج.

لكن بعد يومين أو ثلاثة، خرج مرة أخرى وعاد أسوأ. إن عاد.

حتى كانت هناك هدنة، أي راحة، استراحة. الشيء نفسه عندما تكون السماء صاخبة لبعض الوقت، وفجأة تشرق الشمس. لقد بدأت تلك الليلة عندما أخبرت والدك أنك كنت قادماً.

- إن دورتي غابت مرتين، وأنا حامل.
- «هل أنت متأكدة يا امرأة»؟
- هيا. حسناً بالطبع أنا حامل.
- أهو ابن؟
- «أو ابنة، لا يهم».
- «أنا أفضل الابن».
- «حسناً، فليأتِ مهما كان».
- بالطبع. أن يأتي أيا كان، سنرى.
- وبعد بضع ثوان من الصمت، نطق الأحرف ببطء: لكن هل أنت متأكدة؟
- أنا متأكدة، كما أنا متأكدة من اسم والدتي هو إميريتا، مثلي تماماً.
- ألست سعيداً يا رامون؟
- «بالطبع يا امرأة. لكنني اعتقدت بالفعل أننا لا نستحق ذلك، أعني، ولداً صغيراً».
- «أو بنت».

- غلام واحد ربما يشبه عينيَّ وشعري وأذنيَّ، وعلى الأغلب ذكي مثل الشيطان، ويذهب للصيد مع والده، أو يتسلل إليك، ومن يدري، أو ينتهي به الأمر. في مدريد في وضع جيد.

ومن ثم حملني وبدأ بالرقص. وقد دار بي عدة مرات من قبل أن ينحني القرفصاء، ووضع كلتا يدي على بطني. وأدارني مرة أخرى وضحك. وقد قال لي من ذا الذي كان اسمنتاً لصنع هذا النصب.

احتفل بذلك بالذهاب إلى الخزانة، وقدم لنفسه نبيذ الأوروخو.

- اشرب أنيس، تعال.

- أنا؟ وفي حالتي؟

- بللي شفتيك.

- «لكن لا شيء أكثر، إيه».

- يا امرأة. إنه جيد للدم. يقولون إنها تجعلهم أقوياء. هيا تعالي. - قدم لي كأساً صغيرةً -.

- لنشرب نخب الصبي.

ونشرب النخب. وشربنا ذلك القليل. سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً للعودة لرؤيته يفتح زجاجة.

مدّةً من الوقت، عاد والدك ليصبح والدك مرة أخرى.

لم يفعل شيئاً سوى وضع الخطط على حسابك، ماذا لو كان لا بدَّ من إصلاح التسريبات، وعن إيلينا، القابلة، يجب أن يتم إخطارها مسبقاً، وأنه إذا كان عليّ أن آكل ضعف الكمية، وإذا كان عليه أن يصنع لك بندقية خشبية، وإذا كنا بحاجة إلى صوف فرشتك، وإذا كانت هناك حاجة لمزيد من الحطب. كانت من الحمى أن أراه مع مهد الكستناء. كما لو كان سيأتي الطوفان، وكان عليه أن ينتهي قبل وصوله.

وقد أنهاه، بالطبع، وخرج للاحتفال به في الكازينو بعد شهور لم يدخله فيها. وتلك الليلة أضاع أجره لبضعة أيام على ورق الشدة. وقد ضاع هو. وجاء الطوفان، يا بني، ولكن أمسك به هناك.

شرب والدك رامون الكمية العادية. في بعض الأحيان، شرب نبيذاً سيئاً، وغضب جدّاً. كنت أعرف أن الذي دخل من الباب وهو يترنح لم يكن هو، أن ذلك الرجل الذي كسر الأشياء في المنزل لم يكن هو، وأن كل ما حدث لاحقاً لم يكن والدك أيضاً. بل ما أعرفه أني كنت قد أدخلته إلى الداخل. عندئذ أغمضت عيني، وكنت أفكر في كيف كانت أغنية أنطونيو ماتشين. كنت قد تذكرت بدايتها، لكن كنت عند الوصول إلى الجملة الثالثة لم أكن أذكر شيئاً.

لذا وعيني مغمضة بشدة حاولت أن أتذكر، وتذكرت.

من كان جائعاً، قال لي في الرقص، أن أناولك ثلاث مرات في اليوم.

ثم بعد ثلاثة أشهر من العثور عليه ميتاً في بئر، وُلدت لي.

* * *

شجرة الكرز حيث دفنوا المشيمة أصبحت مغطاة بالزهور البيضاء حتى أعلاها. لقد نمت على حافة قبرك بعض شقائق النعمان الحمراء. أقوم بجمع باقات الزهور وأهديها للفتيات.

بالأمس، ذهبت مع نجل الآنسة مرسيدس إلى المقبرة حيث أنت لوحدك، لأن والدك حملته عائلة والدك إلى قريته، لأنهم كانوا يقولون إن هذه القرية كانت ملعونة. أنت أصغر قبر وأعظم ألم.

سألني نجل الآنسة مرسيدس وأخبرته بما حدث. وإن لم يكن كل شيء، لأنه إذا تحدث الناس بالفعل دون أن يعرفوا، فسيتعين علينا أن نرى ما سيقولونه إذا كانوا يعرفون حقاً. أنظر إليك وأتساءل عما إذا كنت تعتقد أنه من الجيد أن أخرج مع الصبي، ألبسه، وأمشطه، وأدعه يفوز بالبرجيس، وأن أناديه كوريته، كما أناديك، أن

يجعلني متحمسة لما سيكون عليه، وأريده أن تكون ذكياً ومرحاً. لا أعرف ما إذا كانت الأم يمكنها أيضاً أن تكون غير مخلصة لابنها كما للزوج. لا أعرف ما إذا كنت تغار تحت الأرض. قليلاً مثل هؤلاء الرجال الذين لا يريدون أن ترقص زوجاتهم مع الآخرين.

أنت كما أنت لأننا لم نمنحك الوقت لتكون أكثر. لكن أعتقد أنني الآن أفضل أم، يا ولدي. لقد تعلمت الكتابة بشكل جيد، لقد أخبرتك بالفعل. لا أدع أن يحدث له أي مكروه. أما أنا فلا أضع يدي عليه. أنا حتى لا أنام معه. لا يوجد عرق لأن الآنسة مرسيدس لا تشربه. وناتاليو يشرب كأسين فقط من النبيذ. أتخيلك هنا وأراك يقيناً.

خلال نصف ساعة على الأكثر سيدخل من الباب، وسينادي بإميه وسيطلب مني وجبة خفيفة مني أنا وليس من والدته. وبعد ذلك سيشغل التلفاز لبعض الوقت، وسيكتب واجباته معي وأمامي، بينما أقطع بعض الفاصوليا الخضراء، وبعد ذلك سيخرج مع أصدقائه، وسأكون خلال ذلك معلقة بالوقت. وبينما يأتي، سوف أرتي جواربك، وسأخيط أسفل سروالك، لأنك نموت كثيراً في هذا الشهر. في الليل سوف تعطيني إملاء. وبعد ذلك سأصلي صلاة الزوايا الأربع لحفظ المنزل.

ماذا تريد مني الآن؟ ماذا يمكنني أن أفعل الآن؟ كم عدد الأشخاص الذين يسعهم قبر صغير جدّاً؟

لا توجد أم على استعداد لأن تفقد ابناً. لكن الشيء الصعب هو أن يكون لديك ابنٌ آخر وأنت تعرف أمراً: أنك ستفقده على كل حال.

* * *

أكرر لك، أتذكر كيف ولدتك يا بني، أتذكرها كما لو كانت الآن، ولكني لا أتذكر كيف قتلتك، وأنا أعيش بفضل ذاك النسيان.

في تلك الأشهر الثلاثة التي تأخرت في المجيء، وفي الأشهر التسعة من حياتك، لقد فهمت والدك كما لم يكن قطُّ بعد موته. الحمل الذي يتحمله الرجل على ظهره، وما عليه أن يفعل ليحافظ على الأسرة، السهر ليقدم الطعام وإبقاء النار مشتعلة، شرب النبيذ السيَّئ يعني من أنك لم تبلغ الأجر الكافي في هذه القرية.

كنت حاملاً في الشهر السادس وترملت للتو. لقد رحل رامون. وكما يحدث ذلك في تلك المشاهد لمهرجي السيرك، شيء يذهب من خلال أحد الأبواب، ويدخل آخر من الباب الآخر. اسكت، اسكت. إنهم المهرجون. أعني أن والدك غادر، والوحدة أتت والمزيد من الوحدة، والخوف والمزيد من الخوف، وانعدام الأمن والمزيد من انعدام الأمن، والقيل والقال والمزيد من القيل والقال. لحسن الحظ أنك جئت لتكم الأفواه.

أخبرتك أنني فهمت والدك كما لم أفهمه من قبل لأنني كنت والدتك، لكن كان عليّ أيضاً أن أقوم بدور الرجل، ألا تعتقد ذلك. أمي كان لديها ما يكفي من والدي. جدتك من أبيك، حماتي، عاتبتني بأنني أفسدت رامون. لذلك كنا قد بقينا أنا وأنت، كوريته. فقط نحن الاثنان في منزل من الطوب.

واعتدّتُ صمتك، وأنت اعتدّت على ضوضائي. كنا ذلك الطين الصامت.

أكرر لك أنني كنت متعبّة جدًا، افهمني. إنَّ كل شيء بدا لي وكأنه عالم وحدي وأنَّهُ دون الرجل تضيع المرأة.

ليتك تعرف كيف تغفر لي.

أرضعتك، استحممت معي، لقد حملتك في سلة إلى الحقل للعمل، لقد عالجت سعالك، صنعت ملابسك، أزلت لك الديدان، خيطت في البيت لأكسب المزيد، عملت بالزعفران، نظّفت مكان دون أوبالدو، الذي طلب مني مهامَّ أخرى، باختصار، لقد حلبت، وغسلت الملابس يدوياً في غرفة الغسيل، وزرعت المحاصيل في الحديقة، وصنعت الأكمام والأغطية لكي تأكل، وفي النهاية، كان عليك أن تشتريَ بالدين من متجر ما وراء البحار.

ستتخيل أنه لم تكن هناك مشاكل أثناء طلب البطاطس أو الخضار أو الرنجة أو الأرز. حتى سألني السيد لويس ذات صباح:

- لماذا أردت زجاجتين من كينا سان كليمنته وواحدة من الأنيس (اليانسون)، إذا كنت قد طلبت عدة زجاجات قبل ثلاثة أيام فقط.

- وأنا بماذا كنت سأبلل المصاصة، يا حياتي.

وقال السيد لويس: - وحتى إذا بللت المصاصة كل خمس دقائق.

- وأنا قلت: ما هي الأشياء البديلة التي لدي؟

وقال السيد لويس: - ولماذا تريدين زجاجة أخرى من اليانسون؟

وقلت له: - كي أصنع الكعك.

قال: - الكعك!

نظر إليّ وأعطاني إياها، وأخبرني أنها كانت آخر مرة يبيعني بالدين فيها. ولكن في وقت لاحق

عاد بعد أيام قليلة، وعاد بيننا السلام في الخلف، وعاود بيعي بالدين مرة أخرى.

وصحيح أنني صنعت كمية من الكعك في إحدى المرات. كما أنني حقيقة كنت أبلل لك المصاصة.

استعملت الكينا سان كليمنته، تماماً كما علمتني والدتي والقابلة. على الرغم من أنني لاحقاً شعرت بالتعب الشديد والوحدة الشديدة والحزن الشديد، وبدأت في فهم والدك.

ماذا كان سيبدو لو أن والدتك تسمع ولديها سيارة؟ أو إذا كان والدك يعمل بمصنع في مدريد وليس في الحقل؟ وماذا كان سيحدث إذا كان لديك حقّاً شخصٌ يعتني بك؟

سامحني، أنا أكتب لك لتسامحني لأنني أعرف بالفعل كيف أكتب ولا تعرف القراءة. لكن بطريقة ما يجب أن أخبرك.

كنت قد أخبرتك أنني فهمت والدك لأنه حين تفتقر إلى الدفء من الخارج، فإنك تبحث عن الدفء

من الداخل.

لقد فقدت أنا الحرارة من الخارج منذ فترة طويلة، ولم أكن حتى مع والدك، هذا أمر مؤكد. لا بدَّ لي من الاعتراف، ولا حتى عندما كنت أبحث عنك. لهذا السبب كان البحث عن الحرارة في الداخل. لأن البرد ينبع من الوحدة والفقر والصمم. وإذا بدأت أفعل مثله. ذهب رامون لأنه جعلني أكثر سعادة، وعلى الأقل في ذلك الوقت اعتقدت أن كل شيء سيكون لنا أفضل بكثير.

نحن الثلاثة: السكير رامون. العملاقة الصماء التي بقيت أرملة. والطفل بلا أب. مساكين مثل الفئران. في منزل من الطوب اللبن في الضواحي. ثم ذهبت إلى الخزانة ورأيته أقل سواداً يا بني.

أعتقد أنها كانت أسعد أوقات حياتنا العائلية. فليغفر الله لي، ولكن لم أر نفسي أموت دون رامون، مستحيل، بالعكس. في تلك الأوقات التي أرضعتك فيها، كنت أغطيك ببطانية، كنت أضعك في مهد والدك لفترة، وأقربك من النار معي، ولاحظت حلاوة الفم، غلبنا النعاس، وجعلنا ننام عميقاً.

أقول فليغفر الله لي، وأنا أقول فلتسامحني أنت. لأنني في بعض الأحيان كنت أستيقظ، ولم أكن أعرف حتى كم لك من الوقت وأنت تبكي. وكيف لي أن أعرف، يا بني.

ثم في اليوم التالي سألتني الجارة: - ما خطب الصبي؟ الذي هو أنت، فقلت لها: - عجباً وأي خطب يمكن أن يحدث له؟ وقالت: - إن بكاء الفتى لم يكن طبيعيّاً، بكاء طويل جدّاً، ومسعور جدّاً. - قالت مسعور كالكلاب. إن ذلك منحني الشجاعة وعلى ماذا. ثم أجبتها على ما كنت أفكر فيه وفي الليل حضرت والدتي لفترة من الوقت، حسبما كانوا قد أخبروها القصة.

لكن في اليوم التالي كنت أنا وأنت فقط مرة أخرى.

أفترض أنهم سيقولون إن الأرملة الصماء لا تستطيع ذلك، لكن أنا يمكنني ذلك. وهذا كان يجعلك مستحيلاً، يا كوريته، إنها أم ليستْ شيئاً آخر، لكن عليها أن تقول الأشياء كما هي.

لقد أصبحت مستحيلاً فجأة لم أحسب له حساباً، عندئذ ذكّرتني بوالدك حين ذهب غاضباً إلى الكازينو. ذلك الرجفان، ذلك النوم السيئ، تلك الطريقة في البكاء كما لو كانوا قد أخذوا منك شيئاً لا يمكنك العيش دونه.

لقد كان مغصاً، كما أقول، ماذا كان يمكن أن يكون.

أشاروا عليّ أن أضع عليك طيناً أخضر، وقد وضعته عليك. أشاروا عليّ بالماء المحلى بالسكر، وبسبب نقص السكر الذي لم يعودوا يبيعونني إيّاه بالدين، وضعت بضع قطرات لك من الكينا.

أشاروا عليّ أن احتضنك كثيراً، وأنا عانقتُك كما لم يحدث من قبل.

لكنك ظللت تبكي، لقد قلت لك، كما لو كنت تفتقد شيئاً.

وهذا لأنني لم أسمعك يا بني، لكنني كنت أرى كل وجهك أحمر. وقد احتضنتك قليلاً حتى تخرج منك الغازات، والمغص أو أي شيء كان بداخلك مثل الشيطان. ومن ثم أنا أحضنتك مدة أكثر قليلاً.

وتركتك في مهد والدك، وبعد ذلك عدت. وكنت قد أعطيتك من كل شيء. وقد تابعت هزك كي تتوقف عن البكاء. ببطء في البداية، ثم أقل بطئاً. لأنني لا أسمعك، لكن القرية بأكملها كانت تصغي إليك ولم أعد أحتمل أن يتحدثوا عن أمك أكثر.

في النهاية بقيت نائماً، وكنت أحملك إلى جانب النار، هذا إذا كان قد بقي شيءٌ من الجمر. عطّيتُك ببطانية وقد ارتحت. أعتقد أنها كانت هذه الأوقات أسعد أوقات حياتنا.

* * *

يا بني، عمرك تسعة أشهر وفي هذه الأيام من كانون الأول تواجه مرضاً في أنابيب الشعب الهوائية. وأخبرني أحد الممارسين أن أفرك صدرك بمرهم جديد كتبه على ورقة يسمى بيبابوروس ولكنني لم أستطيع شراءَه. كما أنني لم أستطيع شراء السكر أيضاً. ولا السمك ولا الفلفل الحلو.

لقد حصل لي دون أوبالدو على المرهم، الذي ذهبت إليه مع الاسم المكتوب على الورقة ولم يقبض مني مالاً.

في هذا اليوم كنت أنظف في منزل المعلم، وفي الحديقة كنت أزرع السلق والبازلاء، والفول والبصل، ذهبت إلى غرفة الغسيل مع سلتين (واحدة مع الملابس والأخرى معك)، وقد أكلنا ما تبقى، انتهيت من كنزتك، وغسلت يديَّ، ودهنتُك بالمرهم، كما هو الحال دائماً، وهبط علينا الليل في الساعة السادسة مساءً.

كان الجو بارداً جداً، ولدينا القليل جدًا من الحطب، يا بني، لذلك يتعين علينا القيام بكل ما يلزم لنبقى دافئين. وأنا أضع عليك ملابس أكثر الآن. وأنا أتدبر أمري بأقل من ذلك. كلانا هادئ في هذه اللحظة، نحن نتأمل الجمرات الأخيرة. أنت لم تنم بوجود خرخرة في صدرك، لكنك هادئ. عياناي انهدلتا. أشم راحتي بالمبيض. أنا متعبة جدّاً وأنا ذاهبة لأخذ قيلولة صغيرة. أنت منذ مدّة لا تنام إذا لم تكن معي. أنت تنظر إلي. وأنا آخذك بيدي إلى غرفة النوم.

الجو أبرد في الغرفة أكثر من بقية المنزل، لكني أخبرك، إذا لم تنم في هذا السرير فلن تنام في مكان آخر. مهد والدك المصنوع من أشجار الكستناء لم يستخدم منذ مدة طويلة فقط لوضع الملابس البالية فيه.

أضعك في وسط السرير مع وسادة على طرف واحد حتى لا تسقط وأجلس على طرف بينما أنزع حذاءك، وأرتدي قميص النوم. أثبت نظري في النافذة خلال ذلك. تتحرك فروع شجرة الدراق بالخارج. شعرت بيدي متجمدتين وخدودي حمراء. قرصت خديك. مرة واحدة. اثنين. ثلاثة.

حتى أخذا كذلك قليلاً من اللون. أنت الآن تمسك إصبعي السبابة بقوة شديدة. وتبتسم.

اللمبة المتدلية من السقف تعطي ضوءاً ضعيفاً جدّاً. فقط عندما تمر فترة أراك بالمزيد من الوضوح. أنت لا تشبه والدك. لديك ثلاث أسنان. شامتان فوق الشفة. أنت لديك شعر أفتح. ويجب أن تسمع جيداً، لأنني أصفق بيدي بشدة وأنت تخاف.

- لا تَبْكِ بعد الآن. يا كورو. نعم، نعم، نعم، حياتي.

اضحك. أنا أدغدغك من رقبتك. وانت تضحك مرة أخرى. جيد.

الآن سأغطيك جيداً، وسأجلس بجوارك. أفعل، وأدخل وأضغط على مفتاح المصباح لإطفاء الضوء.

ألاحظ دفئك، وركلك وتحرشك. أعتقد أنك تشعر بدفئي أيضاً. نحن حضنا بعضنا لبعض. استدرت إلى الجانب. تفوح منك رائحة الحليب والنعناع. بذراع واحدة أغطيك كما لو كانت خيمة هندية. يدخل ضوء من الشارع، ويصيبك في الوجه. لا تزال عيناك مفتوحتين، أيها المحتال.

وفجأة سهوت وذهب النوم مني. أفكر في هذه اللحظة التي نام فيها والدك على الجانب نفسه الذي اتخذته، وسيصادف الثلاثاء عام على موت رامون؛ وغداً يجب أن أذهب إلى محل متجر ما وراء البحار لأشتري من السيد لويس، لأرى إذا كان سيبيعني جزءاً بالدين. أنت تسعل.

لا أعرف كيف يصغي صدرك، يا بني، لكني أعرف كيف يتضخم وينكمش: تماماً مثل عندما تلد شاة، كما لو كان لديك منفاخ يتحرك من تلقاء نفسه.

أنت تسعل وتسعل وتسعل، وتتساقط دمعتان من هذا الجهد. احترس من البلغم.

أضعك على جانبك.

أضع وسادة أخرى خلفك.

تعال مع والدتك.

أصلي لك بصوت منخفض، وأن يحفظك الله ومريم. الآن سأقبلك على جبهتك وليبارك ثمرة بطنك يسوع. لديّ النافذة خلف ظهري، وأدعو لنا نحن المذنبين. بينما أقبلك وأنا أنظر إليك في رهبة، تنعكس ظلال الشجرة على وجهك، الآن وفي ساعة موتنا آمين.

أنا أنظر إلى الظلال ولا أعرف حتى الوقت. ثم أنام.

أنا نائمة بعمق، وأنا الآن في هذه اللحظة لا أحلم بأي شيء آخر يا كوريته.

ما يعني أني سقطت مثل الجرذ الأصم الذي يجب أن يكون جرذ أكثر من أي شيء آخر.

لا فكرة لدي عما تفعله أنت أثناء نومي، لا فكرة عما تحلم به، أو إذا كنت تحلم، لا أعرف ما إذا كنت تسعل الآن أو إذا كنت بحاجة إليّ. إذا كنت تريد المزيد من الدعك أو إذا عاودك الجوع.

أقول لك لأنني نائمة مثل شخص ميت تماماً مثل امرأة ميتة لا تشعر ولا تعاني يا بني.

أستيقظ وأشعر بالراحة، كم كنت في حاجة لهذه القيلولة، كان يجب أن تكون القيلولة أكثر عمقاً. والآن لا أعرف جيداً أين أنا.

إنه شعور لن يدوم لي أكثر من خمس أو ست ثوان، ثم سأعرف.

في شهر كانون الأول، أنا في غرفة من البيت. أخذت قيلولة مع كورو. يبدو أنه قد مرت ساعتان تقريباً لأن الحطب قد نفد. نحن نفتقر إلى القليل من كل شيء. لكن لدينا أنت وأنا.

أشعر بشيء في الأسفل. إنه نوع من الدفء وصغير. وأنا انتصب وأضع ذراعي هناك.

ويدي تلمس وترتجف وتنتقل وتتعرف وأقفز للخلف.

قلبي يتسارع وصدري سينفجر. أنا أعاني ضيقاً في التنفس. أنا أتعرق بطريقة غريبة. أشعر بالدوار.

في ثانية كل هذا سيحدث لي.

وفي ثانيتين سأكون قد أشعلت الضوء، ولكن سينطفئ العالم.

أنا أحرك البطانية وأراك. طفل رقيق، أديرك، طفل شاحب مثل لون الطحين.

طفل وزنه ثمانية كيلو مضغوط تحت ثمانين كيلوغراماً.

ماذا حدث لك؟ كيف لم تدافع عن نفسك ضد والدتك؟ هل ستسعل؟

اسعل يا بني. ما تزل تفوح منك رائحة الدواء ورائحة الحليب. اسعل.

اصرخ. أكثر وأقوى.

لقد مرت عشر دقائق وأنا أصرخ على ركبتي في السرير وأحرك جسدك، أهز، وأنفخ في فمك، وأضرب صدرك.

أصرخ كأنني ألقي المشيمة في حلقي. لا أعرف كيف أصرخ لأنني لا أستطيع سماع نفسي. لكن فمي طعمه دمٌ.

أنا أصرخ بجنون يا بني. مثل صماء. وأنا أهزك وأنا أحركك في الهواء.

ورأسك يتدلَّى إلى طرف مثل دب من القماش.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(هو وهن)

في ذلك الصباح البعيد، أخبرني توماس أن أكون حذراً مع إميريتا، لكن في الحقيقة هي من يجب أن تتوخى الحذر معي. وليس فقط لأني سرقت بعض البيزيتات من حقيبتها، أو وضعت لها إملاءات قوية بشكل متزايد، بل أيضاً لأنني لم أسمح لها أن تستريح مع نزهاتي إلى ما وراء أشجار اللوز.

استسلمت والدتي وأطلقت العنان لي. لكن لم تتراجع السيدة إميريتا، وتشبثت برغبتها في مرافقتي. ما حدث لأخواتي لم يحدث بالطريقة نفسها. احتمالية حدوث شيء لي - كسر في العظم، ضياع في الجبل. تسبب في حادث - كان يعنيها حتى أعمق الأمور حتى جعلها تعيش معي في قلق في كل مرة لم تَرَني فيها.

ستبحث عني في البحيرة. في القرية المجاورة. في الطاحونة القديمة التي كانت تنهار. أعتقد أن تلك المرأة كانت ستتبعني بالنعال المنزلية إلى نهر بيكوس، والذي لا أعرف أين يقع، ولكن من المؤكد أن الهنود خيموا في هذا المكان.

وإذا كان هناك هنود مخيمون، كانت هناك سهام.

وإذا كانت هناك سهام، فإن الإميريتا ستضع نفسها في المنتصف حتى لا تصيبني. في الصدر المكشوف. مع قدمي المنتفخة مثل جلود النبيذ، بعدما أمضت وقتاً في البحث عني في القرية وفي الطرق.

حتى ستبحث عني في معرض وراء مؤخرة ساريتا، فقد كان أول جسد أنثوي واجهته. بعد ظهر ذلك اليوم، عندما رأيتها عارية، كان لدي الإحساس نفسه بالخطيئة المميتة عندما رأيت شعر رأس عمتي الراهبة.

لقد جئت من لعب كرة القدم في الحقل الأبيض مع دوس بيلاس، وركضت إلى الحمام، فتحت الباب دون أن أطرقه، وها هي كانت خارجة من البانيو مثل فرس

النهر. في فيلم وثائقي، وخلال ثوان قليلة. لم أستطع أن أبعد نظري، وقد عدّلت المنشفة بلا عجل من فوق الثديين الذين كانا كبيرين جدّاً ومتدليين. لقد ذكراني بقربتين من النبيذ معلقتين في القبو، لكنها مقلوبة فقط:

مع الفوهة للأسفل. لقد احمر وجهي جدّاً حتى بدا أن بلاط البورسلان أصبح مضيئاً.

لكنني ظللت أفحص جسدها. وضحكت هي مدّة كانت تجفف نفسها دون أن تختبئ.

- حسناً يا بني، حتى لو كنت قد رأيت شبحاً.

في الأطالس المدرسية المعلقة في المدرسة على مرأى الجميع، تلون سلاسل الجبال باللون البني الغامق، والهضاب صفراء، والأنهار هي تلك الخطوط الشاذة، وهي بشكل عام زرقاء اللون، تنتهي بالوصول إلى البحر.

ثم فكرت أن الجسد العاري مثل الذي أمامي هو الخريطة نفسها. شخص متشقق أخبرك بأشياء لن تراها لولا تلك الطريقة. الكثير منها حتى، إذا نظرت عن كثب، أشارت لك إلى المنطقة التي خيم فيها الألم، وندوب الحروب الماضية، والحوادث الشخصية بدلاً من الحوادث الجغرافية.

تتحدث حروق خريطة أختي فيرو عنها. وعن خريطة أختي إيسا فإن شقاً أحدثته في جبينها عند سقوطها وهي تستدير يتحدث عنها. وذات الشيء عني كانوا يقولون أشياء كثيرة مثل ركبتيّ معلمتين بالندوب. خريطة إميه - خريطة العالم التي كان عريها الوحشي - متضمناً تلك الأنشوطة عذراء الكارمن الذي لم تخلعه قطُّ، بشرتها شاحبة مع عروق صغيرة خضراء اللون، العلامات الصغيرة التي كانت تنتشر على ظهرها وبطنها مثل عجلات الجرارات الصغيرة.

- «المس هنا، كوريتي، إنه لا يعض». أمسكت بيدي ووضعتها على علامة منحنية. لمستها. بخوف.

عندما رأيتها مرة أخرى، كنت أعرف بالفعل أنها كانت أكثر بكثير مما تراه العين أو بشكل أفضل:

أنها كانت بالضبط ما لم نَرَهُ. ما لم تخبرنا به. ما لم نتخيله. ما قالوه إنَّ الألم يذهب إلى الداخل يشير أيضاً إلى الجلد المادي. لهذا السبب ارتدى الأشخاص الملابس: حتى لا يلتقطوا قروحنا ويجعلونا نتذكرها. أعطتني تلك العلامات يويو، وظلت ذكراها معي حيناً.

في تلك الليلة سألت والدتي. وقد أخبرتني بما فيه الكفاية حتى لا اسأل ما هو مهم.

* * *

كانت الأشهر الأخيرة من العام الدراسي عبارة عن عد تنازلي سريع، تماماً مثل العد التنازلي المنحدر. كما لو كانت أشياء مهمة وآمنة تنهار كل يوم.

على الرغم من العلامات الواضحة، فقد خططت مع أصدقائي كما لو كانت روابطنا أبدية.

- «هل ستطلب من سوفراخيو الخروج معك»؟

- «ربما في العام القادم».

- يقولون إن السنة الدراسية التالية صعبة جدّاً.

- حسناً، سترى التقسيمات مع الاحتمالات.

يريد الطفل ذو العقل السليم انتهاء العام الدراسي. وأنا تمنيت ألا ينتهي العام الدراسي أبداً. كنت أريد ذلك بشدة. ذات الشيء لمن يتوسل كل ليلة أن يأتي فيها الملوك السحرة مع الهدايا، أو من يدعو لأخيه المريض ألا يموت.

لأنه في تلك النهاية كان هناك شيء مأساوي لا يمكن إصلاحه. ولم يكن كإغلاق باب أو كتاب، والأشياء التي يمكنك إعادة فتحها بتمريرة. لا كان يدفن شيئاً، وإغلاقه إلى الأبد. شيء، حتى لو استخرجته مرة أخرى بعد عام أو عامين،

فلن يكون هو نفسه لأنه كان سيتغير بشكل جوهري: لن يعود فيستي خيسوس هو ذلك فيستي خيسوس، غريغوريو لن يكون غريغوريو بعد الآن، سيكون لسوفراخيو خطيب رسمي، إذا كانت هناك انتخابات أخرى، لن أضع ورقة الاقتراع.

كان أن تدفن شيئاً يمنحك الحياة في تلك الأشهر التي تطل فيها الطفولة على ما قبل المراهقة (التي كانت طريقة والدتي في تسمية الزغب). وهو شيء اضطروا إلى بتره فجأة لأن البالغين أرادوا ذلك حقاً، نهاية بقفزة إلى الأمام، وبفصل نهائي. لأنه في مكان آخر يمكنني تكوين صداقات جديدة، تدشين بيت جديد تماماً به تدفئة مركزية، الذهاب إلى كالديرون أيام الأحد، نعم. لكن هناك أشياء لا يمكنك القيام بها. وأكثر من ذلك في هذا العمر حين لا يمكنك التعامل مع الجميع.

لم يكن عليك أن تكون ذكياً جدّاً لتدرك ما كان يحدث. لكن كما لم تستطع إميه السماع، لم أكن أرغب في الرؤية.

لم يكن الأمر يتعلق فقط بنفاد الحطب ولم يعد والدي مسؤولاً عن جمعه حين كان يأتي في عطلة نهاية الأسبوع. كان الحج البطيء للجيران الذين جاؤوا ليقولوا وداعاً والتدهور التدريجي للحياة في البستان. تترك شيئاً يموت عن قصد.

كنت لا أزال طفلاً، لكنني تعلمت شيئاً واحداً: عندما تصل إلى مكان ما، تفعل ذلك فجأة، لكنك تستغرق وقتاً طويلاً لمغادرته. تذهب شيئاً فشيئاً. تذهب الأشياء أولاً، لأنك تحتفظ بها ولم تعد تراها لديك، ثم يذهب الأشخاص الذين تودعهم والذين تعطيهم الإشارة. وفقط في النهاية تغادر أنت.

لكن ليس جسدياً في اليوم نفسه الذي تغادر فيه، فذلك مستحيل. لكن شيئاً فشيئاً، مع بطء مرور الأسابيع أو الشهور أو السنوات. أنت في المنزل الجديد الذي وصلت إليه، ولكنك فقط في منتصف الطريق لأن النصف الآخر لا يزال موجوداً في المنزل القديم، ويحتاج إلى وقته. وعندما يصل النصف الآخر للانضمام إلى النصف الأول، فإنه يفعل ذلك بشكل متقطع ودون معرفة المكان أو الساعة. كما لو أن جزءاً

من الروح يعاني اختلاف التوقيت جيت لاغ في الرحلات الجوية الطويلة، وهو نوع من النوم المترنح الذي يصيب الأغنياء الذين يطيرون.

تمتلئ غرفنا تدريجياً بصناديق من الورق المقوى من متجر ما وراء البحار، حيث كان والدايّ يضعان الكتب والملابس والحلي وأدوات المائدة.

لقد ذكرني كل هذا التغليف بسفينة نوح، إلّا أن الطوفان لم يصل، وخلافاً لذلك وصلت الحرارة إلى أربعين درجة في شهر تموز. ولم نغادر لننقذ أنفسنا من أي «غضب إلهي»، كما قال التعليم المسيحي، ولكن لأن والديّ كانا عالقين في مدريد.

عندئذ سألت «سؤالاً بديهياً» فأجاباني بـ «جواب واضح» (مرادفات بطاقات اللغة).

- أنحن ذاهبون؟

- نحن ذاهبون إلى ليجانيس، نعم. نهائياً.

- «إلى ليجانيس»؟

- مع بابا. وبذلك سنكون معاً.

استمرت المحادثة مدّة. كانت والدتي تجيبني بسرعة على جميع الأسئلة مثل الرشاش. كما لو كانت قد سلحت نفسها بضمير حي لتلك اللحظة، وكان لديها إجابات لكل شيء.

- والمدرسة؟

- أنت ذاهب إلى إحدى المدارس في حي سان نيكاسيو.

- وأنت؟

- سأدرّسُ في المدرسة نفسها التي ستلتحق بها أنت.

- «والأخوات»؟

- أيضاً.

- وأصدقائي؟

- «سنأتي لرؤيتهم كل شهر إذا أردت».

- «إذا لم يعد لدينا منزل...

- «قدمت السيدة أمبارو لنا أسّرة في بيتها إذا أردنا قضاء عطلة نهاية الأسبوع».

أقول إن والدتي كانت تجيب بسرعة عن كل شيء إلى أن سألتها ذلك السؤال، الذي كادت تمسك بي من رقبتي مثل لاعب كاراتيه غاضب. سؤال تركته عمداً حتى تنتهي، لأنني لم أرغب مطلقاً في سماع الإجابة.

- وإميريتا يا أمي؟ ماذا عن إميريتا؟

عندئذ صمتت، ورفعت نظرها من الصندوق الذي كانت تضع فيه عدة مجلدات من موسوعة لاروس، وتنهدت تنهيدة طويلة، وهزت كتفيها، وابتسمت باستسلام. ثم أغلقته بشريط التغليف.

أنا لا أقصد الابتسامة، التي أغلقتها أيضاً. بل الصندوق.

كانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي ندمت فيها على أن يكون لي أب، لأنه هو المذنب في أننا كنا راحلين.

اعتقدت أن أمنية الموت هي خطيئة أخرى وواحدة من الخطايا الكبار، وأن هذا النمو يجب أن يكون: تراكم ثلاث أو أربع خطايا مميتة كل يوم، ومليئة بالغضب، حتى تفقد عقلك.

لم أكن أرغب في الذهاب إلى الأحسن، كما كان يقول والداي.

أنا ببساطة لم أكن أرغب في الذهاب.

* * *

إذا كانوا قد سألوني عند الوصول إلى تلك القرية قبل بضع سنوات مضت، كنت سأظل أرفع كتفي. كنت سأقول إن الأمر سواء بالنسبة إليّ. فليكن ما قالوه. لأنه بالنسبة إليّ فقد كنت مكتفياً مع كليهما الاثنين، مع ما يمكنني وضعه في جيبي، مع ما أعطاني إياه بعد الظهر، مع ما كان بداخل الشطيرة، مع ما يعرضونه على التلفاز. لكن في ذلك الوقت لم يسألوني.

لم يسألوني بعد ذلك أو لاحقاً.

إذا فعلوا ذلك لاحقاً، إذا كان ذلك اليوم سيأتي بعد ذلك بقليل، لو كانوا سألوني كنت سأجيب بالنفي.

بعدئذ لم يعد الأمر سواء بالنسبة إليّ. لم يعد يكفياني كلاهما ولا مع ما يضعونه على التلفاز.

لكنهم لم يسألوني.

لم يفعلوا ذلك احتياطاً.

كانوا يسألونني عن خلجان إسبانيا، وعن عظيمات الأذن الوسطى السندان والركاب، وعن جدول الضرب للعدد سبعة، عن المحيط الحيوي، عن الوصايا العشر، عن قواعد التشديد المسطحة والحادة.

لكنهم لم يسألوني عن ليغانيس.

كانوا سيأخذونني بالطريقة نفسها التي يأخذون بها الكتب في صناديق أو القطع الخزفية أو الملابس المطوية والمكوية أو أدوات المائدة أو أصابع اليدين أو الساقين.

يأخذك الآباء كما لو كنت جزءاً من أنفسهم. يقولون لك إن كل شيء لك يا بني. إن كل ما يفعلونه هو لأجلك. وقطعوك من الجذور تماماً كما يفعلون بشجيرات البونساي. لهذا السبب تنمو أنت نمواً خاطئاً. وبعد ذلك تمتلئ بالحشرات.

* * *

كانت تلك أفضل شهور أمي السعيدة جدّاً في القرية، والمتعلقة بنا كثيراً، عاودت تزيينها مرة أخرى، ومزحت مع والدي، وفكرت بالفعل في كيفية تزيين المنزل الجديد.

كأنها عائدة إلى المكان الذي درست فيه شهادتها المهنية، وغادرت منها لتبدأ التدريس في قرى البلد، وكان ذلك مثل الإمساك بواحدة من أربع عشرة، الانتصار، هو هدف اللعبة. كما أنه عندما تكون في لعبة البرجيس تصل إلى خط النهاية، ولا يمكن لأحد أن يأكلك بعد الآن. الفيش الخمس للعائلة معاً وآمنة. أخيراً.

كانت المشكلة أننا لم نكن خمس فيش، بل ستّاً. وكنا نتجاهل أبطأ فيشة من الست، إذ من حصل على واحد أو اثنين فقط عند رمي النرد، هو من كان لديه الحظ الأسوأ، كان هو الأسهل أكله.

مثلما حدث عندما اصطادت ذئاب فيليكس رودريغيز دي لا فوينته أضعف فريسة.

- والإميريتا يا أمي؟

- ماذا عن الإميريتا؟

- أصريت مرة أخرى على والدتي في الليل.

وأخبرتني أنها ستعود إلى المنزل الذي ملكته في الضواحي، وهي بالطبع كذلك مدعوة للحضور لرؤيتنا في مدريد في كل مرة تشاء ذلك، وأننا سنبقى على اتصال على أي حال، وأنها فهمت الأمر تماماً، وأنه منذ اليوم الذي أخذناها فيه لتعتني بي، وكانت تعرف بالفعل أن هذه مسألة وقت.

إيميه وأنا.

بعد تلك المحادثة بوقت قصير، خرجنا معاً لأننا لم نقم بذلك منذ وقت طويل.

كان هناك أسبوع متبقٍ لانتهاء العام الدراسي، ولم يكن يحل الظلام إلا بعد العاشرة ليلاً.

ذهب والدي ووالدتي إلى ليغانس، وجاءا بعد أن حملا الحاجيات والصناديق، وغرقت إيسا على الأشجار في التفكير، وحاولت فيرو أن تكون إيجابية مع مدريد:

- «أيها المغفل، ستعجبك».

هكذا كانت الأمور، عندما بدأت إيميه - في ذلك الوقت عندما بدأت الحرارة تتلاشى.

- سألتني إذا كنت سأرافقها في نزهة على الأقدام.

- أين؟ سألتها لأن أقول أي شيء.

أجابتني مبتسمة.

- «إلى ما وراء أشجار اللوز».

في ذلك الوقت، وبشكل متزايد، أعطت السيدة إميريتا لفتات المودة في حميمية المنزل، لأنني كنت قد بلغت سناً بالفعل، وقد أخبرني توماس وبيراكاس بذلك أن مصافحة امرأة أكبر سناً مثل تلك كانت للمثليين أو الصبية الصغار. وكنت أفعل كل شيء ممكن كيلا أكون واحداً من النوع الأول ولا من الآخر، ولا سيَّما بعد موضوع السراويل النسائية الكروشيه.

لكن في ذلك اليوم لا أعرف ما حدث لي حتى إنني قدمت لها يدي بمجرد أن غادرت الشرفة دون أن أهتم بما يقولون. ونظرت إليّ كما لو كنت أقول إنني أحبك كثيراً أو الأسوأ. وقد أخذتها مني كما لو كانت ستأخذ قفزة كبيرة جداً، وتحتاج إلى تلك اليد الصغيرة جدّاً لدرء الخوف.

وعبرنا هكذا عبر الساحة، وعبر الكازينو، وعبر المدرسة، وعبر الحقل الأبيض، وعبر الخزان، كما لو أنها تفاخرت بابنها أو خطيبها، الذي في حالتها الآن أعتقد أنه كان الشيء نفسه تقريباً.

كانت تلك النزهة الأخيرة استعراضاً للنصر، كما هو الحال عندما يسير الجنود متصلبين كثيراً على شاشة التلفزيون. لا أتذكر عبارة واحدة من كلماتها، ولا إيماءة

واحدة، ولا حتى الجولة التي قمنا بها حتى غروب الشمس. أتذكر فقط تلك اليد التي لم تترك يدي تسقط أينما كانت. أنا فقط أتذكر تلك اليد الخشنة وأن إيميه، من وقت لآخر، كان تدندن بأغنية أنطونيو ماتشين.

اعتقدت أننا سنحصل على نصيبنا من التوبيخ، لأن الوقت قد فات عندما عدنا. لكن حالما فتحنا الباب، عانقها والدي بعمق وأطال، كما لو كنا ضائعين، بينما كان العكس تماماً.

تناولنا العشاء في مطبخ نصف فارغ، ثم كنا صامتين نشاهد المسابقة بهدوء، وعندما ذهبت إلى الفراش، كانت إميريتا قد نامت ورأسها على جانب واحد، تماماً مثل والد توماس.

مع إطفاء الضوء، عرفت ما سيكون مصيري.

مع تلك المرأة، وفي تلك القرية، كنت قد اكتشفت الديمقراطية، وفن قص وتشكيل الورق (الأوريغامي) والعُري المؤنث والمذكر، والحدود من الخارج والعلامات من الداخل، والأطفال الموتى وأي أم، وما يقال عنها أم، ليس هناك أكثر من اثنتين فقط. وماذا لو كنت محموماً وضائعاً مع اضطراب فرق التوقيت، كان ذلك لأنني كنت سأبقى يتيماً لإحداهن.

* * *

تبين أن المائعتين كانتا صعبتين جدّاً.

وجب أن يكون ذلك نموّاً، إنه قد حدث لك الشيء نفسه كالخبز. أن الطازج منه يكون طرياً وساخناً، ومع مرور الوقت، وبمجرد أن تسهو، يصبح حجراً صلباً وبارداً، وعليه لا توجد طريقة لغرز أسنانك فيه.

كانت فيرو ذلك الحجر متوسط الحجم. لم تعد تشي. لم تعد تتقيأ. لم تعد تلعب بالقواطع. في المحادثات في وقت متأخر من الليل، كانت تقاطع إذا اتخذت الأمور منعطفاً حساساً، كانت تعطي إجابات عن أشياء أعتقد أنها لم تكن تعرفها

حتى، كانت أجرأ من أن تصمت، كانت تقوّينا معنوياً، كانت تقنعنا أن أبي وأمي كانا يعرفان ما كانا يفعلان، وكانت دائماً تقريباً هي التي تطفئ الضوء، أو تأمر بالصمت. بطريقة ما، أصبحت ذراع أبي وأمي في ذلك الوقت في غرفة الأطفال. كانت أكثر من تبتسم حين يقبلان بعضهما. وكانت تتركهما وحدهما إذا كانت قد رأت أن الأمر واعد.

- «ولماذا عليّ الخروج إلى الشارع»؟

- «يا مغفل، لأن الأمر واعد». قالت ذلك وكانت فخورة جدّاً.

الأمر هو أنني كنت قد ذهبت. أحياناً مع إيسا.

لم تكن إيسا حجراً، بل كانت تراباً مرصوصاً أكثر. واحدة من الذين يظهرون خشونة والذين لديهم كثير من الحصى بالداخل، ولكن بعد ذلك، إذا ركلتهم أو سحقتهم، فإنهم ينهارون كاملاً. لقد أدى أخذ الغالونات من فيرو إلى تقريب إيسا مني قليلاً، ولم نكن جنديين بسيطين فقط، بل جنديين بسيطين يفتعلان المشاكل - احتفال المجانين، كان ثدياها بارزين، لكنها كانت وكأنها تسمع صوت هطل المطر. لا شيء. لم تكن ترتدي حمالة صدر، كانت تتعرى في الحمام، كانت تنظر بغرابة لرصانة فيرو مع التغييرات التي تحدث في جسدها. إذا كان بإمكانهم اتهامي بأني فتاة لارتدائي سراويل داخلية نسائية في طفولتي، فإني أعتقد أن إيسا، في أشياء كثيرة، يمكن اتهامها بأنها صبي.

الاحتمال الأسوأ هو أن يكون والداي قد أخطأا في الأجساد.

- «هل لديك صديق، يا إيسا»؟

- كلا. وأنت؟

- «ليس لدي صديقة أيضاً».

- رفعت منكبيها قائلة: «الصبيان يثيرون اشمئزازي، على ما أعتقد».

- «وهل لدى فيرو صديق»؟

- مستحيل.

- تعتقد فيرو أنها أصبحت بالغة جدّاً الآن.

- بالغة جدّاً.

- وأعتقد أنها تريد الذهاب إلى ليغانيس... هل تريدين الذهاب إلى ليغانيس، يا إيسا؟

- «لا أعرف يا دافيد. أحياناً ما أريده هو الذهاب إلى كوكب آخر».

وكانت قد تسلقت الشجرة. أو كانت قد انقلبت رأساً على عقب، وهي تقف على يديها. ومن هناك لم يكن ممكناً انتزاعها من هناك حتى ترغب بذلك.

- «أما زلت تنفق إكراميتك لرؤية مؤخرة ساريتا»؟

- «لقد أغلقت مؤخرتها بالفعل».

- «بني!، أنت تقول عنها كما لو كان متجراً».

- «قولي لها ذلك» وكنت مبتسماً. وهي ابتسمت لي.

- «هل تعدني أنه إذا أخبرتك شيئاً فلن تضحك أيها القزم»؟

- أنا أعدك بذلك.

- أخطأت البارحة، وارتديت بعض ملابسك الداخلية.

ضحكنا لمدّة.

قارنا ليغانيس بالقرية واتفقنا على أنها كانت أفضل. مزقنا أرجل عدة جنادب، وتبولتُ في عش النمل. بمجرد الوصول إلى المنزل، لقد أفشيت السر لإميريتا: لم أكن أعرف قَطُّ أي سروال داخلي كان من سراويلي، لأن إيسا دائماً نفت هذا الاعتراف.

الحقيقة هي أن إيميه استمرت في تسميتهما بالمائعتين، كما لو كانتا فرقة لاس باكارا. أظن أن هذا فقط لمنحي الرضا.

حجر غير قابل للتدمير.

كتلة غضارية بها شقوق.

لا نعلم إذا كنت معجون من السكر مع كثير من الحلويات التي أحضرتها لي.

فمثلاً، لعدة أيام كنت أتجول في القرية كشخص ينظم قائمة قبل الانتقال، لأنني لم أكن أرغب في نسيان كل ذلك أو البقاء هناك.

في بعض الأحيان كنت أفعل ذلك بمفردي مع أي عذر. وأعاود زيارة الأماكن التي اكتشفتها أو فتحتها. إذا قال كتاب تاريخ إديلبيس أن بيثارو كان مندهشاً حين وصل إلى البيرو، حدث لي الشيء نفسه حين دخلت متجر ما وراء البحار، ورأيت سمك القد «من النرويج» يتدلى من السقف، عند دخول منزل توماس ومعرفة الجليد عند الوصول إلى الحقل الأبيض ومواجهة المبارزة.

اعتدت أن آخذ فليكي، كان يستغرق الأمر ما يصل إلى ساعة للعودة، كنت أعود إلى المنزل بإصبع السبابة ملطخاً باللون الأبيض من كثرة تمريره على الجدران المغطاة بالجير. سألتني والدتي أين كنت وقلت لها هناك.

كان حزناً طفولياً، وهو عكس الصغير بالكامل.

كنت أتحدث أقل، أزعجتني فرحة نهاية العام الدراسي الوشيكة، لم أكن أهتم بأي لون للغرفة في ليجانيس، مجلات كاريكاتورية لوالدي، سفينة النقرات التي ظهرت فجأة عند أرجل سريري ملفوفة بورق تغليف هدايا أخضر اللون. وانتهيت مولّداً ذلك الحسد المجنون أمام ما حذرتني والدتي منه: غريغوريو، فيسينته خيسوس، ساريتا، تودوديسيس، البيراكاس، الدوس بيلاس، سوفراخيو، كانوا جميعاً سيبقون في القرية وليس أنا.

كان الأمر كما لو كان النمر الوردي يسير في الرسوم المتحركة مع سحابة مظلمة فوقه وحده: أينما ذهب يبقى الظل السيّئ يلازمه.

جعلني أعتقد أن كل شيء كان أفضل بالنسبة إليَّ عندما كانت الأمور أسوأ بالنسبة لوالديّ. إنني كنت أكثر سعادة عندما كان والدي يرسل لي بطاقات بريدية

بعيدة، وكانت والدتي فقط الآنسة مرسيدس بدلاً من والدتي، عندما كان عليهم الاتصال بإميريتا لإنقاذنا، وسعادة عائلتي لم تتضمن الذهاب إلى مدريد، بل في التصحيح بالدفء في الليل حول الطاولة النقالة أو أكل بطاقة وعددها اثنان وعشرون أو ثلاثة وعشرون.

كنت أرغب في التحدث معها، لأحتفظ في ذاكرتي بمحادثة طويلة مع إميه كانت تلك المرأة التي علمتني الحب بالسلال. كان بإمكانها أن تطلب مني ألا أرحل، للبقاء معها في القرية، وألا أتركها مهما كان.

لأنني حينئذ كنت سأبقى، أو أنني كنت سأحاول أن أفعل شيئاً مع إيسا كحليف. أيضاً، على الأقل، كنت سأتغوط تحتي حتى يعرف والداي أنهما هذه المرة يخربان عليَّ حياتي.

لكننا نادراً ما تحدثنا في الأيام القليلة الماضية. لم نعد نسير بمفردنا مرة أخرى. لا أستطيع كتابة هذه المحادثة متعددة الصفحات لما أخبرتني فيها بكل ما كنت أحتاج إلى سماعه. لأنها، إضافةً إلى كونها صماء، تبدو وكأنها أصبحت خرساء.

نظرت إليَّ في غرفة المعيشة، وابتسمت لي بعينيها. في الشارع تخلت عن الاقتراب ولو من بعيد.

لقد أعدت لي وجباتي الخفيفة المفضلة، واكتفت بالإملاء الليلي. والانتظار بعد ذلك حكمي بخيال طفلة.

اعتادت أن تقول وهي تتحول في مقعدها: - «لنَرَ، لنَرَ ما هي العلامة التي يضعها لي كوريته اليوم». وضعت فيرو لها جمل مأخوذة من كتاب إملاء احتفظت به أمي. ألفت إيسا القصص البرية حيث خلطت الحيوانات والوحوش والجرائم. أخيراً أن وضعت لها سلسلة من كلمات على القافية بلا معنى. أو بكل ما في العالم: «تخلى الأغبياء عن زيتون منزوع النوى وأرنبة مسلوخة»...

ثم ذلك الصمت.

كان الأمر كما لو أن «إميه» تعلم أن هذه المحادثة المعلقة ستسبب لنا الأذى، ولتقديم خدمة أخيرة لأمي، حاولت أن تضع نفسها في الوسط وبصمتها بأكثر من ثمانين كيلو غراماً، تماماً مثلما حصل بوضع نفسها في الوسط عندما كان بيرراكاس مع المفرقعات النارية.

إذا كان لا بدَّ أن ينفجر شيء بين يديها، فهمت لاحقاً، فسيكون ذلك عندما بقيت وحدها تماماً.

* * *

كان اليوم الوحيد الذي قالت لي فيه شيئاً هو عصر ذلك اليوم عندما أعطتنا الآنسة مرسيدس العلامات النهائية. كانت علاماتي جيدة، لكن في تلك المرحلة لم أكن أبالي قطُّ: لقد توصلت إلى التفكير أنه إذا كنت قد حصلت على علامات سيئة، فعلى الأغلب كنت سأبقى لأعيد العام الدراسي في القرية.

- أيها المدعوم، يا لهذه العلامات الناعمة التي أعطتها لك والدتك، إيه؟

- والدك المدعوم، الذي يبدو مثل دراجة الفيسبينو المكسورة.

لقد جعل ذلك توماس يضحك بحرارة، ولقد جعلني ذلك أبدأ في الركض على المنحدر دون البقاء للاحتفال بأي نهاية.

غادرت غاضباً أكثر من حزين في اليوم الأخير من المدرسة. عدت إلى البيت، وأغلقت الباب بقوة، واستلقيت على الأرض بجوار فليكي، وأمسكت به من الخلف لأشعر بتنفسه، وهو شيء ما جعلني أطمئن. بعد فترة، نهضت وتركت دفتر الجلاء المدرسي مطويّاً على الطاولة، كما لو كان خيمة هندية أو عصفوراً ورقياً. لو كان شتاء، أعتقد أنني كنت سألقي بهم في الموقد. لكنه كان مطفأ أكثر مني.

ثم ظهرت إميريتا بانفعال شديد وهي ترتدي المئزر، وتركت السكين على الطاولة، والتقطت الجلاء، ووضعت النظارات التي اشتراها والدي لها منذ شهرين، وسقط جسدها كله على الأريكة، وبينما كان تغمض بصرها، أومأت برأسها.

وعند وصولها إلى نهاية كل شيء في الجلاء، كانت لديها ابتسامة فخر. لقد قرأت فقط ما كان هناك بصوت عالٍ حيث وضعت الآنسة مرسيدس في قسم الملاحظات: «لقد قمت بعمل جيد. والآن يمكنك أن تشكر والدتك ولا سيَّما السيدة إميريتا التي هي قديسة».

نهضت إميه وقالت لي لقد بليت جيداً وقرصتني من خدي بيدها التي كانت تنقصها فقرتين من الأصابع. ثم ذهبت إلى غرفتها وأتت سعيدة جدّاً بشيء ملفوف بالورق الأسمر.

- إنه لك. افتحه.

هزيته. شممت رائحته. لقد غُسل حديثاً، وجرتْ خياطة عينيه وحشوته.

- «ماذا ستفعلين وحدك يا إميه»؟

- كيف؟

- «ماذا ستفعلين وحدك»؟ كررت، ورفعت صوتي كأنها المشكلة أو أنها لم تفهمني منذ البداية.

- «حدي تقول»؟

أومأت.

هزت كتفيها، وما زالت تبتسم.

في تلك اللحظة جاءت والدتي مع فيرو، ورأت إميه مع الجلاء في يدها. وأنا مع الدب القماشي ذي القدم الواحدة. نظرت إلينا للحظة، ووضعت يديها على خديها كما لو كانت تقيس درجة حرارة خديها، وتتنهد بين السعادة والإحباط الشديد.

- «من يريد منا أن نفعل شيئاً مميزاً جدّاً اليوم»؟

أجاب فقط فليكي.

* * *

كان شيئاً مميزاً جدّاً هو عشاء حيث اعتمد على البيض مع البطاطا المقلية والنقانق الجيدة في الوسط، فانتا مع قطعة من البوظة بالكريمة، شوكولاتة وفراولة.

كان والداي قد سحبا بياضات عيد الميلاد وأضاءا بعض الشموع كما لو كانا يريدان التضليل. لأنني كنت أعرف ذلك، ففي بعض الأحيان، في منزلي، عندما يكون هناك تأنيب للضمير، فإنهم سيفعلون ذلك بأن يأكلوا كما لو كان يتم الاحتفال بشيء ما، وهكذا، مع بطن ممتلئ، سينسون ما حدث للقلب. أضاف والدي زجاجة من الخمر إلى الحلوى، وكانت هذه طريقته للقول إنه كان يوماً خاصاً.

عرضه على السيدة إميريتا ورفضت مرتين. في المرة الثالثة، سحبت يدها من الكأس، وسكب لها والدي مقدار إصبعين. لم تتذوق منها شيئاً. سألت إيسا ما الذي يُحتفل به وقالت أمي إنه لم يُحتفل بأي شيء وإن كل شيء أحتُفل به.

- أضافت مبتسمة «العلامات».

ثم طلبت منا أمي الذهاب إلى غرفة المعيشة لأنه كان لديها مفاجأة.

بمجرد أن جلسنا جميعاً، سحبت المغلف من الدرج. وأعطته للسيدة إميريتا التي زمت شفتيها، ووضعت النظارات التي احتفظت بها في جيب ثوبها. ثم فتحته. كانت والدتي قد كتبت: «السيدة إميريتا».

كان دفتر جلاء مثل ذاك الموجود في المدرسة. فقط، حيث ذكر «الطالب»: كتبت الآنسة مرسيدس بخط جميل: «رودريغيث بيريث، إميريتا».

حضرنا جميعاً تلك اللحظة التي لا تُمحى بحبس أنفاسنا، كما لو كان هناك شيء ما سينفجر أو يمكن أن ينكسر تماماً مثل كأس زجاج بلوري ناعم جدّاً. إذا كان عليّ أن أفسر وجه تلك المرأة عندما قرأت ذلك، أود أن أقول إنه كان لها نفس وجه فتاة صغيرة حين تُطلب أخيراً للرقص.

كنت أرغب في أن أكون هي في تلك اللحظة، أن أبقى في هذا المبنى من اللحم والدم لفترة من الوقت، وأن أكون أصمَّ في تلك اللحظة لا شيء أكثر، ولتبديل

الدب بالعلامات. الخاصة بتلك الطالبة التي لا تكاد تذهب إلى المدرسة. كانت أفضل فكرة لدى والدتي على الإطلاق.

ابتكرت الآنسة مرسيدس الكثير من الموضوعات (الصبر والعمل وغيرها لا أتذكر) وفي كل منها تأهلت إميه بأداء متميز. كان الأفضل في النهاية: في حقل الملاحظات، فقد أرادت المعلمة الريفية أن تضع أشياء كثيرة، فجعلت الحرف أصغر حتى أصبح صفاً من النمل.

«عزيزتي إميريتا، كانت هذه السنوات رائعة. سأحتاج إلى مجلد أصفر ممتلئ بأوراق مثل تلك الخاصة بك لتتمكن من كتابة كل الأشياء الجيدة عنك. كان وجودك هدية، وتعليماً، وضمانة للطمأنينة، والحظ والتشجيع. لا أستطيع إلا أن أعطيك علامة عشرة. على الرغم من أنني واثقة من أن فتى الإملاء الخاص بك، كما تعلمين، سيعطيك علامة ٢٠. في هذه العائلة، كنت أنت المعلمة والصديقة والأم والسيدة. شكراً غير مقطوعٍ، يا إميريتا. يجب أن أبقى أشكرك طوال حياتي».

التوقيع: مرسيدس.

* * *

زرتُ القرى الأخرى التي غادرتها دون أن أبدو مثل طفل يبكي لعدة مرات:

أصبح لأمي مكان جديد، كنا نحزم أمتعتنا ونغادر، دون مزيد من اللغط. كنت أسافر سعيداً، وآمناً لأن «وطني»، كما قال والدي، يتسع «في سيارة صغيرة متعددة المهام». ليس فقط أنه مع كل وجهة جديدة نقترب من مدينة مدريد اللعينة، أو إلى أبي بمعنى آخر. بل إنه، بطريقة ما، شعرت أيضاً أن كل الأشياء الأساسية لحياتي كانت في تلك السيارة: أمي، أخواتي، أشيائي، مجلاتي المصورة.

ولكنك تصل إلى عمر تدرك فيه أن هناك أباتشه وتان تان تناديك، سن توسع فيه ذلك الوطن الذي كان يقوله أبي. أو إنك تغيره مباشرة.

وبعد ذلك تخرج وتتحقق من أن الأشياء الأساسية ليست بالضرورة دمك، ولا اسم عائلتك ولا نفس سقف بيتك ولا نفس مصير والدتك. يبدأ ما هو من الخارج بالفوز على ما هو من الداخل.

منزلك عبارة عن فضاء ضبابي مثل يوم ضبابي يبدأ من عند الطرق حتى ضفاف النهر.

عائلتك هم أيضاً أصدقاؤك، وصاحب متجر أعرج، وقطط الجار. والدروس ليست شيئاً من معلمة، بل من صماء أو فتاة تتقاضى منك دورو واحد لتريك مؤخرتها.

إذا غادرت ذلك المكان الذي احتلته للتو، وإذا غادرت ذلك الوطن بحدود كنت قد رسمتها أنت يدويّاً، أقول، عندئذ أنت ضائع.

كان ذلك صالحاً في تلك السنوات.

هذا هو السبب في أن مغادرتنا أنتجت لي اضطهاداً جديداً، ووحشياً، لم أشعر به من قبل، والذي تسبب لي في عدم انتظام دقات القلب، والاشمئزاز، والرغبة في كسر الأشياء.

أخبرتني والدتي في اليوم الأخير:

- «كل أشيائك موجودة في السيارة بالفعل».

كل أشيائك.

أخبرتني أن كل أشيائك، وبقيت أمضغ الكلمات الثلاث كما لو كانت علكة.

كل أشيائي.

أنا بصقت.

كنت سأخبرها أن كل ما يخصني لم يكن في السيارة، وأن أهمها لا يتسع لها صندوق حقائب السيارة.

بصقت من جديد.

- «ولماذا أنت ذاهب إلى مدريد»؟

- «إلى المدرسة الجديدة لوالدتي».

- «وأنت ألن تعود قريباً»؟

- حسنا بالطبع. كل شهر على الأقل مرتين. امضِ يا هذا.

- «من المؤكد من أنك لن تعود».

- «أتراهن على ذلك يا توماس»؟

- «أتأخذون المرأة الصماء معكم إلى مدريد»؟

- كلا. تقول والدتي إننا في ليغانيس لن نحتاج إليها، لأننا سنكون جميعاً هناك. والمرأة الصماء تسمى إميريتا.

- «ألا تسع معكم في السيارة»؟

- «غريغوريو، اذهب إلى الغائط».

- وأنت فلتأكله.

في آخر نهاية أسبوع مضى قبل الجحيم، وصل والدي كما لو كان عاشقاً. بين يومي السبت والأحد، وانتهى من حزم ما تبقى، وباع سيارة والدتي كما اتفق مع دون إلاديو، غَسَلَ الكلب بخرطوم الماء حتى لا يملأ سيارته بشعر الكلب. دعا نصف رواد الكازينو إلى جولة شراب، وأعتقد أنه مارس الحب مع أمي.

- أترافقنا؟

- «إلى أين، يا أبي»؟

- «لأخذ هذه إلى بيتها.

كانت هذه حقيبة قديمة وشنطة مربعات، ومنزلها هو نفسه تملكه السيدة إميريتا.

قلت - لا - مؤشراً برأسي.

لذا حمل والدي الحزمتين في الصندوق، وفتح لإميه باب سيارة السيمكا ١٢٠٠. صعدت إيسا في الخلف، وحيّت بتهكم.

بقيت جالساً على الشرفة ومرفقي على ركبتي حتى عاد الثلاثة بعد نصف ساعة. وبينما كانوا يمشون عبر الباب، كانت وراءه، أكد والدي الأمر الذي لا مفر منه.

- حسناً، لقد أُنجز كل شيء، يا مرسيدس.

* * *

لا أتذكر السبب.

لا أعرف ما إذا كان ذلك لأني ضحكت على سكير القرية، وقلت شيئاً عن والد غريغوريو، أو شتمت أولئك مهرجي السيرك أكثر ابن العاهرة في العالم. لكني أتذكر الفليبيكا تماماً.

قال لي في ذلك اليوم: - «لفهم الأشياء بشكل صحيح، عليك أن تنظر إلى كل البوتاخه - خليط الشوربة من بعيد».

كان خليطه محضراً من الحمص والكرنب والأرز وسمك القد من عند السيد لويس. كان بوتاخه - القرية من الأشياء التي لا يمكن أن تؤكل.

ولهذا المكان ذهبت آخر ليلة.

ذكرتني مشاهدتها من مسافة وسط الظلام، القرية بمجرة قد أضيئت حديثاً. لم أكن أشعر بحرارة ولا حزن ولا نعاس ولا خوف، بل مجرد عقدة من الأعصاب هنا في الأسفل، هنا نعم. وجودي وحيداً جعلني أفكر أن تلك الأضواء غير المتكافئة كنّا جميعاً وكل واحد منا، حيث يمكننا أن ننطفئ بنفخة واحدة مثل كعكات عيد الميلاد، وهذا، في أسوأ الحالات، انطفأت الإميريتا حالما غادرنا. دقت الساعة الحادية عشرة في برج النواقيس. تابعت النظر طويلاً في هذا الحساء من الأضواء والأسطح والكابلات.

يمكن تخمين عبور تقاطع القطار. هذا القطار الذي تجاوزنا في اليوم الأول مثل الأرنب ومثل هاجس. مر قطار من حين لآخر، وكان له خطورته. اعتقدت أن قطاري كان يغادر، لكن لم يكن قطار إميه ليمر قطُّ. كما يحدث في أغنية «بينه لوبه»

تلك والتي غناها جوان مانويل، وأن والدتي شغلتها بأقصى سرعة على المذياع كاسيت الذي أهداه لها أبي بعد معركة أخرى.

خُمنت المناطق المحظورة، تلك التخوم التي يجب عليك الذهاب إليها لتنميتها، الآبار دون حافة يمكنني تحديدها وعيناي مغلقتان، وبيوت المزارع الفارغة والمتشابكة، والخزان، الفخاخ والسموم التي لا ترى.

يمكنك تخمين متجر ما وراء البحار على جانب واحد من الساحة، والذي هو بالنسبة إليَّ مثل كشك أو متحف أو كتاب مغامرات، وكان ذلك بالتأكيد أفضل بكثير من الكتاب الموجود في العاصمة، بغض النظر عن عدد الأشياء التي يمتلكها هذا الشخص والتي لا يمتلكها.

عندما وصلت إلى المنزل، كانت أخواتي في السرير، ووالداي يلعبان لعبة الورق الشينشون مع إميريتا، لقد استخدموا مجموعة من ورق الشدة من بنك التوفير الذي كان يحمله دائماً في علبة القفازات في سيارة السيمكا، ونظراً لأن التلفزيون كان موجوداً بالفعل في ليغانيس، فإن والدتي لم يكن لديها أوراق امتحانات للتصحيح، لم يكن هناك كتاب واحد على الرفوف، فقد أمسكت إميريتا بالمجلد الأصفر إلى منزلها، لم أكن هناك من أجل كتابة الإملاء، وبقي البرجيس مدفوناً في إحدى صناديق من الورق المقوى التي كانت داخل صندوق السيارة.

الصدى. هذا ما كان.

عاد سماع صدى الصوت مرة أخرى في ذلك البيت.

- أنا ذاهب للنوم.

- «ألن تقول وداعاً يا بني»؟

- لا.

لا أعرف كيف ستكون حياة المحكوم عليه بالإعدام حين يستيقظ في اليوم الذي سيعدمونه شنقاً. ولا حتى لو نام في الليلة السابقة، ولا حتى لو تناول الفطور عند استيقاظه، ولا حتى لو كان ذلك صحيحاً أنهم يمنحونه آخر طلب أم لا.

نعم فقد نمت. وفي الصباح، لم يُحضروا لي قطعتيّ الكعك المجدولتين. سألت والدي إذا كان بإمكاني الجلوس بجانب النافذة، وليس في الوسط كالعادة، وحققت رغبتي. لم أكن محكوماً بالموت، كنت أعرف ذلك بالفعل، لكنهم أنهوا أفضل ما في حياتي.

أغلقت أمي الباب، وسلمت سلسلة المفاتيح للسيدة أمبارو. دخلت فيرو بسرعة في سيارة السيمكا، جلست إيسا على الغطاء، وبقيت قليلاً مع أبي وأمي، حيث بدءا بطقوس التناوب على الوداع. عندما وصل دوري، نظرت إلى والديّ بجدية شديدة مطالباً بمساحة. نحنح أبي من حلقه وقال: - «سأقوم بتشغيل السيارة». فهمت والدتي، ورجعت أربع أو خمس خطوات للوراء، ووضعت النظارة الشمسية.

ثم عانقت إميه على أطراف أصابع قدمي أعلى بقليل من الخصر، لأني لا أصل أعلى من ذلك.

وانحنت هي على الفور لتنتهي على ركبتيها، ونذوب كلانا في قبلة بالغت فيها، وقطعتها بعد ثلاث ثوان، في حال جاء أي من هؤلاء.

كنت أنا من هز ركبتيها، مثلما اعتادت أن تفعل بي عندما تلطخت. ثم قلت لها شيئاً، وأنا أرى عينيها، أعتقد أنها لم تفهم. كانت لدينا وجوه مبتلة.

لم تتحرك المرأة الأكبر سناً والصماء من الشرفة حتى اختفينا في المنعطف، لوحت بيدها حتى اللحظة الأخيرة دون تحريك قدم واحدة. طلبت مني أمي أن أقول وداعاً من النافذة كما فعلت هي وأخواتي بحماس أكثر أو أقل، لكني لم أشعر بالرغبة في الالتفاف.

كان آخر شيء سمعته منها: «والآن لا تنظر إلى الوراء».

كان يجب أن أقول لها شيئاً من الأفلام مثل: «وأنت انظري إلى الأمام». شيء يناسب تلك اللحظة مثل، «لن أنساك أبداً».

لكنني لم أقل شيئاً على الإطلاق. لكن لا شيء أبداً.

لم أكن أعرف كيف كانت حياة رجل محكوم عليه في اليوم الذي كان سيُشنق فيه. ولا حتى كنت أعرف ما إذا كانت حنجرة المتهم، عندما وضعوا الحبل حول رقبته، قد تحدث له عقدة سمينة مثل تلك التي لديّ.

أعطتني أمي بعض المناديل الورقية. مثلما أعطت إيسا، مع كثير من الثنايا، كنت سأعطيها في النهاية كيسا.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(هو وهذا)

إذا كان هناك شيء قد تغير منذ اللحظة الأولى، فهو الضوء.

في القرية، كانت السماء ملأى بغيوم كرغوة الحلاقة، وذلك الأفق قد تحول إلى لون الصلصال، والجدران الجيرية التي جعلتك تغمض عينيك، وأرجوانية الزعفران تتنافس مع أحمر شقائق النعمان.

في المدينة، كان هناك دهان الكريب الأبيض والإسمنت والقرميد والانعكاس الشاحب للتلفاز.

كنا نعيش في الطابق الثالث من بناء ذو مصعد، يسبب الخوف الشديد لأن البكرات فيه مرئية، فتعتقد دائماً أنها ستنزل معك إلى داخل غرفة المصعد. يتم الخروج إلى الشارع بالنزول إلى مساحة أرض مربعة محصورة بين أربعة مبان. مساحة من الأرض مع مقعد خشبي على كل جانب حيث تطل الأمهات لتقول لك أن تصعد أو أن تندّثر، وأنها كانت مماثلة بالضبط لجميع الكتل في الحي.

هناك، في وسط ذلك التنظيم المديني الرمادي، طورت والدتي هواية جديدة وجميلة: العناية بالنباتات. أعتقد أنها كانت طريقتها في حمل الشعلة لنا لنرى، لكن كل ذلك حتى لا ننسى.

لقد انتشرت الأصائص على جميع عتبات نوافذ المنزل، جزءٌ واسعٌ من الشرفة مثل السياج الأخضر. إذا وضع القرويون في ترانسيلفانيا الثوم في الأبواب لتخويف مصاصي الدماء، فقد وضعت والدتي الأواني حتى لا تقضمنا المدينة.

كان هناك نبات إبرة الراعي، البلارغونيو، زهور البيتونيا، القرنفل الصيني، الخلود، الألوفيراس، السورفينياس، الغردينيا والزنبق. كان يمكن لأمي أن تقضي ساعات السبت تنفش الأرض، تسقي، إزالة الأوراق الجافة والتسميد والتقليم

ومكافحة الآفات ووضع الأصائص في مكانها في الظل أو في الشمس، وضع أكياس بلاستيك على تلك التي لا تتحمل الصقيع. ثم كانت تغسل الأيدي، وتتابع مع باقي الأبناء. في بعض الأحيان كانت تتأثر بلمسة ساق أو رائحة زهرة. لم تقل أي شيء، لكنني أعلم أنها تتذكر بستانها.

أتذكر ذلك اليوم تماماً، أنجزت فيرو واجباتها المدرسية، وكانت أمي في مطبخها، وقرأ أبي صحيفته، وقرأتُ فصلاً من خاباتو، وخرجت إيسا راكضة إلى الشرفة لتقول شيئاً إلى صديقتها التي لم تتوقف عن مناداتها بالصياح.

كانت هذه هي الطريقة التي حطمت إيسا بركلة من مقدمة قدمها ذلك الأصيص وهو إناء للزهور الذي احتوى على النبات المفضل لدى أمي، شجرة ياسمين ضخمة أحضرتها من القرية وكانت نجمة الغابة.

وبختها أمي بقسوة وقالت: ليس كثيراً بسبب النبات، بل لأنها لا تركز أبداً وذهبت مثل المجنونة.

لكننا نعلم جميعاً أن ما يؤذي والدتي حقاً هو قطع شجرة الياسمين بالنصف، وذلك الأصيص المكسور.

لقد كنست الأرض، ورمت الأصيص الملون في سلة المهملات، وجلست القرفصاء بجانب الجثة، التقطت الحطام، ووقفت تنظر إلى الضرر مدّة، كما لو كان لا يزال من الممكن فعل شيء ما.

بعد قليل، عادت ومعها وعاء فارغ آخر وتربة عذراء. دون إزالة مئزرها، أعادت زرع الياسمين في صمت وضغطت على الركيزة. كيف سيكون الأمر، إذ كاد والدي أن ينتهي من تحضير العشاء دون أن يخبره أحد أي شيء.

وجدت أمي المكان الأكثر إشراقاً في المنزل بالنسبة لها، المكان الأكثر ملاءمة، أعطته أفضل رعاية. أمضت الأسابيع التالية، الأشهر، تراقب في تطور المريض الأخضر. لم تدخر أدنى اهتمام.

حتى إنها اشترت كتاباً عن زراعة الياسمين.

لكن الياسمين ازداد سوءاً بشكل ميؤوس منه بعد إعادة زرعه. وظهر البق في المكان الجديد. وامتلأت الأوراق بفطر شره. وانتشر بعض الطفح الجلدي من الثآليل على جسمه، وفقد اللمعان، وتوقف عن الإزهار، ونجا لكنه كان سيئاً جدّاً مدّةً طويلة. لمّا جاء الربيع، نمت النباتات الأخرى كما لو كانت تتنافس في الحيوية والجمال.

لم يعد الياسمين كما كان.

* * *

كان هناك كثير من الأشياء التي من شأنها أن تتغير إلى الأبد وغيرها من الأشياء التي ذهبت كي لا تعود أبداً. أوضح لي والداي أن هذا هو بالضبط ما يعني أن تصبح بالغاً: التوقف عن القيام بتلك الأشياء التي كان يمكنك فعلها من قبل والآن لا يمكنك ذلك.

إذا أصبحت بالغاً، يعني التوقف عن استكشاف عالم بلا حدود، يعني التخلي عن أسماك البحار السحيقة في متجر ما وراء البحار، يعني التوقف عن حفر الأرض أو التوقف عن التسلق على الأشجار للحفاظ على قدميك على الأرض، إذا كان ذلك لتغيير مخاوفك بدلاً من محاولة التعايش معها، إذا كان ذلك يعني كل ذلك، فأنا أقول، عندئذ أنا لا أريد أن أصبح بالغاً.

لكن كان والداي يطلبان مني باستمرار أن أكبر تماماً كما أرادت والدتي أن يحدث ذلك مع الياسمين لأنه من المعروف إن كنت تعاني، أو أنك مصاباً بخيبة أمل، أو أنك تعرف من هم الملوك، أو أن تقسيمك إلى نصفين، كان له علاقة بأن تصبح بالغاً.

لقد أصبحت بالغاً، يحذرونك.

يصرون عليك، تصرف كشخص بالغ.

دعنا نَرَكَ حينما تكبر، يشيرون إليك.

وبعد ذلك، عندما تفعل ذلك (تكبر) يوماً ما، يبدأ أبوك وأمك بالشوق إلى متى كنت صغيراً، منذ أن توقفوا عن طلب منك أن تكبر، وكانوا راضين عن نصف الابن، هذا الكائن ليفعل، والطين ورضوض الركبتين والأخطاء الإملائية والتقيؤ في السيارة، وهذا الاضطراب المثالي كانت السعادة.

في اليوم الأول من المدرسة في المدينة، قضيته كله باكياً، ارتديتُ ملابسي بالضبط تماماً كما كنت في القرية، لكن كان حذائي مضحكاً جدّاً للأولاد، على حد زعمهم، بدا السروال كبيراً نوعاً ما من ابن عمي، رائحتي عطر الأطفال نينوكو، الخط الذي يفرق شعري من جانب واحد، باختصار، هذا مظهر الطالب الجديد أعني نفسي. ومما زاد الطين بلة، أنني كنت ابن المعلمة الذي وصلت الآن.

أمضوا يومهم وهم يشيرون إلي ويضحكون، وأنا أمضيته ورأسي في يدي كما لو كان هناك تبادل لإطلاق نيران المدفعية. كنت أبكي بين الحين والآخر. جاء المعلم الذي سيكون أفضل صديق لأمي فيما بعد ليسألني عما كان يحدث لي وكنت عاجزاً عن الكلام.

أما أمي فقد ألبستني مثل المهرج منذ ولادتي أو أن العالم - أعني المدينة، أي ليغانيس، أي حي سان نيكاسيو - كان موبوءاً بالأوغاد. في أسوأ الأحوال كانا كلاهما.

غطتني مرور الأيام بضباب كثيف مثل ضباب الأفلام المرعبة. وتخصيص الطفل بغرفة خاصة به، عندما يضع ملصق فريقه على الحائط، ويحتفظ في متناول اليد بهذه الكنوز التي تراكمت على مر السنين (حجر فريد، أحفورة، عملة أجنبية) أو يطلب من والده بإطلاق النار في السرير لتدشينه مرة واحدة وإلى الأبد.

لكنني لم أشعر برغبة في فعل أي من ذلك.

بقدر ما شجعتني والدتي على فتح صندوق الكرتون الذي كنت أحمله من مزارع بوستينغوري ويحمل اسمي، قلت لها لا برأسي.

أبداً، لماذا؟

لو لم ينته العالم تلك السنة على عكس ما قاله العم خورخه الذي هو انفصامي ومن شهود يهوه، سوف نموت، سوف نموت، سنموت، أسوأ ما انتهى بي الأمر معه.

نزلت إلى الشارع لأنزه فليكي دون حماس كبير. جلست وحدي على مقعد وأراقب. كان لا مفر من مقارنة كل شيء رأيته في المدينة مع القرية التي تركناها خلفنا. هؤلاء الأولاد المجهولون مع الأصدقاء مع الذين شاركت معهم الضحك والموت، المخاوف، المفرقعات النارية، سيجارة ريكس وحتى الأرداف في القرية. مقارنةً تلك المساحة المستأنسة بين المباني، تم لعب ثلاث مباريات كرة قدم في الوقت نفسه في المدينة، وقارنته مع الحقل الأبيض في القرية ذلك كان لنا فقط. في ذلك الفصل من مدرسة المدينة أنت القروي بينما مع مدرسة القرية كنا جميعاً أو لا أحد، وهو الأمر نفسه بالنسبة للحالة. تلك الشوارع حيث كان كل شيء مرئياً، ومع تلك الطرقات حيث يمكنك أن تجعل نفسك غير مرئي. مقارنة ذلك المنزل في المدينة مع ذلك المنزل الآخر في القرية الذي، صحيحاً، لم يكن به مشعات من الحديد الفونت، ولا أرضية باركيه، لا مصعد، لا جرس، لا منظار في الباب، ولا حتى فرن كهربائي، ولكن كانت إميريتا في الداخل.

يمكن لأمي أن تقول مرة وألف مرة إننا قد تحسننا كثيراً، يمكنها أن تقول ذلك بصوت عالٍ لمحاولة إقناعنا، لكن أصبح الأمر جلياً، وفي كل مرة أكثر وضوحاً بالنسبة إليَّ: لقد خرجت خاسراً مع التغيير.

تكيفت فيرو بسرعة كبيرة، أعتقد أن إيسا لم تتأقلم كثيراً، لم نعد ننام أبداً في الغرفة نفسها، ومن المعروف أن النشأة تعني أيضاً: فصل نفسك بالأجناس تماماً مثل الماشية.

لقد واجهت صعوبة في تكوين أصدقاء جدد، كما لو كان ذلك خيانة لمن تركتهم ورائي. أو ما هو أسوأ: كما لو أن عدم القيام بها كان وسيلة لحماية نفسي. شيء لا أحن إليه دعنا نفترض، إذا ذهبنا بعد ليغانيس خلف والدتي إلى واحدة من مدن البطاقات البريدية أو المدن المقابلة.

لقد تعلمت أماكن جديدة ممنوعة، أشياء، أو مساحات توقعتها، أو رأيتها من بعيد. الحد المحدد من أشجار اللوز قبل بضعة أشهر فقط بدا الآن وكأنه حدود للأطفال فقط. أو أن العالم كان ينمو بسرعة كبيرة أمام عيني، أو كنت أفعل ذلك أنا. التمرد الأول العظيم الذي أتذكره: كانت هناك ملابس بدأت تبدو لي سخيفة ولم أعد أرتديها أبداً.

نحن نعود إلى القرية.

لقد فعلنا ذلك لأول مرة بعد أسبوعين فقط من مغادرتنا لها، في محاولة من والدتي لإعطائي صدمة كهربائية من شأنها أن تعيد لي فرحتي. وهذا ما حدث. كان الاتجاه إلى أسفل التل، ولمحنا السطوح القرميدية المعتمة وبرج النواقيس، وأنا أنفجر من الفرح، وكأنني فزت برولان غاروس.

قلتُ، وقلبي ينبض في حلقي: «ارفعوا الموسيقا من فضلكم».

رفعتها والدتي. لا أتذكر ما كانت تصدح.

- «وافتح النوافذ حتى يعرفوا أننا وصلنا».

- هيا، هيا، ولا حتى لو كنت المبراة.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك، كنا ننام عند السيدة أمبارو والسعادة تغمرني. دعتنا إميه لتناول الطعام في بيتها. إذ حضّرت أرنبة مع أرز لأبي. لعبتُ مع غريغوريو وفيسنته خيسوس والبقية. اشترينا من عند بيسينتيكو. سألني الجميع عن ليغانيس وأخبرت الجميع الكلام نفسه: أنها كانت أفضل بكثير من القرية.

في فترة ما بعد الظهر، جمعنا فطر المحار كعائلة. في الليل، إميه - التي لم تتوقف عن إعطائي قبلات على الشعر، وقالت إنني كنت أنحف - لقد فازت علينا جميعاً في البرجيس.

عدنا بعد شهر. كان البرنامج مماثلاً فقط أن تلك السيدة إميريتا طبخت لنا يخنة في قدر على النار.

ثم دخل البرد إلى ليجانيس، ودخلنا إلى المنزل معه. في جميع المرات الأخرى التي عدنا فيها (ثلاثة أو أربعة في السنة)، ذهبنا وعدنا في اليوم نفسه.

كانت تلك الحلقة تضعف بشكل متزايد وظلت حية من خلال ذاكرة الطفولة، وهي تعلّم عليك أكثر من لقاح السل، تلك الندبة التي ترافقك حتى الممات.

أنت النكهات التي كانت في فمك منذ طفولتك، أنت ما لمسته في ذلك العمر، تلك العجينة أنك كنت تلين من لمسها كثيراً، الأشياء التي سمعتها وبقيت هناك، داخل الرأس، مع صدى مدى الحياة.

أنت أيضاً الروائح التي فتحت لك عينيك.

لم أكن أعرف حقاً ما سأكون عليه، لكنني كنت أعرف من أين أتيت، عرفت ذلك في اليوم الذي فتح فيه والداي الصناديق الأخيرة من مزارع بوتينغوري. وأخيراً، أخرجوا موسوعة لاروس من إحداها.

وبالفعل، كانت تفوح من تلك الأجزاء التي تحدثت عن ديديروت ومحرك الاحتراق الداخلي رائحة سمك القد من النرويج.

* * *

كان الحنين إلى الماضي مثل تلك القلاع الرملية التي صنعتها مع أخواتي في موتريل. في البداية كانت هناك، واقفة وجبارة، مع سورها وجدرانها. كنت أُقويها بالملاط ولم أدعها تنهار. ولكن بعد ذلك، تعاقبت الموجات واحدة تلو الأخرى. وفي النهاية، مع مرور الأشهر، لم يبق شيء تقريباً من حزن الذاكرة، بل رغبة ضخمة في السباحة وقهر البحار الجديدة.

أو بالأحرى مدريد.

ما أشبه الكشك الذي لدينا تحت بناء منزلنا برصيف الميناء حيث ترسو كل يوم جميع السفن التي يمكن تصورها. كم كنا سنقدم لنيل مكان كهذا في القرية، وكم هي حرية الحركة كي تتسع في ستة أمتار مربعة، وكم عدد الطرق البحرية، وكم من قرصان!

تلك هي إسبانيا حيث كان كل شيء بعيد المنال، هناك كنت تتابع أخبار الرياضة، والفكاهة، والحروب، والأحداث المحلية والعالمية، والوحوش البرية بالتقسيط وألغاز البشرية، وكسب الثروة عن طريق بطاقة اليانصيب وحتى أول فيلم إباحي.

عندما لم يكن أبي موجوداً في شركة كريزلر، أي يوم الأحد، أخذني والدي لشراء بطاقات أو جنود صغار، بعض المظاريف التي تحتوي على لاعبي كرة القدم أو الحيوانات التي كنت أفتحها بسرعة كبيرة واندفاعية، كما لو كان هناك حريق في الداخل ولم أكن لأهدر ولا ثانية في الإنقاذ.

يتألف العيش في المدينة من فتح مظاريف كالمجانين، وأن يكون في متناول اليد كل المجموعات الممكنة، من بطاقات أو أماكن أو أفلام أو بنات أو رذائل، بعض الرذائل التي لم تكن موجودة في القرية أو هكذا ظننت أنا.

على عكس الزمن الذي كنت أعيش فيه هناك، يمكنني الآن الذهاب إلى كالديرون كل أسبوعين، حيث يجعلني أبي أتسلل بإعطاء سيجار للبواب. كان أول حلم مدني هو أن تكون لاعب كرة قدم. لهذا السبب سجلوني في فريق رياضي، بقميصه الأرجواني والإعلان عن أوانٍ زجاجية في الحي على الصدر. اصطحبني والدي معه للعب أيام السبت، مُنضماً إلى الفريق الرياضي، وصارخاً في وجه الحكم من وقت لآخر. إذا رأوني جميعاً مرتدياً الزي في العصر الأبيض، يسقط شخص ما على ظهره.

أصبح لدي مجموعات كبيرة من الملصقات. أذهب إلى ملعب كالديرون. كرة الصالة. حديقة الريتيرو. سوق الراسترو للعتقيات والبالة. مشاهدة المصارعة الحرة في حقل الغاز. أعتقد أنهم فعلوا كل شيء لقلب الصفحة والتطلع إلى الأمام كما فعلتْ أخواتي، حتى أنسى أمر أميريتا، التي ما زلت أنتظرها ليلاً قبل النوم، رغم كل شيء. اشتركت فيرو وإيسا في كرة اليد للتجربة قليلاً. استمرت فيرو لمدة نصف عام، لكن وصلت إيسا لتكون حارس مرمى فريق مدريد. أعتقد أن هذه كانت المرة الأولى التي تتفوق فيها كثيراً على نظيرتها الأخت الكبرى في شيء.

في هذا الجهد، كان أكبر سخافة أتذكرها هو الانضمام إلى الكشافة، وهو كان يتألف أساساً من أن يدفع الآباء مقابل أخذ أطفالهم إلى الطبيعة، عندما كانت كل الأرض في القرية مجانية. لقد خرجت مرة واحدة فقط. قلت هذا إذا أجبروني على ذلك، فكنت سأهرب. لم يختلف الأمر كثيراً.

في المدينة مطلع الثمانينيات، أصبحت الأخطار أسوأ من الآبار المكشوفة التي لا حواف لها. فقط لأنه بدأت تعجبك الأخطار أكثر فأكثر.

لقد أحدث النمو أيضاً هذا التغيير في النظرة.

فإما أنك غيرت نظرتك بسبب أنك كبرت، وإما أنك كبرت بسبب أنك غيرت نظرتك. أعتقد أنه كان السبب الأول.

حدث لي ذلك مع الأجسام. على سبيل المثال، كبرت في اليوم الذي قررت فيه أن النوم مع والدي عارياً، كان غباءً.

حدث لي مع إحدى روائحي المفضلة في القرية، وهي رائحة اللاصق السريع إيمديو. على سبيل المثال، كبرت عندما كنت في الاستراحة في غرفة الطعام، ورأيت أحد البالغين يستنشق اللاصق في وعاء كان يسخنه بالولاعة.

حدث لي مع الأشياء. على سبيل المثال، كبرت في المرة الأولى التي رأيت فيها حقنة مثل تلك التي استخدمها فيسنته خيسوس لمرض السكري، هناك في رمال منتزه سان نيكاسيو، مع آثار دم على مكبس الحقنة وعلى الإبرة الملوثة.

لقد حدث لي مع الناس. بعد بضع سنوات. في اليوم الذي كان لدي الملف الأصفر أمامي.

* * *

كان دوري بفتح بطاقة تهنئة بعيد الميلاد بعد إجراء القرعة. جاءت في مغلف. كانت عبارة عن قطعة مزدوجة ظهر على غلافها الطفل يسوع، أشقر الشعر وبعيون زرقاء ورأس عنيد جدّاً، مغطى حتى الكتفين بملاءة بيضاء على

سرير من القش. ظهر بجانبه ثور وبغلة تبتسم بكل أسنانها كأنهما بشر. ارتدت راعية وشاحاً أخضر ولها عينان مائلتان، دخلت من باب الكوخ مع سلة محملة بالفاكهة. في الزاوية اليمنى العليا، كان مكتوباً: أعياد سعيدة. شممت عطرها الممزوج من الفانيليا والصابون.

عندما وصلت تلك الرسالة من السيدة إميريتا، كنا قد أمضينا بالفعل شهرين ونصف الشهر دون معرفة أخبار عنها.

في البداية كتبنا إليها بانتظام. كانت والدتي تروي لها أخبارنا في ورقة على كلا الوجهين، وفي نهايتها، نضع جميعنا تواقيعنا أو عبارة على الأكثر، لأن أمي لم تترك مزيداً لنا، أصرت على إخبارها أشياء مثل أن إيسا قد ربحت ميدالية، وأن فيرو صارت امرأة صغيرة أو أنّها زادت بمقاسين في وقت واحد.

لو لم تكن صماء، أعتقد أننا في تلك الأسابيع كنا سنطلب من أمي الاتصال بها لعند بائع السجائر، إذ كان عنده الهاتف العمومي الوحيد في القرية.

أنا أعرف ما كان سيحدث تلك السيدة النمامة التي أعلمت الجيران عن الوقت الذي سوف نتصل بها عبر الهاتف، وكانت ستبقى هناك في الغرفة الخلفية، متظاهرة أنها ترتب علب التبغ، للاستماع إلى كل شيء.

أعرف ما كنت سأقوله لها، وسأخبرها أن ليغانيس أكبر من القرية بعشرة أضعاف أو أكثر، وأنه في مدريد كانت هناك دور سينما عادية وصالات X وسكاكر باكو، وحتى متاجر للصم. لكن كانت تلك البحيرة بالمراكب تشغل نصف حجم تلك الموجودة هناك في القرية، وأن متجر ما وراء البحار كان مماثلاً.

كنت سأسألها عن سوفراخيو، وعن غريغوريو، وعن فيسنته خيسوس. عن بيراكاس أيضاً كنت سأسأل عنه، لأنه كلما تذكرت إميريتا، خطر ببالي الحمار بيراكاس. كنت سأطلب منها أن تخبرني عن المعلم الجديد، وعن والد توماس، وهل جرت هناك انتخابات مرة أخرى، إذا كانت تعتني بطفل آخر أم لا، وإذا كان يضع لها الإملاء.

أعتقد أنه لو كان بإمكانها سماعي وكنا على الهاتف، وإذا لم يكن هناك أحد أمامي وإذا كان لدينا الوقت والمكان، حينئذ، فقط نحن الاثنان، أعني، أعتقد أنني كنت سأخبرها أيضًا أني اشتقت لها كثيراً.

لكن لم تكن إميه لتستمع إليّ بغض النظر عن المدة التي حصلت عليها من هاتف بائع السجائر، أو مهما صرخت. والشيء الوحيد الذي يمكنني قوله لها هي تلك الكلمات الأربع التي تناسب الجزء الأسفل من بطاقة التهنئة بعيد الميلاد، عندما قالت لنا والدتي: «ضع هنا أربع كلمات».

أربع فقط.

في نهاية الورقة.

كما لو أن أخواتي لديهن الحق في المساحة نفسها مثلي.

كتبتا اسمها بجانب «قبلة قوية» أو «عناق». وقضيت خمس دقائق أمام الورقة، أقضم القلم، حتى خطر لي ما أردت كتابته.

أربع كلمات، حسناً.

لكن بالتفكير في تهنئة الطفل يسوع الأشقر ذي العيون الزرقاء (لم أر مثل هذا الصبي في حياتي من قبل)، وكتبت إميريتا: «أتمنى لكم جميعاً عيد فصح سعيد وعاماً جديداً سعيداً». ثم وضعت اسمها.

بعد تفكير طويل، في التهنئة التي أرسلتها لها والدتي، كتبت: «عسى أن يهدوك أشياء كثيرة».

ثم كتبتُ: «مُعلمك».

* * *

في الأوقات التالية، لم يكن هناك نقص في البطاقات البريدية لعيد الميلاد ذهاباً وإياباً، باتت مواعيد الرسائل دقيقة إذ نهنئ بعضنا البعض الآخر في أعياد

الميلاد أو في تلك المناسبات الأخرى، أطول قليلاً ومتقطعة، إذ لخّصنا الأحداث التي حدثت هنا أو هناك من خلال إنشاء ملف رصيد الأشهر.

تم تباعدت الرسائل شيئاً فشيئاً، لم أعد أشعر بالتشنج نفسه عندما أتوقع بريدها في صندوق البريد، تلك اللحظة عندما طلبت من والدتي الإسراع، أمسكت بالظرف مثل رجل مجنون، وطلبت منها فتحه. وتحدثت جميع الرسائل عن الأشياء ذاتها تقريباً. إذا كنت بصحة جيدة «الحمد لله»، إذا أصبح الجو بارداً أو حاراً (حسب الموسم)، على تقديم الحصاد أو تأخير. ذكرتنا كثيراً، وأن ندرس كي نصبح أشخاصاً مفيدين، وعن متى سنراها. عندما أجابتها أمي، وطلبت مني وضع أربعة أحرف هنا، بدأت في إرسال الأوراق بكتابة اسمي و«قبلة». توسعت إميه في صفحتين أو ثلاث صفحات صفراء كما لو لم يكن لديها ما تفعله أفضل من ذلك.

يمكن ملاحظة أنها تزينت بالأحرف الكبيرة، وسعت لتحقيق المزيد من فن الخط والمزيد من الاهتزاز.

تخيلتها وهي تكتب جالسة بجانب المدفأة. وحيدة. حركت يداً واحدة للأعلى وللأسفل وعض طرف لسانها برفق، بينما ثبتت باليد الأخرى الورقة على الطاولة النقالة. ذكرتني قليلاً بهؤلاء الناجين ذوي الشعر الطويل الذين يرسلون رسائل يائسة داخل زجاجة، دون معرفة ما إذا كان شخص ما سيقرأها أو إذا كان سيحصل على إجابة. كانت رسائلنا أقصر وأقصر. وكذبنا عليها عاماً بعد عام: كتب لها أبي في مرات عديدة أنه سيحضرها إلى مدريد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وليأخذها إلى حلبة مصارعة الثيران، أو أنه كان يبحث لها عن عريس.

لكن لم يكن هناك ثيران، ولا عريس، ولا حتى برشام الآيس كريم في صالة لوس ألبس، كما كتبت لها في البداية. في النهاية، أرسلنا له بطاقة بريدية. وكان لدى خمستنا متسع كبير فيها. خلال العام الدراسي الأول في ليغانيس، عدنا إلى القرية عدة مرات لرؤيتها. في العام الدراسي التالي، سافرنا مرّتين. في السنة الثالثة لرحيلنا ذهبنا ليوم واحد. وبعد ذلك توقفنا عن الذهاب.

كلما جاءنا بريد منها، كنا نتحدث دائماً عن العودة لمنحها مفاجأة، عن إذا كان شعرها قد أصبح أكثر بياضاً من والدي أم لا، فكم عدد الأخطاء الإملائية سيكون الآن إذا وضعنا لها إملاءً. وخلال ذلك كنا نقول مرر لي الملح أو قرب مني الماء، تذكرنا تلك السنوات الدراسية القديمة في القرية التي لم يكن ممكناً لأي منا الحصول على النجاح دون تلك المرأة الريفية. لكن كان لديّ بالفعل أشياء أفضل لأفعلها. بدأت كل منهن يتعاقبن في الثانوية الموحدة متعددة التكافؤ.

ذهبنا إلى لعب كرة قدم الطاولة. لقد طلبنا الميني مع برافاس. خرجت لأول مرة مع فتاة لي. انقسمت أخواتي نهائياً إلى قسمين وأردت أن أكون فريداً: لقد وضعت الماء مع السكر على شعري. كنت أرتدي ملابس عسكرية وحذاء أسود وأحزمة بفتحات كبيرة. بدأت في بلع الدخان.

في المرة الأخيرة التي اقترح فيها والداي الذهاب لرؤيتها، قلت إنني لن أذهب. كانت امرأة طيبة، احتفظت بذكرى رائعة لها، كنت ممتناً مثل والديَّ، وكنت بالتأكيد محظوظاً لمعرفتها.

لكن كان أقل شيء مرغوب فيه في عمري هو الدخول إلى قرية بها امرأة صماء. في ذلك السبت كنت قد رتبت للقاء أصدقائي للعب البلياردو.

* * *

عزيزتي الآنسة مرسيدس.

عزيزي ناتالي.

عزيزي كوريته.

عزيزاتي فيرو وإيسا.

سأكون سعيدة أنه عند استلام هذه الرسالة، أن يكون الجميع على ما يرام، أنا بخير بفضل الله.

استلمت أمس بطاقتكم البريدية من شينتشون، وبدأت هذا الصباح في الكتابة إليكم بضعة أسطر لسماع أخباركم.

لا يمكن تخيل ما أتذكره من تلك السنوات التي كنا فيها سعداء جدّاً ومتلاصقين جدّاً ومتحمسين جدّاً ومتحابين جدّاً. آمل أن تكونوا هناك في المدينة تتذكرون كثيراً هذه المرأة الصماء التي وضعت في بيت القرية لبضع سنوات، تلك الصماء تم تبنيها كما لو كانت واحدة من تلك القطط الشريرة إذ رشقوها جميعاً بالحجارة ونعتوها باسم فو، ويسرقون لها مواليدها. لا أنسى وكيف لي أن أنسى يا آنسة مرسيدس. على أي حال.

هنا البنت، الشاب والملك كما يقال في بطاقات الشدة للرجال، لأن البطاقات الأخرى، هذه التي عليها ختم، يا آنسة، أعتقد أنها أشياء نسائية. يبدو أنه يصعب عليهم الكتابة أو الاستماع أو التحدث مثل رامون. سيكون لهذا السبب أن كوريته لا يتحدث إلا قليلاً منذ رحيله.

كنت أخبره أنه في القرية بنت، شاب وملك، وأن الرجال يمضون لأغراضهم في الكازينو أو على الأرض حيث يشتكي نصف المزارعين من هطل الأمطار بغزارة والنصف الآخر لقلتها، وأننا دفننا دون أوبالدو، وأن بيتي يبدو لي بيتاً كبيراً لامرأة وحيدة، وأني أخرج قليلاً في فترة ما بعد الظهر للعب الورق عند لويسا، وأن لدي جهاز تلفاز أهداني إياه دون إلاديو، لأنه اشترى تلفازاً ملوناً حديثاً، تلفازي هو بلون بني وأسود كبير حقاً، ويجب أن تضربه باليد من وقت لآخر لحمله على الاستجابة إليك، كما يفعل الناس مع بعض الصبية، تجعلني مشاهدته أشعر بالرفقة.

إذا أوقفوني في الشارع وسألوني عنكم، فأنا أتباهى بكوريته كما لو أني أعرف شيئاً عنه، كما ترى. أقول لهم إنه يبلي بلاءً حسناً في المدرسة، وقد كبر كثيراً، وأنكم لا تتوقفون عن إرسال الرسائل إليَّ، وأنت تعلمين أنني لست شخصاً يكذب: إلى

جانب ذلك، أقول إنني على الأغلب سأذهب معكم في إجازة لرؤية البحر، غفر الله لي ولكم. هذا ما سأخبرهم به عندما يستجوبونني: إنهم سيأخذونني لرؤية البحر، وإلى السينما في مدريد، وإلى ما يسمونه سوق الراسترو للمستعمل، وأكل الحبار، وأقول لهم لا أعرف كم من الأشياء الأخرى سيأخذوني إليها. فقط لكم الأفواه، آنسة مرسيدس، فقط من أجل ذلك ولا شيء زائد، وأنت تعلمين بالفعل أن امرأة ما هنا لديها فم كبير جداً وربما تنشر القصة.

أردتك أن تعرفي ذلك مني، وأن هناك الكثير من الثقة، وأنها لا تزال مستمرة، لأن من كان لديه الثقة، يحافظ عليها.

أوه! في كل مرة مررت من منزلك، وأرى المعلمة الجديدة مع ابنتها، أتذكرك وأتذكر كوريته كثيراً. وأنا تؤلمني تلك القصص المتكررة. المرأة المعلمة لطيفة جدّاً، لكنها ليست مثلك. بل أقبح منك بكثير. ونعومة أقل. وأقل اجتهاداً في كل شيء.

ما أقوله لك: حديقتك ضائعة ومليئة بالأعشاب. يجب أن ترين كيف أن جنة غناء تصبح يباساً بمجرد عدم الاعتناء بها. إذا أغمضت عينيّ، أراك في بنطلون ومع المعزقة تلوحين من بعيد. وإذا فتحت عيني أرى المعلمة الجديدة التي لا تساوي النصف من المعلمة السابقة. حسناً، إذا كنت أنت، يا آنسة مرسيدس، تلفازاً ملوناً، فأنا يخطر ببالي الآن أنهم في القرية قد غيّروه لواحد باللونين الأبيض والأسود.

اكتبوا لي جميعاً بشكل متكرر من الأحيان ولفترة أطول، أخبريني عن المدرسة في ليغانيس، التي من المؤكد أنها تضم أعداداً كبيرة من الطلاب وأنهم أقل قساوة. دع إيسا تخبرني كيف هي كرة اليد التي تجيدها. ما هي أحوال فيرو مع الدراسات التي تنال فيها النتائج الجيدة جدّاً؟ أخبري ناتاليو أنني لا أبحث عن عرسان، لكن لديه هنا أرنبة مع البطاطس حينما يشاء.

وأخبري كوريته أنني أنتظره كل يوم. في بعض الأحيان أتخيله يدخل هذا الباب، ويقترب مني ليطلب مني رقصة، أنت ترين أي أمور هذه.

أخبريه أن لدي مفاجأةً له، بأن يصحح هذه الرسالة، ويرى كم غلطة إملائية ارتكبت فيها. أخبريه أنه لن يصدق ذلك، لكن سيحضر السيد لويس سمك البحار العميقة.

أخبريه أنني في أيام السبت لا أخرج مع لويزا أو بيرتا في نزهة على الأقدام إلى الطاحونة، لأني لا أعرف ماذا يحدث لي هنا في الصدر عندما أرى السيارات قادمة في عطلة نهاية الأسبوع، لأن المرأة لا تعرف أبداً، ثم أقول لكليهما: «يا بنتيَّ، من الأفضل أن أبقى، لئلا يكون كوريته، بعد كل ذلك، قد قرر المجيء بعد ظهر اليوم».

إميريتا رودريغيز بيريز

* * *

تماماً، كما في يوم من الأيام تخرج الحيوانات الدمى من السرير إلى الأبد (هذا الأرنب الباهت، هذه السلحفاة ذات الفم غير المخيط، التنين ذو العين المفقودة)، البلوغ يعني أيضاً إزالة الأشخاص الآخرين الذين شغلوا مساحة مهمة في طفولتك من الطريق.

شيئاً فشيئاً تنسى أصواتهم ووجوههم والألعاب المشتركة والاكتشافات المشتركة، تلك الومضات التي أضاءتك في وسط الظلام، الأسرار الأولى. لم تعد تهتم بالأشخاص الذين أقسمت لهم الصداقة الأبدية أو الحب مدى الحياة كونك طفلاً. في سن المعهد لا يوجد سوى المستقبل. أنت كل ما ينتظرك.

حتى تمر سنوات وسنوات أخرى وذات يوم، كما لو كنت بالمصادفة، آتياً من العمل أو من اصطحب الأطفال إلى المدرسة أو أثناء دفع غرامة، وينتهي بك الأمر في غرفة التخزين حيث تخفي كل شيء. تبدأ في فتح الأدراج. وتحصل على مقاطع بنية. أفلام منسية، دببة قماشية دون أحشاء. وأنت تتساءل ليس فقط أين كانوا كل هذا الوقت، ولكن أيضاً أين كنت أنت؟ وتمرر أصابع يدك فوقها، ببطء شديد،

مستخدماً الحواس الخمس، مثل عندما يحاول رجل أعمى تذكر وجه، ثم تدرك أنك كل ما تبقى أمامك، نعم، ولكن أيضاً الكثير من كل ما تركت خلفك.

لذلك كنت بحاجة إلى الكثير.

مثل أخواتي، كنت أعيش في فترة فقدان الذاكرة هذه. كانت والدتي تخبرنا عاجلاً أو آجلاً أخبار السيدة إميريتا، وأنا كنت أصغي إليها كشخص يسمع حديثاً عن الإمبراطورة سيسي أو عن الحرب في كوبا. ليس الأمر فقط لأنهم بقوا بعيدون جداً عني. بل لأن لم يكن يهمني قدر قرن فلفل.

في ذلك الوقت، كانوا قد تركوا لنا طعاماً جاهزاً في الثلاجة، وذهبا دوننا إلى السينما (إذ خيرت بين أمي) أو حقل الغاز (إذن لاخترت أبي). قبل المغادرة كررا علينا بعض التعليمات التي حفظناها عن ظهر قلب.

١ - يُسَخنُ الطعام على الموقد الصغير.

٢ - كونوا حذرين جدّاً مع غاز البوتان.

٣ - قوموا بالجلي والتجفيف والتعليق ثلاثتكم، تماماً كما كنتم تفعلون وأنتم صغار.

٤ - لا تفتحوا الباب لأحد.

في ذلك الصباح كنا جميعاً معاً. كنت أعلم أن شيئاً ما قد حدث، وأنه كان عاجلاً لأن كل هذا حدث بعد رنين الهاتف. كان من الممكن سماع والدتي وهي تقول: «لا تقوليها» و «أم المسيح». في الكثير من الأحيان. كأنها لا تعرف كيف تقول أي شيء آخر.

ذهبا كلاهما يوم السبت إلى القرية دون إعداد أي شيء للأكل. أتذكر أمي وأبي كانا يتحدثان لمدة دقيقة، وسرعان ما ارتديا معطفيهما قائلين: إنهما سيغادران إلى القرية لرؤية إميريتا ثم يعودان فيما بعد. كانت قد اتصلت السيدة أمبارو من عند بائع الدخان، بأن إميه كانت قد سقطت من على الدرج.

عاد والدي في وقت متأخر من الليل وقال لنا: بأعجوبة لم ينكسر لها شيء، ولكن نعم كانت ضربة قوية على الرأس. لقد استعادت وعيها للتو في المستشفى. مستفيدة من حقيقة أننا حصلنا للتو على عطلة عيد الميلاد، كانت أمي ستبقى هناك حتى تُخرّج، ثم كانت ستذهب معها إلى بيتها. حتى يوم السبت التالي، وهو اليوم الذي فيه كان والدي سيذهب لأخذها.

- «ليس لديها أحد قال والدي».

لم يكن لديها أحد.

ارتدت الجملة في رأسي مثل كرة السلة في صالة ألعاب رياضية فارغة. غادرنا ذات يوم ولم يكن لدى إميريتا أحد.

خُرجَتْ طبياً يوم الاثنين. بعد ظهر ذلك اليوم، اصطحبتها والدتي إلى البيت في سيارة دون الاديو. واستقرت هناك. أمضت ليلة عيد الميلاد إلى جانبها، واتصلت بوالدي كل يوم من عند بائع الدخان لتخبره عن تحسن إميريتا بشكل أفضل، حتى تعافيها تماماً. بالتأكيد، كانت نساء ما قبل من حديد.

عندما ذهب أبي لملاقاتها وعادا إلى ليغانيس بعد ظهر يوم السبت، بدت أمي أكثر نحافة ووجهها متعب. لم يستغرق الأمر خمس دقائق لتخبرني.

- «لقد سألت عنك بما فيه الكفاية».

- ماذا قالت؟

- «كيف لم تعد تكتب لها أو تذهب لرؤيتها»؟

- «وماذا رديت عليها»؟ - «لقد كذبت عليها».

في الأيام القليلة التالية، كانت أمي صامتة حيث اعتقدت بسبب التواريخ: في نهاية العام، تتذكر دائماً من لم يكن هناك أكثر من أولئك الذين كانوا هناك منا، عن الجد، عن العم خورخه، عن صديقة تُدعى سونيا أُزيل صدرها الأيمن تباعاً، وهو ثديها الأيسر وجزء من معدتها حتى وافتها المنية. لكن لم يكن الأمر يتعلق بذلك، أو أنه لم تكن فقط من أجل ذلك.

صُدمت عند مشاهدة مغارة الميلاد أو مشاهدة تساقط الثلوج من النافذة، ولم تَكَدْ تتكلم، جاءت بمجموعة من البطاقات وأعادت قراءتها، وكتبت بطاقات بريدية، وتوقفت للنظر إلى كبار السن كما لم تفعل ذلك من قبل.

بعد ظهر أحد الأيام عندما ذهب والدي مع أخواتي إلى بلازا مايور في مدريد لشراء مواد مزاح لهن، نزلت أمي إلى غرفة التخزين، وابتكرت ألبومين من الصور. تصفحت في صمت حتى حلول الليل. حتى بعد أن بدأ برنامج التلفاز الأسبوعي: واحد، اثنان، ثلاثة.

في منزلي، كانت رؤية برنامج واحد، اثنان، ثلاثة هو نفسه بالنسبة للآخرين، يجب أن يكون رؤية ملاكمة كاسيوس كلاي - محمد علي - أو مشاهدة كورو روميرو وهو يصارع الثيران. فقط أن برنامج «واحد، اثنان، ثلاثة» كان يقدم كل أسبوع. وكان أبطاله الناس مثل والديّ. أزواج جاؤوا من أماكن مثل ليغانيس. عروسان وصلا من قرية صغيرة. لقد أحببنا مشاهدة البرنامج، لأنه إذا كان قد جاء دورهم، فيمكن أن يحين دورك يوماً ما أيضاً. في بعض الأحيان يأتي أحد الجيران ليجلس أمام التلفاز معك. برنامج واحد اثنان ثلاثة. الاختيار النهائي. لهذا السبب فوجئت أن أمي لم تغلق الألبومات.

عندما أخذ الزوجان من بونتيفيدرا اليقطينة، وفقدا شالياً في توره بييخا، عندما أمسكا باليقطين اللعين، سُمعت صرخة تحسر «أأأووووه» طويلة جدّاً، وبعد ذلك خسرا على التوالي سيارة سيات باندا، ورحلة إلى المكسيك، واثنين من مضارب التنس، ومجموعة من منتجات من بساتين مورسيا، ومكاناً لوقوف السيارات، ولا أعرف عدد الأشياء الأخرى، لذلك أنا أقول، ورفعت أمي رأسها عن الصور لأول مرة وقالت جملتين وحيدتين متتاليتين. فهمت الأولى.

- كم هو مهم الحظ في الحياة؟

والثانية لم تكن في الحسبان.

- «وكم نحن محظوظون».

انعكست صورة اليقطينة روبيرتا في نظارتها. نظرت إلى ما وراء اليقطين، ونهضت لإيقاف تشغيل التلفاز، وبقينا صامتين للحظة. قالت لي: «هيا، تعال». وذهبت إلى الأريكة، وجلست بجانبها وأرتني الصور.

رُتبتْ حسب السنوات، وصُّورت بكاميرا بولارويد التي كان قد اشتراها والدي من أجل المناولة الأولى لأختيَّ في الكنيسة.

ذهبت مباشرة إلى أحد الألبومات. ووضعته على ركبتيها وفتحته.

صوري أنا وإميريتا يداً بيد عند باب متجر ما وراء البحار.

أنا في ملابس السباحة على أكتاف والدي، مع إميه على طرف واحد، بجانب النهر.

ابتسمت السيدة إميريتا في المطبخ ورفعت أرنبة مسلوخة من أقدامها الخلفية.

أرتدي زي حارس المرمى في صورة دون إطار، حيث أُلقي بنفسي لإيقاف تسديدة والدي، معها في الخلفية، جالسةً على صخرة مع أخواتي.

أنا وأمي، إميه عند بوابة المدرسة، نحن الثلاثة وأعيننا مغمضة.

صورة خارجة عن نطاق التركيز حيث كنا أنا وفليكي وهي في حالة حركة.

وقفت إيسا على يديها وهي ترتدي سروالها الداخلي في الهواء. ضحكت فيرو ويدها على فمها وعيناها مفتوحتان جدّاً، نظرت إميه إلى المشهد، وذراعاها على وَرِكَيْها بجوار الحائط، أنا أقلدها وإميه ويدها الملفوفة على كتفي، وبجواري، بيراكاس.

صورة ونحن نتناول وجبة في الريف مع بطانية مربعة على الأرض كمفرش للمائدة وظهرت سيارة السيمكا ١٢٠٠ في الخلف.

- «لقد سألت عنك». كثيراً، كررت.

* * *

تواجدت والدتي في القرية مع السيدة إميريتا، حيث تنتقل المرأة فقط من السرير إلى المقعد الموجود بجانب النار، وتساعدها أمي دائماً. تعتني بإطعامها، وإعطائها الأدوية والعلاجات. نظراً لأن اليوم طويل جدّاً، فقد خرجت للاتصال بوالدي عبر الهاتف وبطريقها ذهبت للقيام بزيارة، لكنها عادت على الفور.

لا يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة.

تقرأ وهي جالسة بجانبها، وتتحدثان من وقت لآخر، وتنظف البيت سطحيّاً لأنه نظيف تماماً، تلعبان الورق والبرجيس، تشاهدان التلفاز مع أنها لا تسمع سوى أصوات ترنيمة عيد الميلاد في الشارع.

تشعر أمي بالملل أحياناً، وتفكر فينا وبكل ما عليها القيام به في موسم الأعياد لقتل الوقت، ماشيةً خجل في بيت لا تكاد تعرفه، فهو بيت متواضع ومكون من طابقين حيث تواجدت فيه بمناسبتين.

بدا الجو أكثر برودة في الطابق العلوي: يخرج البخار من فمك عند حديثك لأنه كاف للسيدة إميريتا ويزيد عليها مع الطابق الأرضي، حيث تعيش وتحافظ على الحرارة. صعدت أمي دون أدنى سبب. حيث أحدثت أرضية الطابق العلوي الخشبية صريراً. وليكن. تبسمت أمي المحظوظة لأن سيدة البيت صماء.

تشاهد أمي غرفة مغلقة. وواحدة أخرى أصغر. زاوية نصف مكسورة. وباب السقيفة.

تفتح أمي الباب. المفصلات تصدر صريراً. لا تكاد ترى. الضوء الوحيد هناك هو الذي يدخل من خلال نافذة صغيرة ملأى بالغبار وخيوط العنكبوت. تقلب القاطع فيضيء مصباح قوي. ترى بعر فأر، وفخاخاً، وعشرات من الكراكيب، ومهد، وأدوات زراعية، وقناديل أكلها الصدأ، ومعلقة على الحائط، وبعض أحذية الرجال، وأحواضاً، وأواني، وكومة من مجلات «مختارات من ريدرز دايجست» وصندوقاً.

أكثر ما أثار انتباه والدتي هو أن الصندوق نظيف بشكل مذهل، فهو الشيء الوحيد الذي ليس عليه غبار من الكوخ بأكمله، والشيء الوحيد الذي يبدو حيّاً. هناك مقعد منخفض على جنب. وهو مفتوح. من المستحيل عدم الاقتراب للنظر فيه.

هي تقترب.

أول شيء تعرفت عليه هو زجاجات الكولونيا الفارغة الخاصة بأبي، وجدت نصف دزينة منها. تمسك واحدة بعناية، وتشعر بلمسة جليدية للزجاج. هناك ثلاثة سراويل ولادية من الكروشيه غير مستخدمة، مجلتان من داردوفيل. سن صغيرة داخل صندوق معدني. نسخة من قصة الزيز والنملة بالفرنسية. قاموس فرنسي - إسباني / إسباني - فرنسي. عشرات الأشكال الورقية، بعضها ملون: طائرات، ضفادع، بجعات، ثعابين، عصافير. زي مصارع الثيران ملفوف في مناديل ورقية بيضاء. ثلاثة أزواج من الجوارب. أربعة كعوب. مصاصة أطفال. دفتر خط روبيو مكتمل الكتابة بالكامل. حقيبة جنود صغار من الحرب العالمية الثانية. ريش طائر الكناري.

نزلت أمي بعد انقضاء مدّةٍ.

وتجلس بجانب إميريتا.

التي تبتسم وتومئ برأسها، كما هو الحال حين يُسمح لطفل بأخذ فطيرة أخرى.

* * *

«لقد سألت عنك يا دافيد.

سحبت أمي مجلد أصفر احتفظت به أسفل الألبوم، ووضعته في المقدمة. تفتحه.

- أعطني إياه

أبدأ في القراءة:

«أنا أكتب وأحفظه».

الإحراج الذي سأشعر به إذا قرأته.

الوقت الذي أمضيه قبل الكتابة باحثة في القاموس، أفكر في حروف الهاء والباء واللام والغين.

وضع الكلمات هنا كما لو كانت أدوات مائدة. الشيء نفسه الذي علمتني إياه. تماماً.

وأنا أفكر فيك.

ويؤلمني.

أحب أن أنظر إليك عندما لا تنتبه يا بني.

عندما تمطر بالخارج وأنت هناك مذهولٌ وأنت تشاهد هذا التلفاز لأنني لا أعرف ما الذي يمنحك ولا ما يقوله. كل شيء في مكانه وكما الله أمر، وأنت تأكل الخبز مع الشوكولاتة الذي حضرتها لك.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢٠٢٠)

[جئنا من الصمت.
كنا نتجه نحو الضوضاء المطلقة.
كنا تلك الرحلة من الصم.
نحن.
المَمْحُوّون والمنسُّيون. والمَعْفُوّون. والنّاكرون.
نحن الذين أبداً لم نخبرك به دائماً.
نحن الذين دائماً قلنا لك أبداً].

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

(الجاحدون)

إذا كنت صادقاً مع نفسي، السبب الوحيد للغياب التي طلبته في العمل يتعلق الأمر بهذه الرحلة.

لم آخذ إجازة للقيام بجولة في جبال الألب بالدراجة، كما كذبت، ولا بسبب أنني كنت متعباً، ولا لأنني أصبحت مشبعاً بالكثير من آلام الآخرين التي أعمل بها يومياً في المستشفى، ليس بسبب الفتيات، وليس لأنني بحاجة للابتعاد عن مارتا، ولا حتى بسبب وفاة والدي مؤخراً.

إذا كنت قد أخذت الإجازة، فكي يكون بمقدوري القيام بهذه الرحلة. استحوذت الرحلة تفكيري.

استعديت قبلاً شيئاً فشيئاً. كما لو كنت ذاهباً إلى الغابة، أو أتسلق ثمانية آلاف متر مع حقيبة ظهر قديمة على ظهري بالرغم من البرد وعدم القدرة على التنفس بسبب الربو. لدي عذر للمغادرة فقط في يوم واحد، والعودة إلى هناك جسديّاً، أطرق على الأبواب، أبحث عن الروائح، وأراجع الصور، وأعود إلى المخابئ، وأذهب من خلال الفضاءات ولا سيَّما الفارغة منها.

إذا كنت قد أخذت إجازة، فلكي أجري جرداً للغيابات. التحقق من كل ما تبقى قائماً. التحقق مما تبقى قائماً مني.

أخذت هذا الصباح دفتراً وقلماً صغيراً من إيكيا وصعدت إلى سيارة الفورد كوغا. كتبت اسم القرية في المتصفح. وضغطت على زر «اذهب - غو»: يستغرق الأمر الآن أقل من نصف الوقت السابق للوصول. ثم وضعت قائمة تشغيل «بليليست»كلفتني أسبوعاً من التحضير.

الآن أسمع صوت أغنية إميه، للمغني ليبا.

كان يحب والدي السفر ليلاً، ونادراً ما كنا نسافر خلال النهار. ربما لهذا السبب لا أتعرف على معالم الطريق. على الرغم من أنه من المرجح، وبعد مدّة طويلة، فستختفي المناظر الطبيعية تماماً.

الطريق السريع رائع، لا علاقة له بالطرق الوعرة في ذلك الوقت، مع الازدحام المروري عند مخرج مدريد أو الذي اعتدنا أن نلاحظه عند المدخل، أثناء وجودنا على الراديو سمعت هدفاً في لاس غاوناس أو يغنون دانيال وليتي.

أنا أقود ببطء شديد حتى تتجاوزني الشاحنات عن اليمين واليسار كما لو أنني لم أرغب قطُّ في الوصول إلى هناك أو كنت أتطلع إلى إسعاد نفسي على طول الطريق.

أرى مناطق صناعية على كلا جانبي الطريق، ووكالات السيارات، ومعارض الأثاث المكتبي، ورادار إذ كان هناك موضع لبيع البطيخ الأصفر، وسوق الهيبر آسيا العملاق، وتجمعات سكنية مبنية عند سفح الطريق السريع التي تحيط بها جدران سميكة من الزجاج لمكافحة الضوضاء. الشيء الوحيد الذي أعرفه هو إعلان نبيذ ثور أو سبورنه. زمرت الشاحنات لي، ولكنني لم أكترث حيث رفعتُ صوت الموسيقا.

تصدح الآن أغنية إيفريبدي هارتس للمغني ريم «آر إي إم».

أرى شركات الرخام والأقفال المعدنية، ومخارج إلى لوري ميرلين وماكدونالز، ومجمعات سكنية نصف مبنية بحجم ملعبين لكرة القدم، مأكولات محضرة من الأعشاب، ينبعث من المصانع دخان أبيض كثيف، وتجمعات للخردة، وجبال من الإطارات المطاطية من بعيد، محطات ريبسول وشل، والسماء مثل الرماد والشجيرات كالنار.

عندما قالت أمي لأبي ألا يسرع كثيراً كان يجيب إنه أفضل سائق في العالم. بين المنحنيات والحليب ودخان التبغ، كنا نشعر أحياناً برغبة بالقيء لا يمكن صدها. كنا نفعلها في كيس وتلقيه والدتي من النافذة باستمرار. بحلول ذلك الوقت، اكتظت المنحدرات بأكياس ممتلئة بقيء الأطفال. في المقعد الخلفي، حيث كنا نجلس نحن الأطفال، لم تكن هناك أحزمة أمان. كانت هناك لحظة عندما طلبت أمي من أبي أن

يتخلص من برنامج كرة القدم، وأنه كان مزعجاً، وأن ماذا قدمت له مباراة سالامانكا - سبورتينغ دي خيخون، وأنها كانت ستضع موسيقاها.

تصدح الآن أغنية لوكيه كيراس أوبير «ما تريد أن تسمعه»، لفرقة لوس بيستونس (المكابس).

لقد تغير المشهد. أرى مزروعات بور وأغراس زيتون وبيوت لآلات الحراثة كتب عليها علامة فرق التوقيت، الطرقات التي تخرج على جانبي الطريق الإقليمي، بعض المستودعات فيها الكثير من الأدوات المتناثرة التي أكلها الصدأ. يتقدمها جرار بمقطورة. أحييه بيدي وأنا أفتح النافذة. وهو يحييني. شكل المطر بحيرات ضحلة في الأرض البور والطيور تطير بعيداً عندما أزمر مراراً وتكراراً، كما حين يفوز فريقك بلقب وأنت تحتفل بالصفير بإيقاع متقطع. في المتصفح يكتب أنه بقي هناك ثماني دقائق للوصول.

نعم إنني أعرف هذا.

أذكر منحدر النزول وحدود ما كان يعرف آنذاك بالقرية، وهو ما يميزها بلون الأسطحة القرميدية. من بعيد يمكن رؤيتها بوضوح. الجزء القديم يحافظ على الأسطحة المعتمة بسبب الفطريات ومرور الزمن، أما في الجزء المدني الحديث فلون القرميد أحمر طيني يتلألأ في الشمس.

أنا أتعرف على الكنيسة وساحة القرية وهي مرئية من الأعلى، الموقع التقريبي لها حيث كانت المدارس. والمنطقة الجديدة بالكامل.

حيث كانت هناك من قبل علامة توقف مطروشة بالخرادق، يوجد الآن دوّار مع لوحة، وعشب وسور معدني.

تصدح أغنية «منزل حيث لا أحد يعيش فيه» بصوت توم ويتس.

«خمس دقائق» الزمن الباقي للوصول إلى القرية.

أشياؤنا لا تتسع في صندوق السيارة أبداً. عندما كنا ذاهبين في رحلة، كان أبي يقرّبُ الحزم في الجزء الخلفي من سيارة السيمكا ١٢٠٠. كان دوره هو دور

البغل، كما اعترف مبتسماً، كانت أمي هي المسؤولة عن وضع الأشياء، لأن كل شيء معها كان قد حقق أقصى استفادة منه ووضعت الأشياء في مكانها تماماً كما هو الحال في لعبة تتريس لصف المربعات.

لم يتحقق ذلك مع أبي.

لم أسألهم قط عما حدث أو لماذا رحل مدة. ثم أردت أن أكون مثل والدي. أعتقد أن هذا هو السبب في أنني لم أرغب في معرفة ذلك.

«دقيقتان» للوصول إلى القرية.

أنا أعرف بالضبط أين أنا. ومع من أنا مسافر؟ ومن يجلس في الخلف؟ وأنه تفوح من السيارة رائحة مثل كلونيا الأطفال نينوكو ورائحة الجلد اسكاي ورائحة دخان دوكادوس. أنا أعرف مكاني لأن الطريق فيها القليل من البطن الثابتة، وعلى كلا الجانبين يمكنك رؤية بعض المسارات القديمة. تأخذ السيارة قفزة صغيرة على المعبر القديم للقطار. تمسكت بكلتا يدي على المقود، وأنظر يميناً ويساراً كما لو كان القطار سيدهسني.

أطفئ الموسيقا.

وتقول السيارة إنني وصلت إلى وجهتي.

* * *

كنت أود أن أقول من أنا، ومعرفة ذلك.

أن أوقف هذا الرجل الأصلع ذا الوجه الأحمر الذي يبدو مألوفاً جدّاً بالنسبة إليّ، أن أمسك به من الكتفين، أن أبدأ بسؤاله عما إذا كان يتذكر الآنسة مرسيدس، ثم اشرح من أكون أنا. كل ما أنجزته (أو لم أحققه) بالمغادرة.

أود منه أن يتذكر، ويفرح قليلاً، ويسألني عن كل نجاحاتنا العظيمة (لهذه المجموعة الرائعة التي لا توصف للنجاحات الكبيرة، سيارة رائعة، عمل رائع، إجازة رائعة، هراء كبير) ثم يعطيني لمحة عما كان سيحدث لي لو أننا كنا بقينا،

إذا لم نغادر في الوقت المناسب، الحياة القذرة التي كنا سنعيشها هناك بعيداً عن العاصمة لأن الأسطورة كانت مرتبطة بالبقاء هناك بالفشل وإيجاد مستقبل في المدينة، مع الفائز.

أود أن أشرح لماذا أتيت، السبب الحقيقي، بلا أكاذيب. دون غطرسة ومتنازل وصريح. ثم إخراج قائمة الأشخاص الموجودين لدي في داخل الجيب الداخلي للسترة باهظة الثمن، كما لو كان إعلاناً «مطلوب»، والبدء بسؤاله عنهم، وهو مثل سؤاله عني.

لكني لا أفعل أيًا من ذلك.

أمشي في القرية بمفردي، وأمرر إصبعي السبابة على الجدران التي تحافظ على الجير، وأحياناً أنا أتوقف وأبدأ في التذكر، أشرب شاي ماركة بومبادور، قرأت تقريراً في الصحافة حول موت دجاجة كابوناتا وهي شخصية في البرنامج الإسباني التلفزيوني افتح يا سمسم، قررت عدم دخول الحانة حيث كان الكازينو، وأخرج، أمشي في الشوارع مرة أخرى، أداعب كلباً أعرج ونصف أعمى، أرسل الصور عن طريق واتساب، وأبحث عن الحدود المحظورة لأشجار اللوز، لكن لا يمكنني العثور عليها.

أود أن أقول من أنا. أن أقول ذلك الآن لهذه المرأة العجوز التي تدفع عربة التسوق باللون الأخضر بقناع أزرق، عفواً، - ألا تعرفينني؟ - حسناً، لا، - ألا يذكرك وجهي بأحد؟ - حسنًا، لا، - لقد عشت هنا، كنت ابن معلمة اسمها مرسيدس، واسم والدي ناتاليو، وكان لدي أختان، هل تتذكرين الآن؟

- حسناً، لا يا بني، هذا لأنني أعاني من الذاكرة. ثم أُخبرها بآخر الأخبار عن والدتي أنها تناهز التسعين من عمرها، وأنها لا تزال على قيد الحياة، وأن أمي عرفت ذلك قبل بضعة أشهر مصادفةً.

أن أقول ذلك للسيدة الأكبر سناً التي تدفع العربة الخضراء تماماً قبل أن ترافقني إلى المكان الذي تعيش فيه، بينما تخبرني في الطريق بكل شيء حدث بعد مغادرتنا، كل

ما حدث بعد أن توقفت الرسائل عن الوصول، طيب طبعاً أتذكر، يا بني، كيف لا أتذكر، كيف حال والديك؟ كيف حال أختيك؟ وأنت بماذا تعمل؟ انظر هنا، إنه المكان الذي تعيش فيه بالضبط، إن رؤيتك ستعطيها أملاً كبيراً.

أود أن أخبرها لماذا لم أحضر، اعتذاري بعد كل هذا الوقت الطويل، تقديم الشكر لها. العودة إلى خانة البداية من لعبة البرجيس. أدعها تأكلني (أحجاري). آخذها إلى مدريد لرؤية مصارعة الثيران.

أعطيها إملاء. أن تتذكر الخوف الذي لا يدرك والذي أصابني به السراعيف.

ولكن بدلاً من قول أي شيء للسيدة ذات عربة التسوق الخضراء والقناع الأزرق، أمشي في صمت.

أفعل ذلك مثل سائح فقد الخريطة. غير عارف أن أسأل، وأنا أدور بدائرة بلحظات، أو التوقف فجأة أمام علامة على الأرض أو الباب، أو عائداً على خطواتي. أحياناً أرفع رأسي وأتفحص كما لو كان هناك قناصة على النوافذ. في أحيان أخرى أشم الهواء مثل سيوكس. الآن أنا جالس على حجر أنظر إلى بعض الأطفال: لا يوجد شيء مريب أكثر من شخص غريب جالس على حجر ينظر إلى بعض الأطفال في قرية صغيرة.

الذاكرة هي لعبة مرايا مخادعة.

عندما تعود إلى مكان ما بعد فترة طويلة، فيبدو لك أن كل شيء قد تغير.

بعد أن تمضي ساعتين، كل شيء يبدو كما لو كنت لم تغادر.

أي شخص يراني أمشي سيعتقد أنني مفتش الإسكان أو مدمنٌ أو شخصٌ يريد شراء منزل، أو مطارد، أو مريضٌ عقلياً.

لكنني طفل ضائع. مجرد فتى ضائع يبحث عن أمه.

* * *

أين الطريق الذي يقودني من هنا، لماذا لا أجد الكهف، كيف أصبحت الحديقة نصف حجمها عن ذلك الوقت؟ ماذا حدث لشجرة البلوط التي لم أكن أستطع أن أعانقها من قبل والآن يمكنني ذلك؟

أرى على الشرفات أصائص ذابلة ولافتات «للبيع»، وبعض الأعلام الإسبانية، كابينة هاتف مقاومة في الساحة في لوحة إعلانات البلدية يعلن عن ورشات تدريبية للبحث عن عمل شاب يلتقط بعض القذارة التي تبرزها كلبه للتو.

بيت المعلمة اليوم هو المقر الرئيسي لجمعية النساء في المدينة.

ما كان سابقاً متجر ما وراء البحار للسيد لويس، أصبح متجراً للمجوهرات.

تم تحويل المدارس إلى صالة ألعاب رياضية حيث تقام دروس زومبا.

حيث كان متجر فيسنتيكو سابقاً، يوجد صالون حلاقة حيث يقوم مغربي بقص شعري بستة يورو.

في المساحة التي كان يحتلها لاإرا بلانكا **(الحقل الأبيض)**، توجد بعض الشاليهات بأشكال الأقزام.

ما كان منزل السيدة إميريتا المبني من الطوب اللبن، فقد قاموا الآن ببناء منزل متواضع حديث.

أود طرق الباب. وأن تفتح هي لي شخصياً وأخبرها من أنا. وأنها في البداية ترتدي وجهاً غريباً، لكنها بعد ذلك تبتسم وتقول: أوه، أوه، أوه، ضمت يديها. التي جعلتني أدخل. لتنتفخ بفرح مثل الطاووس وتطبخ طبقي المفضل، وأننا تجاذبنا أطراف الحديث على الطاولة، ولم أشعر بالخجل من إخبارها كم أحببتها، هكذا أحببتك كثيراً، وأريد أن أقوله لها كرجل، وأن أكتبه على قطعة من الورق إذا لزم الأمر، أن أكون متصنعاً مثل المغرور لن يكون أبداً، وأيضاً أن أكتب لها أن ذنبي لا يغتفر، يا إميريتا، لأنني لم أشكرك أبداً، وأعرف ما مررت به ولقد كنت تيساً حقاً ناكراً للجميل كل هذه السنوات، لأنك فقدت بالفعل ولداً ومعي اثنان، ولا أعرف كيف كان من الممكن أن أكون كذلك «جاحداً» الشكر كل هذا الوقت.

أود أن تناديني بعد ذلك بكوريته، كما كان الحال دائماً، وليس دافيد، وتأمرني بالصمت وتخبرني أنني أبدو أبله مثل إبريق، وأنه لا شيء مهم، وأن تسألني عن المائعتين وعن والديَّ، ثم تخبرني أنه ليس لديها أي خطأ تقريباً، وأنه يجب أن أعطيها إملاء.

أود أن أبدأ بالإملاء عليها: «شعاع وقع البارحة على الشجرة»، وأنها أجابتني: «واو، يا لهذا الفتى الشيطان، كيف سيضرب البرق بالأمس الشجرة»؟

فتقول «إذا كان الطقس صاحياً بالأمس»، وأننا كنا نضحك كلانا، ونضحك حتى نبكي وحتى تؤلمها المعدة بسبب الندبة المليئة بالخرزات، وبالنسبة إليّ يرتفع الارتجاع الذي يجبرني على شرب دواء اوميبرازول عيار عشرين مليغرام يومياً.

وأنه تبعاً لذلك، بعد أن عرفنا أخبار بعضنا، تجملت كما فعلت عندما كنا ذاهبين إلى السيرك.

ثم أقدم لها ذراعي كما في حفلات الرقص،

سأكون أنا الذي يأخذها وليس العكس،

وأن نعبر الساحة معاً، ببطء شديد، تحت ضوء المساء الخافت، حتى يتمكن الجميع من رؤيتنا.

* * *

لقد قرعت الجرس. مرة، اثنين، ثلاثاً.

فتح لي رجل في منتصف العمر الباب، فسألته عنها، وأخبرني أنه لا يعرف عمن أتحدث. ثم أغلق.

لذلك بقيت وحدي على عتبة المنزل، صورة إعلان تجاري بلا حظ. وتوقفت عند أول شخص ألتقيه، وأسأله مرة أخرى بمزيد من التفصيل، مع إعطاء المزيد من الدلائل، الآن نعم، الصمم، الشعر، طولها، عليه أن يتذكر. أنا ذلك السائح الذي يشير إلى رسم الخريطة لتمثال يظهر على الورق ولكنه اختفى في الواقع.

إنهم لا يعرفون من هي.

لم يسمعوا عنها من قبل.

لا يوجد فكرة عنها.

لو كانت لدي صورة فوتوغرافية، فسأعرضها عليك، لكنني لم أحضرها من مدريد.

إنه خامس شخص أقترب منه، ولا أحد يعرف السيدة إميريتا.

لا نتيجة.

كأنها لم تكن موجودة، وكأنني لم أكن موجوداً.

أحاول أن أهدئ مِنْ نفسي قليلاً، لنرَ، فكر.

من المؤكد أن السبب في ذلك هو أن القرية قد نمت كثيراً: في هذه السنوات ارتفعت من مئتي شخص قاطن إلى ثلاثة آلاف شخص قاطن، مع طفرة القرميد، امتلأت بالتوسع العمراني، تسعة من عشرة من الجيران الحاليون جاؤوا بعد مغادرتنا، وهاجر شباب تلك الفترة منذ ذلك الوقت. بالتأكيد، فإذا لم يتذكر أحد، فذلك لأن كل هذا حدث منذ وقت طويل.

فكر قليلاً. الجو اليوم عاصف وبارد جدّاً، وكبار السن لا يغادرون المنزل في هذا الطقس، الأكبر سنّاً لا بدَّ أنهم ماتوا أو أنهم في دار المسنين، من يدري، فربما رحل الكثيرون منهم إلى المدينة مع الأبناء. لقد سألت عنها الأناس النشيطين، الذين نزلوا للتو من شاحنة توزيع أو التي تخرج من دار البلدية إلى امرأة في منتصف العمر من الممكن أنها جاءت لتعيش في القرية قبل عشر سنوات.

وإلى شخص كان يبلغ من العمر خمسين عاماً يرتدي مريولاً أزرق وفي يده إعلان أجره، وإلى امرأة في الستينيات من عمرها نظرت إليك بارتياب، وكانت في عجلة من أمرها. لم تقترب من أي رجل عجوز، رجل عجوز حقيقي، إلى واحد عمره خمسيني، لأنه يجب أن يتراوح عمرها في التسعين أو أكثر، ذلك العمر متشابكٌ في النسيان والغياب.

في البار الذي كان يُطلق عليه اسم الكازينو، يوجد زبون واحد فقط، رجل يرتدي قبعة ووشاحاً كان يقرأ الجريدة على شبر من الأنف. إنهم يقدمون الأخبار على شاشة التلفزيون. هي سيئة جدّاً. تصل معلومات الطقس، المعلومات الوحيدة المهمة حقاً. النادل يرفع مستوى الصوت.

نظراً لعدم وجود شاي أخضر من ماركة بومبادور، فقد طلبت كلاريته (نبيذ رائق). أراقب بعناية الرجل الذي يقرأ الصحيفة على بعد شبر من أنفه. لديه مشروب مختلط على المنضدة، ويرتدي سماعة أذن يسرى، حليق الذقن تمامًا، يضع عود أسنان في فمه، يقلبه كل قليل.

هناك أشياء جرّبت بشكل يائس. وهي تعمل.

أخبرت النادل أن يقبض مني حساب ذلك الرجل. النادل يخبره، أنت مدعو يا إلاديو. يبتسم لي متفاجئاً. أمشي إلى طاولته. قبل أن يقول أي شيء، أجلس بجانبه.

«ألا تعرف من أنا»؟

* * *

ماذا أقول لك بعد فترة طويلة، إيه.

ماذا أقول لك إذا كان بإمكانك سماعي، إذا كان بإمكانك سماع نبرة صوتي، سماعها مرة واحدة على الأقل. ليس فقط ما أريد أن أخبرك به، ولكن كيف أقول ذلك. الهزة الخفيفة للترتيل، كيف يجب أن أتوقف بين الحين والآخر لأتحدث، وآخذا نفساً، وكيف أبلل شفتي؟ وكيف أتردد في اختيار الكلمات اللازمة والصحيحة؟ كيف أفعل ذلك دون أن يراني أحد؟

أتخيلك في ذلك اليوم الذي غادرنا فيه إلى ليغانيس، ندخل منزلك الفارغ مرة أخرى، في محاولة لملئه بالحرارة شيئاً فشيئاً، مع القيام بكل شيء في الظهيرة والتوق إلى تلك الضوضاء الذي لا يسمع، أنظر إلى أصدقائي من بعيد، والذهاب بمفردك إلى متجر ما وراء البحار مع نعلك للمشي في المنزل وتأخذين كيس الزيتون الكبير، في

حال عودتي للزيارة بعد أسبوعين. كما كان الحال في البداية. والعودة للتحضير للزيارة التالية.

أتخيلك طوال الوقت بعد ذلك، تفكرين كثيراً فيما كنت ستضعينه لي في الرسائل التي كنت تكتبينها.

أخذك قضية الرسائل كأهم لحظة في أيامك، كما ترين، كما لو أن الكلمات يمكن أن تغير شيئاً.

في انتظار ساعي البريد، كل صباح للتحقق من أنه لا يوجد شيء لك، إنك لم تكوني أحداً.

إنه في كل مرة كنت أقل من أي شخص آخر، وفي اليوم الذي كانت تصلك رسالة، تفتحينها مسرعة وأنت سعيدة كفتاة صغيرة.

أتخيلك وأنت تنتظرين تلك الدعوة للذهاب إلى مدريد التي قدمناها لك لنبدو بمظهر جيد ولا شيء أكثر من ذلك. تستقبلين رسائل متباعدة بشكل متزايد وأقصر طولاً. البطاقات البريدية مع كلماتي الأربع وقبلة من الحبر. إنه فخرك كأم مستعارة بالرغم كل شيء، ففي كل مرة كانت تقول لك أمي إنني اجتزت التعليم الثانوي أو إنني سأذهب إلى الجامعة. بالرغم من أنني لم أحقق لك رغبتك مصارعاً للثيران ولا بيطرياً، كما تعلمين. وهو ما كنت ترغبين في أن أكون.

أتخيلك وأنت تصعدين إلى الطابق الأعلى وتمسكين بالأشياء من وقت لآخر، مثل العروس المهجورة التي تفحص جهاز العروس الذي لن تدشنه أبداً، لأنهم تركوها للمرة الثانية. تكذبين على الناس عندما كانوا يسألونك، يكتبون لي كل أسبوع. نحن ذاهبون في الصيف لنقضيه معاً.

إذ اشترى ناتاليو بالفعل تذاكر لاس بنتاس لمصارعة الثيران.

أتخيل تألمك بسبب الابتعاد المتتالي لأمي، مع المزيد من الصمت المطول الذي كان قادماً. ومع مرور الوقت، رفعت والدتي جبلاً جليدياً عن غير قصد بين الاثنتين. ومنذ

ذلك الوقت لم أر سوى امرأة صماء من القرية أحببتها كما يحب الأطفال. أعرف ما رأيت أنت لأنني قرأت جميع رسائلك وكل واحدة منها.

أتخيلك في الأيام الأخيرة وأنت تنتظرينني أن أدخل من الباب، بالرغم من كل شيء. واثقة من تحقيق المعجزة، في ألا يكون لدي وقت فقط، بل والأهم من ذلك الذاكرة.

والآن أتساءل إذا كنت ستتعرفين علي، إذا أنا كنت سأتعرف عليك.

إذا لم تعودي تتذكرين في النهاية، وإذا لم يتبق آثار لتلك النزهات، وإذا لم يَرَكِ أحدٌ عاريةً كما رأيتك أنا، حينئذ أبقى أنا فقط كشاهد، وذكرى لمسة يدي لجرحك.

قالولي إنك تعيشين في سكن المسنين في القرية المجاورة، ولكن لم يأت أحد ليراك، لنرى من كان سيذهب ليراك، وأن لا أكثر من إحدى الجارات كانت تزورك، كالسيدة أمبارو، وأم توماس. كلهن يشفقن عليك، لأنك وحيدة، وصماء بالطبع.

لقد جئت أنا لرؤيتك.

حيث كان يوجد في السابق مقعد في الساحة، يوجد الآن كشك لا يمكنك أن تراه في ذلك الوقت إلا في المدينة.

على واجهة إحدى المجلات يعلنون عن تقرير حول «النساء المتحضرات يكسرن القواعد»، هكذا يكتبون. لا أعرف. يا إميه، لكني أتساءل دائماً لماذا لا يكتب أحد عن النساء الريفيات اللاتي كرّسن أنفسهنّ لربط القطع بعضها ببعضٍ.

* * *

أنهت فيرو الهندسة المعمارية، لكنها لم تمارسها قطُّ: تعيش جيدا في جزيرة مينوركا مع رجل يملك عدة شركات تأجير السيارات. انفصلت إيسا عن خوان بعد عام من زواجها. كانت تعمل مراقبة وقت الفراغ، عملت كتجارية في صناعة الورق، وبائعة بوالص تأمين. الآن لديها مخبز للعجين مع شريكتها الجديدة، وهي

فتاة رائعة تصغرها بعشر سنوات. يعمل فيسنتة خيسوس صيدلانياً في العاصمة. سوفراخيو لديها أربعة أولاد ثمرة لزواجين مختلفين. أخبروني أن غريغوريو يبيع الفاكهة، وأنه يكتسب الكثير من الوزن، وأن دوس بيلاس عانى مشاكل مع المخدرات في برشلونة. أما البقية فلم أعد أعرف عنهم شيئاً.

الشيء الوحيد الذي لم يتغير هي المقبرة، والموتى، فمن رحل، ومن لم يعد موجوداً، ومن لا يتحرك ولا يفكر بالابتعاد. هذه هي الحقيقة الوحيدة.

أنا في هذا المكان، جئت حتى هنا بعد مغادرة الكازينو وشراء المجلة التي أنت لا تظهرين فيها والتي تركتها على مقعد الراكب.

يحدث دائماً في الأفلام أن تجد القبر الذي تبحث عنه، قبراً مغطًّى من خلال الأوراق التي تظهر بعد مدّة، ووجه المتوفَّى في شكلٍ بيضاويٍّ، ملتصق بالرخام.

لكن هذا ليس فيلماً، ولا يوجد أحد في المقبرة ليخبرني.

جلس قط تحت أشعة الشمس. أجعله يذهب بعيداً بإشارة فووو. فيذهب. أنا أكره القطط. وأنا أبحث لمدة ساعة، وقرأت ما يسمى بالموتى في البداية ببطء شديد ثم أسرع، وهناك شاهدة قبر بها سيارتان صغيرتان ودميتان مطاطيتان، وأخرى تظهر بصورة مراهق على دراجة نارية، وآخر حيث يُقرأ فيها: «فقال له يسوع: «استرجع بصرك، إيمانك خلصك». ل س ١٨، ٤». وبنيت فجوات القرميد في الأرض، جاهزة للسكن، مغطاة بطبقة من الأوراليت وبعض الحجارة في الأعلى حتى لا يحملها الريح. وأنا ألعب لأحزر عدد أحرف الأسماء والألقاب، لكن لا شيء آخر.

هناك المئات من شواهد القبور. لن أتمكن من إخبارك بأي شيء. أنا لم أخذ إجازة لدورة عبر جبال الألب، بل جئت لرؤيتك. اتضح أنك لست هنا يا إميه. وصلت متأخراً مثلما عاد خيرمانين إلى القرية لدفن السيدة تريني. كخيرمانين، الشيء نفسه، لكن دون حذاء وسترة تمنح المجد لرؤيتها.

أعود من جديد إلى سيارة الفورد كوغا، وأثبت حزام الأمان، وأكتب وجهتي على المتصفح. أنا بحاجة لأراجع ألبوم الصور. آخذ المجلد الأصفر بين يدي. نحن نكون ما يحرقنا.

والدتي - التي أرسلت إليها عشرات الصور للقرية لكنها في البداية لم تتعرف عليها - لقد أرسلت لي رسالة على واتساب.

- تعال لتناول الطعام وأخبرني لاحقاً.

- ماذا لديك يا آنسة مرسيدس.

- عدس.

- مع أمخاخ؟

- مع أمخاخ

- جيد. أنا قادم إذاً.

- أنا أقلع بالسيارة.

في طريقي للخروج من القرية، مررت بشاحنة صغيرة يعلن مكبر الصوت أنهم ينجّدون الأرائك والكراسي بذراعين على الفور، تحتوي على جميع أنواع التشطيبات وإذا لم تعجبك النتيجة النهائية، يعيدون لك المال. توجهت بطريق المقاطعة واللوحات الإعلانية التي تبيع الجبن. الناس الذين يبحثون عن الفطر في قطعة أرض شاغرة. شاحنة صغيرة مع بعض المرشات خلفها.

لا أفكر في تجاوز السرعة تسعين بالساعة. لقد تجاوزت اثنين من راكبي الدراجات اللذين يتحدثان بالتوازي مع صدرية عاكسة.

أبي يغير الدولاب دون صدرية عاكسة.

هذه هي الصورة التي أتذكرها: في المرة الأولى التي نبنشر فيها، مشمرا أبي يدَيْهِ السوداء، جبينه ملطخ، راكعاً على حافة الطريق، وتعدد المعاني لكلمة قط.

قبل كل رحلة إجازة، تماماً عندما شغل والدي محرك السيارة، تجعلنا أمي دائماً نصلي «حفظك الله يا مريم أو أبانا». لقد فعلت ذلك من قبل الرحلات الطويلة. وكأن العائلة كانت بأمان في الرحلات القصيرة، وكأن السوء يتربص بنا فقط عندما نذهب إلى مكان لم نكن فيه قطُّ. «تقول هيا لنُصلِّ». وفي نهاية الصلاة، صلبنا أنفسنا جميعاً. الجميع ما عدا والدي.

قال لها ذلك اليوم: - «لقد بنشرنا». لقد بنشرنا بالرغم من صلاتكم أنتم الثلاثة، إيه.

- أنت ملحد كما الله أمر.

أنظر في مرآة الرؤية الخلفية، وأرى عيون أبي تبتسم، وهي تكتب الإملاء، لم يعرفوا أن يقولوا لي عن الموضوع. ماذا لو كان العمر، ماذا لو المرض، ماذا لو أطفئت الشمعة، كل ما هو نموذجي.

قالوا لي: «إن المسكينة كان وضعها سيئاً، وتقول تراهات» أشياء مثل قول شيء وعكسه.

أشياء لا معنى لها.

كما حين طلبت أن تُدفني مع ابنك الوحيد، وأُخبرتِ على الفور أن ابنك كان في وضع جيد جدّاً في مستشفى ليغانيس. فيما يخصك. مع ابنتين. هيخاس تكتب بالحرف هاء.

* * *

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

شكر

من الإنصاف القول - ما وراء عدة عبوات من عشبة المته ماركة باخاريتو وتاراغوي - لقد رافقني في تأليف الكتاب كتبٌ أخرى ومؤلفون وأشخاص آخرون، كما هو الحال مع المتة، بوعي أو بغير وعي، كنت أمص.

كان لديّ كتاب (النسيان الذي سنكون)، بقلم هيكتور أباد فاسيولنس. لأسباب كثيرة ملخصة في قسمين: لمعرفة ما إذا كان هناك ما قد أقتبسه (عبثاً)، ولأنني أردت التحدث عن الفقدان.

أعدت قراءة «خمس ساعات مع ماريو» بقلم ميغيل ديليبس للسبب نفسه.

أنا مدين لميغيل هيرنانديز ببيت الشعر «لم نستطع أن نكون». من قصيدة تسمى «بعد الحب».

إن فكرة إنجاب الأطفال لنا هي عبقرية للشاعر خيسوس مونتيل، وليست مني. وكذلك صورة كلب وهو يضرب بأنفه الثلج.

الشيء المتعلق بأنه أصبح بالغاً هو التوقف عن فعل الأشياء التي كان يمكنك فعلها من قبل والآن لا يمكنك فعلها. قالها لي بيريس ريفرتي في منزله خلال مقابلة.

إن نص بيبي كالتاسلارغاس الذي يظهر في هذه الصفحات ينتمي إلى العمل بيبي كالتاسلارغاس الجوارب الطويلة مع السيد نيلسون والعم الصغير، بوساطة أستريد ليندجرين. من دار نشر خايمس ليبروس للنشر، ١٩٧٥. يتوافق النص الذي نسخ عن حياة حيوان الكنغر مع كتاب «كبار الواثبين»، من دار نشر فهر، ١٩٧٥. النص والصور من بومونت.

شروط ولادة المرأة في الستينيات مأخوذة من تحقيق «قصة قابلة في ريف إسبانيا» في منتصف القرن العشرين، بقلم إيلينا أندينا وخوسيه سيليس من جامعة اليكانته.

الشكر لآنا بيلين موراتيلا ولأنطونيو لوكاس ولكريستينا موريت ولبيدرو رودريغيز، على مساهماتهم القيمة.

هناك شيء آخر، أعتقد أنه الأهم من ذلك كله: كان من دواعي سروري أن أكون قادراً على تقديم آيات الشكر لها.

انتهُيَ من كتابة المسودّة الأولى لهذا الكتاب في ٨ كانون الثاني ٢٠٢٠ في سان مارسيال ديل بينو (زامورا).

في اليوم نفسه من عام ١٩٩٦، توفيت كارمن كوندي، وهي أول امرأة تشغل مقعداً في الأكاديمية الملكية الإسبانية.

النسخة النهائية بتاريخ ٢٦ تموز ٢٠٢٠ وانتهُيَ منها في ألوسين (غوادالاخارا).

مثل هذا اليوم، ولد أنطونيو ماتشادو عام ١٨٧٥.

الجاحدون

بيدرو سيمون

النسخ الكلي أو الجزئي لهذا الكتاب غير مسموح به، ولا ضمه إلى نظام معلوماتي، ولا نقله بأي شكل أو بأي وسيلة، سواء كانت إلكترونية أم ميكانيكية أم عن طريق التصوير أم التسجيل أم بأي طرق أخرى، دون إذن مسبق خطيّ من الناشر.

قد يشكل التعدي على الحقوق المذكورة أعلاه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

فهرس

الصفحة

ملخص ٥
الجاحدون ٧
الإهداء ٩
اقتباس ١١
(١٩٦١) ١٣
(هو) ١٩
(هو وهو) ٣٨
(هو وذاك) ٦٢
(هي وهي) ٨٨
(هو وهم) ١٠١
(هي وهو) ١٢٤
(هو وهي) ١٣٤
(هي وذاك) ١٦٤
(هو وهن) ١٨٤
(هو وهذا) ٢٠٨
(٢٠٢٠) ٢٣١
(الجاحدون) ٢٣٣
شكر ٢٤٩
فهرس ٢٥٢

بيدرو سيمون
(١٩٧١-٠٠٠٠)

- كاتب وصحفي إسباني.
- حاصل عل العديد من الجوائز، آخرها جائزة الصحافة لعام، ٢٠١٩م.

- من مؤلفاته:

- خطر الانهيار (الحدود)، ٢٠١٦م.
- سجلات البربرية، ٢٠١٩م.
- سوء الفهم، ٢٠٢٢م.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

نعمان بسام اسخيطه

- مترجم ومهندس.
- له مؤلفات بالهندسة ومقالات علمية في الدوريات والمجلّات العلمية باللغة العربية.
- يعد هذا الكتاب أول أعماله المترجمة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

يأخذنا الكاتب بيدرو سيمون إلى أعوام السبعينيات، إلى إسبانيا الريفية التي هاجر سكّانها من الأرياف إلى المدن، ومنهم دافيد الصغير ذو الأعوام الثمانية الذي ينتقل مع عائلته، لأن والدته معلمة بالأرياف. تدور أحداث الرواية في إحدى تلك القرى بين الطفل دافيد والسيدة شبه الأمية التي مات زوجها ورضيعها، وعاشت وحدها مصابة بالصمم، فاعتنت بالطفل دافيد وعاشت مع العائلة.

تبرز الرواية الجحود ونكران جميل الأمهات والنساء الريفيات، اللاتي تمتعن بذكاء فطري وقدّمن التضحيات للأجيال المتعلمة.

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٣م